جمعية تطاون أسمير

جمعية سيدي طلحة الدريج

سيدي طلحة الدريج

صفحات من الجهاد الوطني لاسترجاع مدينة سبتة المحتلة

أشغال الندوة العلمية

"التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا"

المنظمة بالتعاون

بين جمعية تطاون أسمير وجمعية سيدي طلحة

يوم السبت 15 أكتوبر 2016، بتطوان

للحقيقة والتاريخ

فى عام 1987، بعد لقاء أجراه الملك الراحل الحسن الثانى مع وزير الداخلية الإسبانى خوصى باريونويفو José Barrionuevo ، سلم لهذا الأخير رسالة موجهة إلى العاهل الإسبانى خوان كارلوس . وفى الرسالة، اقترح فيها الحسن الثانى على نظيره الإسبانى إنشاء خلية تفكير لمعالجة الوضع المستقبلى لمدينتى سبتة ومليلية.

ومن مواقفه ،رحمه الله، كذلك :

"لا حل لقضية جبل طارق دون رجوع سبتة ومليلية إلى المغرب"

عناوين الاتصال

-**جمعية تطاون أسمير**: ساحة 9 أبريل، ص. ب. 633 – تطوان – الهاتف والفاكس 0539702025، البريد – tetouan.asmir@gmail.com achaachoo@gmail.com

-**جمعية سيدي طلحة الدريج** : زنقة معاوية بن أبي سفيان، دار الشرفاء ، حي سيدي طلحة – ، تطوان . الهاتف :0660002219 – 0661166238 / البريد mderrij@hotmail.fr

تذكير

ارتأينا في لجنة التحرير والنشر تعميما للفائدة وإغناء لهذا المؤلف الجماعي، أن نضيف إلى المحاضرات الأساسية التي شكلت أشغال الندوة بعض الدراسات التاريخية المتميزة و القراءات المختارة ، كما أضفنا إفادات و صورا ذات طابع توثيقي بتعليقاتها ، حول سيدي طلحة وموضوع الندوة بشكل عام.

وارتأت اللجنة تقسيم هذا المؤلف،بعد التصدير العام، إلى ثلاثة أقسام :

- تصدير عام .
- القسم الأول خصص لنشر و تغطية أشغال الندوة ،
- القسم الثاني يضم دراسات إضافية و قراءات مختارة ذات الصلة،
- وخصص القسم الثالث للتعريف ببعض النماذج من أنشطة الجمعيتين .

وتبقى كل الدراسات والمقالات الموقعة محفوظة الحقوق لاصحابها وتعبر عن رأيهم ولا تتحمل لجنة التحرير والنشر في الجمعيتين ، أية مسؤولية عن المعلومات والافكار الواردة فيها.

تصدير علم

إعداد لجنة التحرير والنشر

عندما فكرنا في نشر هذا المؤلف الجماعي والذي يضم أساسا أشغال الندوة العلمية : **"التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا"**، ودراسات إضافية مختارة حول احتلال مدينة سبتة المغربية وجهاد المغاربة لاسترجاعها والدور الريادي لأعلام تطوان ومن بينهم سيدي طلحة الدريج، و التي مازالت تعاني من الاستعمار الإسباني بعدما عانت من قبل من الاحتلال البرتغالي، فإن غايتنا هي ربط الماضي بالحاضر استشرافاً لما يطمح إليه المغاربة وفي انسجام تام مع المواثيق الدولية ومع حقائق الجغرافيا ومعطيات التاريخ القريب والبعيد، نقول مما يطمح إليه جميع المغاربة بمن فيهم سكان مدينتي سبتة ومليلية والجزر الملحقة بهما، لتحريرهما من ربقة الاستعمار الإسباني واستردادهما إلى حظيرة الوطن.

كانت مدينة سبتة، والتي هاجمتها الحملة الصليبية بزعامة البرتغال وبمباركة من البابا، واحتلتها سنة 818هـ / 1415م.أول أرض تستعمر في المغرب العربي، وأول بلد إفريقي يستولي عليه المستعمر الأوربي في العصور الحديثة.

تحتل مدينة سبتة، كما هو معلوم، موقعا استراتيجياً هاماً. فهي شبه جزيرة مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى بوغاز جبل طارق بشكل بديع. وغير بعيد عن المدينة إلى جهة الغرب يوجد جبل موسى الذي ينسب إلى موسى بن نصير، الذي فتح طارق بن زياد الأندلس على عهده. وهي محصنة طبيعياً مما شكل صعوبة أمام استرجاعها من طرف المجاهدين وفشلت حملات الحصار المتعاقبة.

وبسبب موقع سبتة، صارت محط أنظار العالم القديم والحديث، لأنها تربط القارة

الإفريقية بأوربا، كما كانت تشرف على حركة التجارة العالمية التي تمر عبر البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي. مما جعل الدول تتسابق إما لربط علاقات الود والصداقة والاستفادة من مكاسب تجارية واقتصادية أو لاحتلالها؛ «الأمر الذي جعل لها مكانة مرموقة في العالم السياسي قديماً وحديثاً، وخاصة في العصر العزفي والمريني حيث بلغت المدينة أوج عزها وازدهارها... قبل أن تقع فريسة بين براثن الغزو البرتغالي... »[1].

وتقع سبتة جغرافيا بين ناحيتين كبيرتين: ناحية شرقية تعرف ببلد نكور (الريف)، ويمتد على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط ما بين قبيلتي بني يزناسن شرقاً وغمارة غرباً، وهو يحد جنوباً بورغة، وفيه توجد مدينة مليلية السليبة.

أما الناحية الغربية، فكانت تعرف باسم "غمارة"، وتضم تسع قبائل واقعة إلى شرق مدينة تطوان، وتمثل تلك القبائل المرتبطة بالأصول المصمودية ، القاعدة الأولى التي كان يعتمد عليها زعماء الجهاد في جهادهم المقدس. وتنحدر فضلاً عن تلك الأصول الأمازيغية، من أصول عربية دخلت المغرب منذ الفتح الإسلامي، كما تمثل نموذج الامتزاج الأمثل بين سكان المغرب "امتزاج الروح بالبدن"، مما خولها للمساهمة كثيراً في إشعاع الثقافة العربية الإسلامية للمنطقة بأسرها، ومنها مدينة سبتة، التي لم تبلغ مدينة مغربية مستواها في الثقافة والعمران على عهد المرابطين والدول التي تعاقبت بعدهم.

ويتحدث **جرمان عياش** في دراسته عن "بليونش ومصير سبتة بين المغرب وإسبانيا"، (هسبريس تامودا، 1972 ص 7) عن الأهمية الاستراتيجية والعسكرية التي كانت تحتلها :« تتمتع سبتة بمناعة عظيمة باعتبارها شبه جزيرة محاطة بالمياه وحتى البقعة الضيقة التي تربطها باليابسة من جهة الجنوب تخترقها قناة يمكن أن تعزل المدينة وتحميها من أية هجمات تأتيها من القارة».

ويضيف: «إن هذه الوضعية الخاصة جغرافياً والتي منحتها مكانه متميزة في ظل الإسلام، استمرت بعد ذلك، ولكن بشكل معاكس في تحديد مصيرها».

وبالفعل، ستستغل سبتة في الاتجاه المعاكس، فعندما كانت ممرّاً أساسياً للفتوحات

[1] – إدريس خليفة، التاريخ المغربي لمدينة سبتة، الرباط 1988، ص 12.

الإسلامية ولإبحار سلاطين المغرب لمقاومة المد المسيحي، أصبحت بعد سقوطها في أيدي البرتغال، مَعْبَراً لتسهيل احتلال العديد من الثغور المغربية شرقاً وغرباً. فكثيراً ما كان الهجوم على طنجة مثلا لا يتم عبر البحر، بل يتم عبر البر بالعبور من مدينة سبتة.

وفضلاً عن موقعها الاستراتيجي والحصين، فقد بلغت مدينة سبتة المغربية مكانة حضارية وعمرانية عظيمة في عهد المرابطين والدول التي تعاقبت بعدهم. وقد أفاض العديد من الأدباء والمؤرخين وغيرهم في الحديث عنها ووصف عمرانها ومكانتها العلمية والأدبية والدينية التي اشتهرت بها على ذلك العهد. وكان **الأنصاري** مؤلف كتاب "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار "، يعيش بها حين غزاها البرتغال واحتلوها. فهاجر منها إذ ذاك إلى إحدى قرى "أنجرة"، واستقر بها، وألف كتابه هذا بها منتهياً من تدوينه عام 825 للهجرة. فخلد، بهذا الكتاب، ذكرى مدينة سبتة وقرية بليونش في الفترة التي سبقت الاحتلال الأجنبي والتي مثلت قمة ما وصلت إليه المدينة المغربية في ظل الحكم العربي الإسلامي من مجد وعظمة ورفاهية. وتتبع ما أورد الأنصاري في كتابه، سيعطينا نظرة وافية عن أهمية العمران في المدينة وحضارتها والشعور بالخسارة الفادحة التي أصابت المغاربة منذ فقدوا هذا المركز الاستراتيجي والثقافي الهام، وما كان لهذه الخسارة من آثار لاحقة على أمن المغرب واستقراره واستقلاله الذي لا يزل مهدداً في وحدته منذ ذلك الحين.

قال الأنصاري في مقدمة الكتاب: «هذا جزء جامع لما كان عليه ثغر سبتة – من الله على المسلمين بفتحه – من قبور أعلام الشرفاء، وجهابذة العلماء، وكبار الأولياء، ونساك الصلحاء، وبلغاء الخطباء، و نبغاء الأدباء، وما يناسب ذلك من معالم الدين وينخرط في سلكه من ذكر المساجد الشريفة السبتية والخزائن المتعددة الفنون العلمية والزوايا والمدارس والروابط والمحارس وسوى ذلك من الأماكن المنبئة بما يدل على شماخة القطر وكثرة الوارد والسالك وما فيها من المضارب والمصائد الكثيرة السمك الجمة الفوائد، وأنبه على شرف القرية البنيونشية، المشهورة في الآفاق بما لها من المحاسن الشاهدة بالفضل والمزية،

حسبما جرد من تأليفي "الكواكب الوقادة"و"الإعلام" ليكون سهل المنال قريب المرام»[2].

فالكتاب تاريخ جامع لرجال سبتة وأحوالها وعمارتها ومدارسها وزواياها وتجارتها ومنتزهاتها وغير ذلك مما يتعلق بها، وهو مع هذا إنما هو مختصر من كتابي"الكواكب الوقادة" و"الإعلام" للمؤلف الذي لم يقف الباحثون إلى الآن على أثر لترجمته.

لقد كانت مدينة سبتة قبل الاحتلال البرتغالي والاغتصاب الإسباني، منذ فترة مبكرة من حياة المغرب الثقافية، أحد المراكز الهامة التي ازدهرت بها مختلف ضروب المعرفة ونشطت مختلف الفنون والصناعات. لقد جعلها موقعها الفريد والمتميز دائما ملتقى للقادمين من المشرق إلى المغرب والأندلس والعكس، يقيمون فيها وينشرون بها علومهم ومهاراتهم ويذيعون بها آدابهم في مجالس الدرس والتحصيل التي كثرت بها.

«وسواء حين كان ينزل المدينة هؤلاء العلماء الوافدون من المشرق، أو حين كان ينتقل إليها هؤلاء الشيوخ القادمون من الأندلس، أو حين كان يهاجر إليها علماء فاس وغير فاس من مدن المغرب، أو حين كان يعود إليها أبناؤها بعد الرحلة في طلب العلم بحواضره في المشرق أو في الأندلس، كانت سبتة تتلقف من أيدي هؤلاء وأولئك جميعاً مختلِف التيارات والمذاهب العقلية والعلمية والأدبية التي كانت تتدفق بها مجالس الدرس والبحث ومجالات التأليف والتصنيف في فاس وقرطبة وبجاية والقيروان ودمشق وبغداد والقاهرة وغيرها. وكانت سبتة تتأثر بذلك جميعه تأثراً بعيداً. ثم تتمثله على نحو فريد من النضج العقلي، والوعي بالذات، عرفنا صوراً منهما فيما انتهى إلينا من مؤلفات بينها في التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو، والآداب. وكانت المدينة خلال عملية التلقف والتأثر والتمثل والعطاء تكتسب أهميتها بوصفها أحد المراكز العلمية الهامة التي نورت مدى

[2] – محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، "اختصار الأخبار "تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983.

قرون، أفق المعرفة والفكر والأدب، ليس في المغرب الأقصى فحسب، ولكن في الغرب الإسلامي بعامة.

وليس من سبيل إلى بلورة هذه الأهمية والكشف عنها إلا من خلال ما نعرف من كتابات المؤرخين الذين أفردوا المدينة بمؤلفات خاصة، أو الذين وقفوا عندها في تواريخهم العامة، وأيضا من خلال ما وصلنا من إسهام السبتيين في المكتبة الشرعية واللغوية والأدبية ومع أن ما وصلنا من هذا الإسهام قليل بالقياس إلى ما ضاع منه، فإنه يفيد بالغ الفائدة في استخلاص ملامح من حياة المدينة العقلية والعلمية على عصور مؤلفية». (د. حسن الوراكلي، ص 12)[3].

نعم، لقد بلغت مدينة سبتة شأواً عظيماً في مستواها الثقافي والعمراني لم تبلغه مدينة مغربية أخرى على عهد المرابطين والعهود التي توالت بعدهم. وذلك قبل أن يحتلها البرتغال والإسبان من بعدهم، ويقضوا على المعالم المدنية والحضارية بها ويحولونها إلى ثكنة عسكرية وإلى معتقل للمجرمين. لقد أطلق الإسبان على الجيوب المغربية المحتلة في الشمال اسم PRESIDIOS، أي المعتقلات الخاصة بأخطر المجرمين. وبهذا الاسم ورد ذكرها في جميع الوثائق والمستندات الإسبانية. وتقول المصادر البرتغالية إنه عندما دبرت إسبانيا المؤامرة التي مكنتها من اغتصاب مدينة سبتة سنة 1640، لم تعتمد في ذلك إلا على العدد الكبير من المجرمين البرتغاليين الذين كانوا بها وساعدوا المرتزقة الإسبان على تنفيذ المؤامرة.

وتشهد الوثائق البرتغالية والإسبانية على أن الجيوب المذكورة لم يكن بها من السكان المدنيين غير السجناء. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الإسباني كورديو ما يلي: «لقد نفذ أمر الملك البرتغالي خوان الأول بكل دقة، لدرجة أنه يمكن القول بأن أصل سكان مدينة سبتة البرتغاليين كان من السجناء، كما كان أصل السكان الإسبان كذلك من السجناء». (Gordillo عن كتاب "سبتة ومليلية في عهد الحماية"، محمد ابن عزوز حكيم، الرباط 1988، ص 25).

---

[3] – د. حسن الوراكلي، "شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة"، تطوان، 1984.

كما أورد ابن عثمان وصفاً لسبتة في عهد الاحتلال الاسباني في كتابه "الإكسير في فكاك الأسير" الذي سجل فيه رحلته إلى إسبانيا سفيراً عن سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله عام 1193هـ/1779م وقيد به ما آل إليه أمرها إذ صارت مجرد قلعة حربية لمن كان بها من جنود الاحتلال وسجناً أو منفى لعدد من المجرمين الذين كانت الدولة الإسبانية تخرجهم من بلادها تفادياً لجرائمهم، وأظهر ابن عثمان ما كان يشغل أمر حراسها ويرهقهم من خوف المسلمين وما أقاموه من تحصينات معقدة وأسوار كثيفة حول المدينة وإجراءات أمنية مبالغ فيها وحفائر وأجراء للماء من جهة الغرب الذي يصل المدينة بالأرض المغربية مما جعلها تشكل في هذا العصر جزيرة يحيط بها البحر من كل الجهات. (إدريس خليفة، التاريخ المغربي لمدينة سبتة، ج 1، الرباط، 1988، ص 53).

سيخلف احتلال سبتة أثراً كبيراً في نفوس المغاربة وجرحاً عميقاً لم يندمل، ولن يندمل إلا بعودتها إلى حظيرة الوطن. وكانت حركات الجهاد وإنشاء المرابط والزوايا وتألق الأولياء والأشراف، اندفاعات دينية وقومية عكست مدى الخطر الصليبي الذي تهدد المغرب، بعد سقوط سبتة في أيدي البرتغال وبعدها في أيدي الإسبان. وهنا نذكر بأن الاستيلاء على سبتة قوبل بالترحيب في العالم المسيحي، وأثار حماساً كبيراً "لأنه كان بمثابة حملة صليبية ناجحة" كرد فعل ضد انتصار الأتراك العثمانيين في شرق أوربا على التحالف المسيحي والذي اعتبر احتلال سبتة على أنه أول هجوم مسيحي مضاد ناجح ضد المسلمين. وقد حرص ملك البرتغال على التوكيد بأن استيلاءه على سبتة لم يكن باسم البرتغال فحسب، بل باسم العالم المسيحي بأسره وأول استيطان أوروبي ثابت على ساحل المغرب الأقصى. كما تتحدث كثير من المصادر عن استماتة سكان سبتة في الدفاع عن مدينتهم رغم تفوق العدو عُدةً واستعداداً، وتصف قيامهم بالهجوم دون سلاح على الغزاة، وتذكر أن المغاربة قاتلوا دفاعاً عن مدينتهم وعن منازلهم حتى النهاية، "مؤثرين الموت على الفرار، وهم عُزَّلٌ من السلاح، يرمون أنفسهم على الجند المسلحين مستميتين في القتال، ولم يستسلموا حتى أمام الكثرة من الجند، وكان من يسقط منهم جريحاً يواصل القتال ويلوح بيده على أعدائه". نضيف إلى ذلك

أن صالح بن صالح آخر حكام سبتة لم يحسن الاستفادة من الإمدادات الإقليمية. كما أن أبا سعيد المريني ملك فاس، تخاذل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاه الخبر وهو منغمس في وليمة ولم يوقف الاحتفال. وبعد يومين من سقوط المدينة في أيدي البرتغال، قام ملكهم بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبتة إلى كنيسة كاثوليكية، وأقيم فيها حفل كبير جرى فيه ترسيم أبناء الملك الثلاثة فرساناً.

لوحة برتغالية تجسد الانزال البرتغالي والصليبي الغادر لاحتلال مدينة سبتة يوم 21غشت سنة 1415، والذي شاركت فيه أزيد من 200 سفينة وأزيد من 50 الف من المقاتلين المجهزين والمدربين أحسن تدريب ، من طرف البرتغال في حرب صليبية مدمرة باركها البابا وشاركت فيها الجيوش والسفن من العديد من البلدان المسيحية وخاصة من منطقة كاليسيا شمال الاندلس وفرنسا وألمانيا وغيرها فضلا عن الجيوش البرتغالية المسلحة والمدربة أحسن تدريب،وما رافقها من مذبحة رهيبة ضد سكانها المغاربة المسلمين العزل وسلب ونهب لثرواتها. وحرص ملك البرتغال على تأكيد أن استيلاءه على سبتة لم يكن باسم البرتغال فحسب بل باسم أوروبا المسيحية بأسرها.

ورصد **ازورارا** أصداء الاجتماع الذي عقده سكان سبتة الناجين من بطش البرتغال ، للنظر في وضعيتهم الجديدة التي فرضت عليهم البقاء خارج أسوار

مدينتهم. وكان المجتمعون حسب ما يعتبره المؤرخون "المحضر الشفوي للاجتماع"، من كبار رجال سبتة، وبحضور عبد الله (عب) بن محمد المجكسي، بصفته رئيس المجاهدين. و بالطبع لا يمكن التعرف على العدد الذي كان يمثله أولئك في الاجتماع، ومن هم نواب الجماعات. وما يمكن قوله عن تقرير السكان المطرودين أن عددهم يساوي أغلب من نجا من الأسر أو القتل داخل المدينة. أما مقدار المفقودين فتراوح بين 5.000و 10.000 بين قتيل و أسير.(أزورارا عن حسن الفكيكي ، المرجع السابق ص.97.) .

ويؤكد الفكيكي أن جل سكان المدينة الذين نجوا من المذبحة الرهيبة ،كان حاضرا بالمقربات إلى غاية فاتح سبتمبر من سنة الاحتلال، وهو التاريخ الذي تأكد فيه للسبتيين إصرار البرتغال على البقاء بالمدينة. و ابتداء من هذا التاريخ بدأ السكان التفكير في مغادرة المكان .

ولربما استرجع سكان سبتة بعض معنوياتهم، نتيجة حضور المجاهد عبد الله (عب) بن محمد برجال مجكاسة يوم 10 سبتمبر، غير أن الآمال عادت الى نضوبها تدريجيا، باعتبار النتائج الحربية الضعيفة المتوصل إليها بالميدان ، مما ترتب عنه شروع بعض الجماعات في البحث عن أماكن الاستقرار أكثر أمنا وأضمن للعيش، مما هو ظاهر من محضر الاجتماع. ومع ذلك فان عدد السكان السبتيين المتبقي في آخر نوفمبر كان ما يزال هاما، ينتظر القرار الجماعي الأخير .

"و الثابت لدينا ،حسب حسن الفكيكي، أن جبل غمارة المقابل لسبتة كان خلال المدة المتراوحة بين آخر شعبان ونهاية رمضان، نوفمبر سنة الاحتلال، خاليا من سكان سبتة المطرودين ، مما مكن البرتغاليين من الشروع في غزو القرى المجكسية ، بدءا بقرية النارنج. فهل يمكن التعرف على الجهات التي قصدها سكان سبتة أخيرا؟"

هناك ما يطمئن من الأجوبة ، فقد ذكرت حوليات ازورارا ، أن بنيونش استقبلت عددا منهم، لذلك كانت الهدف الثاني من سلسلة غزو الحامية البرتغالية للقرى المجكسية. ويشارك في هذا الرأي ،المجهول صاحب التقييد الذي اعتمده الشراط في كتابه عن حروب المجاهدين "كشف الحجاب....."بقوله : و الكل عرف أن سكان بنيونش و البيوت و الفنيدق (قلعة متنة) و تغرامت، وغيرها من القرى

المجاورة ، ينتمون إلى أسر أصلها من سبتة"(محمد ابن عزوز حكيم "لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية " ،تطوان ، 1979، ص. 25).
"ووجدنا صاحب الرأي الثاني قد صرح في الاجتماع المشار اليه ينصح المجتمعين بالتفرق على الجهات، ويعبر بالنسبة إليه عن رغبته للتوجه إلى القصر الصغير" .
"وهناك أيضا مدينة تطوان التي تأكدنا من استعادة حياتها الكاملة قبل سنة 1436/840 م . مما دل على أنها آوت العديد من السبتيين ، وأغلب الظن أن المجاهد **سيدي طلحة الدريج كان من بين هؤلاء الذين استقروا بمدينة تطوان بما يكفي لتعمير المدينة و اعادة بناء أسوارها و مرافقها المدنية و الحربية**".(حسن الفكيكي،"سبتة المغربية"، ص.99).
ويمكن أن نقول نفس الشيء عن القرى المجكسية. إذ أن التنظيم المقترح في الاجتماع المذكور من طرف أصحاب الرأي الثالث، فيما يخص الحراسة، وجدناه مطبقا في القرى المعرضة للغزو، سواء بمجكسة أو بقرى أنجرة وبنى حزمار .
تطرح هذه الفترة الأولى من الوجود البرتغالي بسبتة مشكل الوضعية التي كانت عليه القوة الدفاعية بالشمال الغربي، ويظهر هذا من تعدد صور اختلال التوازن الحربي بين بلادنا وشبه الجزيرة الايبيرية . وتبين هذا منذ الاشهر الأولى من الاستقرار البرتغالي بسبتة. ففي هذا الإطار ينبغي فهم حركة المقاومة والجهاد.

كما عكست حركات الجهاد، في نفس الوقت، مدى الروح الوطنية العالية التي سادت، وما تزال، في مواجهة الحملات الصليبية والأطماع الاستعمارية. ويكفي للدلالة على إصرار المغرب، أن نذكر بأن مدينة سبتة عرفت منذ أن سقطت في قبضة البرتغال ثم الإسبان بعدهم، 116 حصاراً، وكان أطولها الحصار الذي ضربه الملك العظيم المولى إسماعيل ابتداءً من سنة 1694م ودام 33سنة، وأكثر من 130 هجوماً. وخارج هذه العمليات، فإن المدينة ظلت محاصرة دائماً من طرف القبائل المغربية المجاورة لها وبتنظيم من زوايا الجهاد، والتي كانت تتقوى كلما ضعفت السلطة المركزية، خاصة أواخر عهد المرينيين وأيام الوطاسيين والذين بسبب عجزهم عن قيادة المقاومة، فقد فضلوا إبرام الصلح، فأخذ زعماء الزوايا يطعنون في سلطتهم وقاموا بتنظيم المقاومة ضد الاحتلال، بل هيأت تلك الزوايا

الظروف لسقوط الوطاسيين وصعود الشرفاء السعديين إلى الحكم.

مما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن المغرب لم يرضخ عبر التاريخ لوجود أجنبي فوق أرضه، فقد شن الحملة تلو الحملة، وخاض المعارك عسكرياً وديبلوماسياً لتحرير الثغور الشاطئية، ونجح في طرد المحتلين من جميع موانئه باستثناء سبتة ومليلية والجزر الجعفرية.

كما تأتي أهمية نشر هذا العمل الجماعي والمشترك، من ملاحظتنا لقلة المصادر المتداولة التي تتحدث عن رجالات المقاومة وعن جهادهم وعن نضج الوعي الوطني خلال فترة عصيبة من تاريخ المغرب، تعرض فيها لهجوم صليبي وحشي. فعلى الرغم من تعدد المصادر التي تتحدث عن المقاومة المغربية وعن جهاد المجاهدين وحصارهم لمدينتي سبتة ومليلية، سواء المصادر الأجنبية أو المغربية، فإنها تبقى بشكل عام شحيحة في الحديث عن شخصيتهم، ولا تقدم تفاصيل عن حياتهم وعن رباطهم وعن علاقاتهم واستعداداتهم للجهاد وما إلى ذلك مما كان سيفيدنا لا محالة في معرفتهم أكثر والتعرف على جميع الظروف التي رافقت عملياتهم الحربية، وكذا نتائجها المباشرة وغير المباشرة (...) وكانت تكتفي في أحسن الأحوال بإشارات سريعة إلى ملاحمهم وبطولاتهم.

فإذا توقفنا قليلاً، وعلى سبيل المثال، عند نموذج واحد من بين العديد من المجاهدين من أعلام تطوان ،وهو سيدي طلحة الدريج، فإن تلك المصادر والمغربية منها على وجه الخصوص، لم تستثنيه، باعتباره من رجالات التصوف، من ذكر مناقبه وكراماته، وتكتفي بالحديث عنه بشكل عام، بنفس الأسلوب المتبع في العادة في الحديث عن الأولياء والأشراف زعماء الزوايا ومرابط الجهاد.

فحسب أبو الربيع سليمان الحوات المتوفى سنة 1231هـ، فإن من صفات الشيخ أبي يعلى طلحة بن عبد الله الدريج، أنه كان أسمر اللون، طويل القامة، قوي العضلات، وكان محارباً مغواراً، متصفاً بالشهامة والشجاعة، يلبس جبة خضراء، وله فرس يركبه للجهاد.

وحسب كل من أحمد الرهوني ومحمد داود وهما من أبرز مؤرخي تطوان، فقد

نسبت إلى سيدي طلحة كرامات عديدة سواء في حياته أو مماته، حيث كان يقصده للزيارة في مهام أمور أكابر العلماء والمجاهدين. "ولا زال أهل تطوان يقصدون ضريحه كلما دهمتهم فتنة وأصابهم مكروه".

فهو "أبو يعلى"، إذن، هو شخص تاريخي يحمل كنية صيغتها بدخول "أبو" عليها، عربية.

كما ذكروا خلق شخصه: فهو "طويل قوي العضلات". والإشارة إلى لون بشرته، "أسمر اللون"، لا تخلو من مغزى تاريخي. ونجد بعض المؤرخين أمثال صاحب "المستفاد" وصاحب "التشوف" يلحون عليها لدى العديد من مترجميهم.

ولباس الشيخ "جبة خضراء"مما لا يخلو بدوره من دلالة اجتماعية بما تمنحه جبة الصوف لحاملها من وقار وهيبة، وما يمثله اللون الأخضر بالنسبة للعامة، وما يحمله من مضامين ورموز دينية شائعة مما يزيد في ترسيخ صورة السمو الخلقي والروحي لحاملها لديهم.

أما مقامه في هضبة على سفح جبل خارج باب النوادر ومطل من أعلى على مدينة تطوان، يجعله من الأولياء الجديرين بالخدمة طوعاً، بما يمثله الجبل من رسوخ ووقار، وبما يحققه من عزلة الشيخ وخلوته الروحية ويزيد في هيبته.

كما اشتهر سيدي طلحة مثل بقية الأولياء بكراماته، والتي كانت على ما يبدو، وبالإضافة إلى النسب والزهد، أساس الولاية، تمنحه ما هو في حاجة إليه من مصداقية وتمنحه شرعية تأطير القبائل وجمع كلمتها وإلهاب حماسها وحمل راية الجهاد المقدس.

إن الكرامات توظف كما هو معلوم ، لتأكيد المشروعية الصوفية والمشروعية الجهادية في نفس الآن، وتساهم في إضفاء هالة القدسية على الرباط وشيخه وتبرير سلوكه ورفع الشبهات عنه. فتصبح أداة أساسية في تأطير الأتباع والمحاربين من مختلف القبائل وترسيخ اعتقادهم وضمان تبعيتهم للزاوية المرابطة للجهاد.

ويحدثنا أبو الربيع سليمان الحوات عن كرامات ومناقب الشيخ سيدي طلحة الدريج قائلا: «كان رضي الله عنه يتكلم بالغيوب والحقائق ويتأيد في الكرمات بالخوارق إلى أن توفي رحمه الله ودفن بمتعبده من المدشر المذكور حيث روضته الآن». ويضيف: «ويؤثر عنه من الكرامات حياً وميتاً ما لا ينحصر بحسبان. وقبره دائماً ترياق مجرب في إجابة الدعاء وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وشفاء الأمراض...»[4].

كذلك، عرف سيدي طلحة، مثل معظم الأولياء الذين لعبوا دوراً عظيماً في الدفاع عن وحدة المغرب واستقلاله أحياءً وأمواتاً، إقبالاً كبيراً من لدن عامة الناس وخاصتهم، يهرعون إليهم كلما ضاقت بهم السبل للتبرك أو الاحتماء بهم أو الانتفاع بكراماتهم. يقول الحوات: « ولا برح أهل تطوان يقصدونه كلما دهمتهم فتن، فتخمد نارها، وثار عليهم العدو، فتكون لهم الغلبة عليه فضلا من الله ونعمة...».

وخلاصة القول، فإن الحديث عن الأولياء بهذا الأسلوب، وإن كان لا يشفي غليل المؤرخين والباحثين، فإنه يمثل مثلما زيارة أضرحتهم بالأساس، إحياء ذكرى صفوة من المغاربة الذين أعلوا راية المغرب بعلمهم وعملهم ودافعوا عن استقلاله ووحدة ترابه بجهادهم واستشهادهم. إنها إحياء للتاريخ واسترجاع للذاكرة؛ ذاكرتنا كأمة إسلامزيغوعربية لم ترضخ للصليبية ولن ترضخ أبداً للاحتلال البغيض.

و تقدم الدراسات الواردة هنا وخاصة دراسة المؤرخ حسن الفكيكي صاحب كتاب "سبتة المغربية" (سلسلة المعرفة للجميع ، العدد 14 ، أبريل 2000)، أمثلة حية على عمق التضامن الوطني الذي كان يلتئم لنجدة المدن والثغور المغربية كلما تعرضت للعدوان الصليبي وعلى درجة انتشار الوعي الوطني في مدن وبوادي المنطقة وفي الريف والأطلس والتخوم الجنوبية الممتدة من سوس إلى

[4] – أبو الربيع سليمان الحوات: "المسك الأريج في أخبار أولاد الدريج"، كتاب مخطوط(سنة1227هـ)، توجد نسخة منه في الخزانة الملكية بالرباط.

تافيلالت لإحباط المشروع البرتغالي التوسعي. كما نستعرض أمثلة حية عن التضامن الذي كان ينشأ بين مدن الشمال (تطوان، طنجة، العرائش، شفشاون، القصر الكبير...) باعتبار مصيرها المشترك في مواجهة العدوان والتي كانت تتجند بتآزر تام للحفاظ على وجودها الحضاري واستمرارها العمراني. وتقدم نموذجاً رائعاً لاستماتة مدينة طنجة للحفاظ على كيانها، بل سعيها في الفترة التي تؤرخ لها لتحرير سبتة. لقد تفوق المؤرخ حسن الفكيكي في بيان الدور الجهادي الذي لعبته طنجة وبواديها في تجنيد المتطوعين لمقاومة الاحتلال البرتغالي وتأهيب مشاعر المغاربة من جميع الأقاليم للمشاركة في الجهاد، ثم دورها الحاسم في الهزيمة التي ألحقها المغرب بالجيوش البرتغالية في المعركة التي جرت سنة 1437هـ على مشارف المدينة حيث أسر الأمير فرناندو والتي يقدم لنا عنها المؤلف أجمل وصف، بما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك، عمق **الوعي الوطني** الذي استثير بقوة، والشعور بالتضامن والذي امتدت جذوره نحو الشمال الشرقي على امتداد جبال الريف الشامخة ونحو الجنوب الغربي في جزولة وسوس وإلى الجنوب الشرقي في تافيلالت مروراً بجبال الأطلس العتيدة. فضلاً عما كانت تتوصل به ميادين القتال من مشاركة أقاليم فاس وغيرها. وبفضل هذا الشعور الوطني الذي كانت تحمله وفود المتطوعين الواردة على شمال المملكة، توالت الحملات لاسترجاع سبتة؛ حملات جهادية لم يكن أصحابها يرجون سوى الحصول على حظوة المشاركة في ساحة الجهاد وشرف الاستشهاد لصيانة حرمة البلاد.

وشكلت في هذا الإطار، مدينة تطوان بدورها قاعدة جهادية رئيسية تأوي المجاهدين ضد احتلال الثغور المغربية بالشمال تارة، وتارات أخرى بتنظيم حملات استرجاع الثغور وخاصة مدينة سبتة. لذلك، غدت باستمرار هدفاً للجيوش الغازية، التي كانت تهاجمها وتهدمها. وهذا ما يفسر أن تطوان لم تهدم مرة واحدة، بل مرات. كما أنها لم تبنى مرة واحدة، **بل كان المجاهدون يقومون ببنائها أو بناء معالم فيها وإعادة إعمار ما ضربه المعتدون البرتغال والقشتاليون**. فقد استوطنها السبتيون المهاجرون إليها في فترات متلاحقة، فاعتمرت بهم وامتزجوا بسكانها. ويورد المؤرخ الفقيه الجليل محمد داود شهادات

كثيرة عن العمران الذي أنجزه السبتيون على مر الأحقاب والسنين ومنها على سبيل المثال، ما أنجزه الشيخ السبتي عبد القادر التبين (566هـ). فنقلاً عن بعض الأوراق التي عثر عليها عند بعض حفدته **يذكر محمد داود بأن الشيخ التبين نزل رفقة الشيخ أبي عبد الله الفخار بتطوان قادماً إليها من سبتة واجتمع سكان القرى القريبة من موضع نزوله، واستحضر من مدينة سبتة بنائين وخشباً وبنى داراً جلب إليها أهله واستوطن ذلك المكان، وكان الناس قد بنوا حوله فبنى لهم مسجداً وسوقاً وأرحى لطحن الحبوب**... (محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الأول، 1959، ص 78).

كما يورد المؤرخ التطواني العلامة أحمد الرهوني أمثلة كثيرة عن استقرار السبتيين بمدينة تطوان واعتمارها بهم، سواء للقيام بمهام علمية ودينية أو للقيام بواجب الجهاد المقدس. ومن هؤلاء، الشيخ سيدي طلحة، حيث يذكره عند استعراضه للطور 16 من أطوار بناء تطوان[5] وخاصة عند حديثه عن قرية استقر بها السوسيون من المتطوعين الذين قدموا إلى تطوان من جنوب البلاد للمشاركة في حملات الجهاد، يقول الرهوني:

«**ومن مباني السوسيين، على ما يقال، قرية قديمة بنواحي سيدي طلحة. ولا زالت باقية أنقاضها إلى الآن. أقول: هذه القرية بناها سيدي طلحة الدريج، لما هاجر من سبتة، وعمرها بالعلم والجهاد**»[6].

وفي هذا السياق كذلك،يذكر المؤرخ الدكتور حسن الفكيكي في كتابه "سبتة المغربية"(سلسلة المعرفة للجميع ، العدد 14 ، أبريل 2000، صفحة 99)،يقول:

---

[5] – نذكر بأن سيدي طلحة كان موجوداً بتطوان قبل حوالي 70سنة من تجديد بنائها على يد المجاهد والقائد الصالح أبو الحسن على المنظري الغرناطي ابتداءا من سنة 889 والذي تولى الحكم فيها وبقي قائما بأعمال الجهاد بإقليمها إلى أن توفي رحمه الله بها ودفن خارج باب المقابر.

[6] – أحمد الرهوني:"عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، تحقيق د. جعفر ابن الحاج السلمي(الجزء الأول)، منشورات كلية الآداب وجمعية تطاون أسمير، 1998، صفحة 172.

"وهكذا نرى كيف شكلت مدينة سبتة عنصراً أساسياً في نسيج متشابك خيط عبر العصور تارة بالعلم وتارة بالعمران وتارات أخرى بالجهاد، بأيدي مغاربة من شمال المغرب وجنوبه، شرقه وغربه. مثلما شكلت مدن تطوان وطنجة وشفشاون ومليلية والعرائش والقصر الكبير وغيرها، محطات أساسية في هذا النسيج الحضاري والعمراني العريق."

ويضيف المؤرخ حسن الفكيكي"... **وهناك أيضا مدينة تطوان التي تأكدنا من استعادة حياتها الكاملة قبل سنة 1436/840 م . مما دل على أنها آوت العديد من السبتيين ، وأغلب الظن أن المجاهد سيدي طلحة الدريج كان من بين هؤلاء الذين استقروا بمدينة تطوان بما يكفي لتعمير المدينة و اعادة بناء أسوارها و مرافقها المدنية و الحربية.**" ("سبتة المغربية، صفحة 99)،

ويقدم لنا المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم وصفاً دقيقاً لما تعرضت له تطوان من تخريب على يد الصليبيين ويحدد مستنداً على العديد من الشهادات، أن هدمها كان على يد البرتغال ويرده عكس بعض المؤرخين، إلى سنة 1437/841 وليس سنة 1400/802، وليس على يد القشتاليين. ويذكر أن جميع المصادر البرتغالية المعاصرة للأحداث تقول بأن سكان مدينة تطاون تولوا أمر محاصرة البرتغاليين بمدينة سبتة منذ احتلالها، "وهذا يفند ما قاله بعض المؤرخين الذين يزعمون أن تطاون لم يكن لها وجود عند احتلال سبتة سنة 818-1415، حيث إن تطاون كانت حسب روايتهم قد خربت من طرف أسطول قشتالة سنة 1400/802".

"والحقيقة هي أن تطاون منذ أن أعيد بناؤها على يد السلطان أبي ثابت عامر المريني سنة 1308/708، ظلت قائمة الذات إلى غاية سنة 1437/841، بدليل ما تشهد به المصادر البرتغالية المعاصرة للأحداث والتي تذكر الهجومات التي كانت تتعرض لها مدينة سبتة من طرف سكان تطاون وناحيتها منذ سنة 1415/818، حيث تقول مثلا: إن الشريف سيدي طلحة الدريج هو الذي هزم كتيبة برتغالية بضواحي سبتة يوم 6 ربيع الأول سنة 830 (مواقف 5 يناير 1427). وقد انهزم في المعركة التي جرت بنفس المكان يوم 27 ذي القعدة 831 (موافق 7 دسمبر 1428)". وذلك ما تؤكده المصادر الإسبانية مثل سوريدا

SUREDA وكريبادو أورطيكا Criado y Ortega وماركيس دي برادو Marqnez de Prado.[7]

كما ترجع أهمية هذه الندوة التي نظمت بالتعاون بين جمعية تطاون اسمير وجمعية سيدي طلحة، وأهمية هذا الكتاب الجماعي الذي يغطي وينشر أعمالها، في كونهما يندرجان ضمن الدور المتعاظم الذي يقوم به إعلامنا الوطني والذي لم يكن دائما في مستوى الدور التضليلي الذي قام به وما يزال، الإعلام الإسباني. مما جعل الكثيرين من المغاربة والإسبان على حد سواء يجهلون حقيقة الجيوب المغربية المحتلة. ومن أمثلة هذا الجهل الاعتقاد الخاطئ بأن الوجود الإسباني بمدينة سبتة يعود إلى عصور غابرة وأنها استولت على المدينة بالقوة. ونرى من الواجب أن نجيب إسبانيا بأنها كاذبة في ادعائها هذا والقائل بأنها استولت على سبتة بواسطة القوة المعترف بها في تلك العصور كوسيلة "شرعية، للاستيلاء على أراضي الغير، وذلك لأن اغتصابها لها لم يتم بالقوة وإنما كان نتيجة خيانة للعهد الذي قطعه على نفسه أحد ملوكها واغتصبها سنة 1640م، وكان ذلك بعد ضعف الدولة البرتغالية بل وانهيارها على إثر هزيمتها في معركة وادي المخازن الخالدة يوم 30 جمادى الأولى سنة 968 هـ (4 غشت 1578م)، حيث سيلقي الملك البرتغالي سبستيان حتفه على يد جيوش السلطان الشهيد مولاي عبد الملك السعدي والذي لقب "بالغازي في سبيل الله". إن الاحتلال العسكري لأرض الغير لم يكن في يوم من الأيام "حجة، تخول حق الاحتفاظ بما تم احتلاله، وإذا فرضنا أن الاحتلال بالقوة أصبح اليوم عند الإنسان "حجة"، فلماذا لم تعترف إسبانيا بمشروعية تلك "الحجة" عندما يتعلق الأمر بجبل طارق المحتل بدوره بالقوة من طرف بريطانيا العظمى؟

ويرى المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم في كتابه "سبتة متى وكيف اغتصبتها إسبانيا "[8] في

---

[7] – انظر محمد ابن عزوز حكيم، مجلة "تطاون"، العدد1، غشت 1990، ص 62.

[8] – محمد ابن عزوز حكيم :"سبتة، متى وكيف اغتصبتها إسبانيا"، مطابع الشويخ، تطوان 1985، ص 8.

معرض جوابه على هذا الادعاء الإسباني بأن احتلالهم لمدينة سبتة تم في وقت لم يكن فيه المغرب قد تكون بعد كدولة ذات سيادة، بأنه قول فيه افتراء على التاريخ الذي يشهد على أن المغرب دولة ذات سيادة وسلطان منذ أن أسس المولى إدريس الأول المملكة المغربية الإسلامية سنة 788م، أي قبل أن تصبح إسبانيا دولة معترفاً بها بين الدول بأكثر من سبعمائة سنة، بدليل أنها لم تصبح دولة قائمة الذات إلا سنة 1492 م. وأما في الفترة المتراوحة بين هاتين السنتين، فقد كانت إسبانيا تابعة لدولة المرابطين والموحدين والمرينيين التي كانت عاصمتها مراكش.

«وأرى من الواجب أن نجيب إسبانيا على ما تدعيه بأن سبتة تكون جزءاً لا يتجزأ من التراب الإسباني، شأنها في ذلك شأن باقي المدن الإسبانية الواقعة على الضفة الشمالية من بوغاز جبل طارق مثل مالقة والجزيرة الخضراء، بأن ادعاءها هذا يتنافى والواقع الجغرافي، بدليل أن نظرة خاطفة على خريطة المغرب تكفي للتأكد من أن سبتة تكون جزءاً من التراب المغربي شأنها في ذلك شأن جبل طارق الذي هو جزء من التراب الإسباني، حيث إن الامتداد الجغرافي الذي يوجد بين أرض إسبانيا وجبل طارق هو نفس الامتداد الجغرافي بين أرض المغرب وسبتة ومليلية»[9].

[9] – محمد ابن عزوز حكيم، "سبتة"، تطوان 1985ص 8.

وحيث إن المبدأ، مبدأ الامتداد الجغرافي هو الذي تنادي به إسبانيا عند مطالبتها باسترجاع جبل طارق وتطالب بريطانيا العظمى باحترامه بخصوص جبل طارق، فكيف يعقل ألا تحترمه إسبانيا عندما يتعلق الأمر بسبتة ومليلية؟

لذلك، نرى من الضروري مقاومة وبكل حزم وصرامة، المنطق الاستعماري الذي تمارسه إسبانيا عند تناولها لقضية جبل طارق المستعمرة البريطانية حاليا، وتطالب باسترجاعها، ولكنها عندما يطالبها المغرب بنفس الحقوق بخصوص الثغور المغربية التي تحتلها، تمتنع عن الاعتراف بتلك الحقوق.

أمام هذا المنطق الاستعماري الغريب، يمكن لسائل أن يتساءل: ماذا يجب أن يفعله المغرب؟، والجواب واضح وهو أن يحمد الله على ما ابتليت به إسبانيا في جبل طارق فأصابتها نفس المصيبة التي ابتلي بها المغرب في جيوبه وقد سبق أن ألح مراراً وتكراراً الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، على ضرورة الربط بين مطالب إسبانيا لاسترجاع جبل طارق ومطالب المغرب العادلة لاسترجاع سبتة ومليلية المحتلتين. ولا بأس أن نتوقف هنا قليلاً للتذكير ببعض المواقف الصريحة التي أعلنها المغفور له الملك الحسن الثاني، حيث قال في تصريح له بالولايات المتحدة الأمريكية يوم 15 نوفمبر 1978:"من الواجب أن أقول بصفتي ملكاً

للمغرب وضامن وحدته الترابية أن سبتة ومليلية جزء من بلادي، ومن الواجب أن أتفاوض مع إسبانيا في إطار السلم والتفاهم وحسن الجوار والصداقة".

كما نذكر بالخطوة السلمية الجريئة والحكيمة التي تبناها جلالته عندما طالب الحكومة الإسبانية بضرورة إحداث خلية للتفكير لإيجاد حل للنزاع يحفظ الحقوق الثابتة للمغرب على ثغوره المحتلة مع مراعاة المصالح الحيوية لإسبانيا في المنطقة. وكان قد وجه في 21 يناير سنة 1987 إلى الملك خوان كارلوس – بواسطة وزير الداخلية الإسباني السيد باريونويبو الذي كان يزور المغرب آنذاك – دعوة لتكوين خلية إسبانية مغربية للتفكير في قضية سبتة ومليلية لإرجاعهما للمغرب وضمان المصالح الإسبانية الحيوية بالمغرب. وقد عبرت وقتها الصحافة المغربية بجميع اتجاهاتها عن تأييد هذا النداء الملكي ووجوب الالتحام من أجل ضمان نجاح هذه المبادرة الملكية السامية والرسمية التي عبر المغرب من خلالها وبشكل متحضر، عن إرادته في إتمام تحرير الثغور الشاطئية المحتلة في الشمال.

ذلك أن الرأي العام العالمي لا يمكن أن يقبل أبداً أن يتم لإسبانيا ما تريده بخصوص جبل طارق دون أن يتم للمغرب ما يصبو إليه بخصوص سبتة ومليلية. وبعبارة أخرى، إذا اعترف الرأي العام العالمي بإسبانية جبل طارق، أوجب عليه أن يعترف لا محالة بمغربية الجيوب المغتصبة, وإذا قال بأن أقدمية الاحتلال البريطاني بجبل طارق لا تفقد هذا الجبل صفته الإسبانية، فإنه سيقول لا محالة إن سبتة ومليلية لم تفقدا صفتهما المغربية بمرور الزمن, وإذا حكم بعدم مشروعية الاحتلال العسكري بجبل طارق، فإنه سيحكم حتماً بعدم مشروعية الاغتصاب الإسباني للجيوب المغربية. وإذا قال إن إسبانيا كانت دولة ذات سيادة عند فقدها لجبل طارق سنة 1704، فمن الأحرى أن يقول بأن المغرب كان دولة ذات سيادة قبل اغتصاب إسبانيا لمدينة سبتة سنة 1640، وأنه كان دولة قائمة الذات عندما قامت البرتغال باحتلال تلك المدينة سنة 1415م. وعندما احتلت إسبانيا مدينة مليلية سنة 1497م[10].

[10] – محمد ابن عزوز حكيم، "سبتة"، تطوان 1985، ص. 10.

إننا نتمنى أن تسترجع إسبانيا سيادتها على جبل طارق من بريطانيا، كما استرجعت الصين الشعبية في يونيو من سنة 1997 وبشكل حضاري سيادتها على مدينة هونج كونج بعد أزيد من 150 سنة من الاحتلال البريطاني. ونتمنى صادقين وبكل إيمان وعزم أن يسترجع المغرب وفي أقرب الآجال كامل سيادته على ثغوره المحتلة بنفس الأسلوب الحضاري المبني على الحوار وحسن الجوار.

كما نرجو أن تصدق نبوءة الشيخ عبد القادر التبين المتوفى سنة 586هـ. أي حوالي 232 سنة قبل احتلال مدينة سبتة من طرف البرتغال، صاحب الضريح المشهور الواقع خارج مدينة تطوان العتيقة، بين باب العقلة وباب الرموز. لقد أخبر هذا الولي الصالح أن مدينة سبتة سيحتلها الكفار ويبقون فيها مدة ثم يسترجعها من يدهم رجل قرشي من أهل البيت اسمه محمد..."[11].

[11] – عن محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الأول، 1959، ص 75.

الجزء الأول

أشغال الندوة العلمية

"التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي
لأعلام تطوان:
سيدي طلحة الدريج نموذجا"

المنظمة بالتعاون

بين جمعية تطاون أسمير وجمعية سيدي طلحة

يوم السبت 15 أكتوبر 2016، بتطوان

الورقة التمهيدية للندوة

يشـهَدُ التَّـاريخ – تـاريخ مـا قبـل الإسـلام ومـا بعـده – بِمغربيَّـة مدينـة سـبتة، واستمرَّت مغربية على مرّ العصور، حتَّى هاجمَتْها الحملة الصليبية بزعامة البرتغال ، واحتلَّت في 14 جمادى الثانية من عام 818 هـ الموافق ل 21 غشت 1415م، أيام أبي سعيد المريني، قبل ان تنتزعها منهم اسبانيا بالحيلة والتي ما زالت تتجاهل مطالب المغرب فيها وفي مدينة مليلية والجزر.

فكانـت سـبتة بـذلك أول أرض تسـتعمر في المغـرب العـربي، وأول بلـد إفريقـي يستولي عليه المحتل الأوربي في العصور الحديثة. ومما لا ينبغي أن يخفى على كل مهـتمٍّ وغيـور ، أن المغاربـة لم يرضـخوا عـبر تـاريخهم المجيـد لوجـود أجنـبي فـوق أرضـهم، كمـا تشـهد الكتابـات التاريخيـة عـن دور المجاهـدين المغاربـة في عهـد الموحِّدين، في تلبية نداء صلاح الدين الأيوبي في استرجاع بيت المقدس من أيدي الصليبيين. كما خاضوا معارك بطولية في عهد يوسف بن تاشفين، وعبد المومن الكومي والسلاطين العلويين أمثال المولى اسماعيل الذي حاصر مدينة سبتة مدة تتجاوز ثلاثين سنة ومحمد بن عبد الله الذي حاصر مدينة مليلية... كما على عهـد المجاهـدين الاوائـل بمدينـة تطـوان والنـواحي والـذين سـارعوا للمقاومـة منـذ السنوات الأولى للاحتلال، أمثال صالح بن صالح العزفي وعبد الله المحكسي وأحمد بن مرزوق وعبد الرحمن الجزولي و طلحة الدريج السبتي وأبو الحسن علي المنظري مجدد بنـاء تطـوان وعلـي بـن راشـد والسيدة الحـرة... وقبلهم عبـد القـادر التبـين السبتي وعبـد الله الفخـار السبتي التطـوانيين واللذان عـززا أواصـر الاخـوة والتـآزر والعمران بين تطوان وسبتة قبل الاحتلال و حديثا عبد الكريم الخطابي ...وغيرهم كثير ؛ سـارعوا لتحريـر الثغـور الشـاطئية والـدود عـن اسـتقلال المغـرب ووحدتـه والحفـاظ علـى هويتـه وتشـييد بنيانـه و حضـارته، ونشـر الـدين والعلـم و الرخـاء والسلام بين سكانه وجيرانه.

وفي هذا الإطار ارتأت كل من جمعية تطاون أسمير وجمعية سيدي طلحة الدريج

بتطوان ، تنظيم هذه الندوة العلمية ، بمشاركة نخبة من الاساتذة والعلماء المختصين وبتعاون مع جهات تربوية وثقافية وأكاديمية مهتمة، لافتتاح نشاطهما الثقافي لهذه السنة، حتى تكون محطة لاستهداف المحاور التالية :

1- استرجاع ذاكرة الماضي المجيد للمقاومة الباسلة والدور الرائد للمجاهدين الابرار وأعلام تطوان و المنطقة وخاصة منهم سيدي طلحة الدريج السبتي التطواني وإبراز دوره في قيادة حملات تحرير سبتة .

2- إبراز دور تطوان وأعلامها ليس في الجهاد لتحرير الثغور المغربية فحسب، بل وفي تعمير المنطقة وازدهارها وفي تأصيل الوعي الوطني.

3- التنويه عموما بالروح الوطنية لدى المغاربة الأحرار في الدفاع عن دينهم وهويتهم ووحدة أرضهم واستقلالها وازدهار أمتهم وتعايشها السلمي.

4- تقديم المعلومات التاريخية والحقائق العلمية وتقديم العبرة والقدوة الحسنة لجيل اليوم، من أجل بناء مستقبل يحافظ على الهوية المغربية ويتمسك بالثوابت الوطنية.

فلا احد يشك في أهمية الوقوف على أعلام المغرب وفي أهمية إحياء الذاكرة التاريخية في تعزيز قيم المواطنة لأجيال مغرب الغد، وترسيخ مفهوم الحفاظ على ذكرى الرموز التاريخية في الذاكرة الجماعية لأجيالنا المستقبلية .

وأخيرا وتأكيدا لهذه الأهداف وتعزيزا للمساعي النبيلة وراء تنظيم هذه الندوة العلمية، نستشهد بما ورد في خطاب جلالة الملك محمد السادس ، و الذي وجهه إلى الشعب المغربي بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب "...نحيي هذه الذكرى الوطنية المجيدة وسنواصل إن شاء الله إحياءها باعتبارها ذكرى للأمة كلها ، تحتم علينا على الدوام استحضار أرواح جميع المقاومين للتزود من جهادهم المتفاني والتذكير بما بذلوا من تضحيات كبيرة في شتى الأقاليم ومختلف المواقع مع إشادة خاصة بالعلماء ورجال الفكر والسياسة وطبقة العمال والفلاحين والتنويه بدورهم العظيم في تحرير البلاد ومزيد من العناية بأسرهم والترحم على شهدائهم الأبرار ودعوة العلي القدير أن يجعلهم إلى جانب والدنا وجدنا المكرمين "مع اللذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا"

برنامج الندوة

س .17- ترأس أشغال الندوة د. **جعفر ابن الحاج السلمى** (كلية الآداب والعلوم الانسانية – تطوان)

- كلمات الافتتاح
- كلمة د. **مصطفى الكثيري** :المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.
- كلمة ذ.**مصطفى الغازي** : عن جمعية تطاون أسمير.
- كلمة د.**حسن المجدوبي** : عن جمعية سيدي طلحة .

س 18 – جلسة العروض

- **د. محمد ياسين الهبطي** (أستاذ باحث في تاريخ شمال المغرب)

"احتلال مدينة سبتة : الأسباب والعواقب "

- **د. رشيد العفاقي** (استاذ باحث بالرابطة المحمدية للعلماء)

" جهاد سيدي طلحة الدريج لاسترجاع مدينة سبتة "

- **د.حميد الحداد** (أستاذ باحث في تاريخ تطوان)

"السياق الاقليمي والمحلي لظهور سيدي طلحة الدريج"

- **د.عبد السلام الجعماطى** (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين ، ورئيس وحدة البحث حول تاريخ سبتة)

"المقاومة الحوزية للوجود الاستعماري الإيبيري بسبتة السليبة"

- **د.محمد أملاح** (أستاذ باحث – وزارة التربية الوطنية)

" من دفائن التدوين للتاريخ الوطني السبتي"

- **د.رشيد المصطفى** (المجلس العلمي بتطوان)

" من اعلام المقاومة في الشمال للغزو الاجنبي للثغور المغربية، انطلاقا من نص مخطوط "

س 20 المناقشة – كلمة الاختتام : **د. محمد الدريج**

الولي الصالح سيدي طلحة الدريج الذي كان يقود الجهاد لتحرير مدينة سبتة، سنوات 1426 و1427 و1428 و1429 م. والصورة منشورة في كتاب: "لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية" من تأليف : المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم، تطوان 1979، وهي مستنسخة عن وثائق برتغالية قديمة توجد في حوزته.

رسم تقريبي يستند على ما يبدو ،على رواية شفاهية، لسيدي طلحة الدريج ،والذي خرج أولا إلى مدينة تطوان من مدينة سبتة ، بعد سقوطها في يد البرتغال وبعد المذبحة الصليبية الرهيبة ضد سكانها المسلمين ونهب كنوزها ،على يد البرتغال عام1415م (818 هجرية) قبل ان تنتزعها منهم بالحيلة اسبانيا التي مازالت ترفض تسليمها إلى موطنها الاصلي المغرب ، رغم انها ارض إفريقية عربية ، تقع في شمال المغرب ويفصل البحر بينها وبين اسبانيا وتاريخيا كانت سبتة دائما ارض مغربية ،حتى قبل ان تكون اسبانيا دولة مستقلة.وكان المرحوم محمد ابن عزوز حكيم قد وعد أسرة الدريج بأن يوافيهم بنسخة من أصل هذا الرسم ومصدره البرتغالي ولكن المنية حالت دون ذلك،رحمه الله برحمته الواسعة. وللإشارة فإن الدكتور رشيد العفاقي يشكك في هذه الرواية الخاصة بهذه الصورة ويذكر أن الرسم الشبيه مستنسخ عن وثيقة إسبانية وليس برتغالية ، وضعت في فترة لاحقة .

صورة جوية لمدينة سبتة المغربية ، وتظهر المدينة جغرافيا كجزء لا يتجزأ من التراب المغربي كما كان كذلك ودائما تاريخها الاسلامازيغوعربي ،قبل اغتصابها من طرف البرتغال، وتفصلها عن شواطئ اسبانيا التي تحتلها حاليا، أزيد من 20 كلومتر من مياه البحر الذي يشكل معبر جبل طارق والذي يفصل أوروبا عن إفريقيا.

.

! Erreur

Espagne
Cadiz
Algésiras
Gibraltar
Îlot de Perejil
Ceuta
Tanger
Île d'Alboran
Tétouan
Peñon de Vélez de la Gomera
Peñon d'Alhucemas
Melilla
Îles Chafarinas
Algérie
Maroc

كلمة الدكتور مصطفى الكثيري
المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير

لافتتاح أشغال الندوة العلمية:
"التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا"
يوم السبت 15 أكتوبر 2016 بتطوان
بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

- السادة رئيس وأعضاء جمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث؛
- السادة رئيس وأعضاء جمعية تطاون أسمير ؛
- السيدات والسادة الأساتذة الأجلاء ؛
- السيد رئيس المجلس العلمي المحلي لتطوان؛
- السيدات والسادة حفدة الولي الصالح سيدي طلحة الدريج؛
- السيدات والسادة نساء ورجال الحركة الوطنية و المقاومة و جيش التحرير؛

سلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته؛

إنه لمن دواعي السرور والسعادة والحبور، أن أشارككم فعاليات هذه الندوة الفكرية الوطنية ، التي تلتئم بالحمامة البيضاء —حاضرة تطوان– احتفاء بعيد الشباب وذكرى ثورة الملك والشعب المجيدة، والتي تنظمها جمعية سيدي طلحة للمحافظة على البيئة والتراث بتعاون مع جمعية تطاون أسمير ،حول موضوع: **"التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا"**.

ولا غرو أن تنظيم هذا الملتقى العلمي يأتي في سياق المبادرات الموصولة لصيانة الذاكرة التاريخية الوطنية والتعريف بملاحم العرش والشعب ،من أجل الحرية

والاستقلال،وإبراز الدور الريادي للأعلام المجاهدين الذين ضحوا بالنفس والنفيس في معارك حامية الوطيس، لتحرير المعاقل المغربية التي كانت تحت النفوذ الاستعماري آنذاك، والجدير بالذكر أن أشغال هذه الندوة ستتوجها مشاركة لشخصيات متعددة المشارب تحظى بصيت وطني أكيد، وأن مداخلاتهم وعروضهم ستسهم لا محالة في إماطة اللثام عن الماضي المجيد للمقاومة الباسلة والدور الرائد للمجاهدين الأبرار في تنظيم حملات تحريرية لاسترجاع الثغور المغربية السليبة، ونحن وبكل رغبة جامحة وبكل ما أوتينا من شغف للتاريخ وصانعيه ندعو أن تختتم فعاليات هذه الندوة بتلاقح الأفكار وتكامل الرؤى والأهداف.

وبهذه المناسبة، يسعدني أن أزجي التحية والثناء والتقدير وجزيل الشكر وعظيم الامتنان ،إلى رئيس جمعية سيدي طلحة الدريج في شخص محمد الدريج، للدعوة الكريمة لي، لحضور هذه المناسبة الفكرية في هذه الأجواء المفعمة بمشاعر الإجلال والإكبار، وفي هذا الملتقى العلمي البهي برحاب هذه الربوع المجاهدة ، إحياء وبروراً وعرفانا بهرم من أهرام المغرب الأماجد وعلم من أعلام الوطنية والجهاد أبلى البلاء الحسن في مواجهة الاحتلال الصليبي الغاشم وتصدى بصدق وإخلاص من اجل تحرير مدينة سبتة من الاحتلال البرتغالي والوجود الأجنبي، والشكر موصول إلى كافة المنظمين والسادة الأساتذة والسلطات الإقليمية والمحلية وإلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في تنظيم هذه الندوة الفكرية التي تدركون أهميتها ووازنيتها، والشكر أيضا موجه إلى كافة الحاضرين في هذا اللقاء العلمي.

فكما تعلمون، إن مشاركتنا في هذه الندوة العلمية تدخل في إطار حرص المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، على توثيق وتدوين وصيانة الذاكرة التاريخية الوطنية والمحلية وإشاعة رسالة الوطنية والمواطنة في أوساط الأجيال الصاعدة، والمساهمة أيضا في السير قدما على تثبيت المكاسب الوطنية والحفاظ على لحمة الوحدة الترابية، وذلك طبعا بتعاون مع مختلف الشركاء من مجالس منتخبة وسلطات اقليمية ومؤسسات جامعية وفعاليات ونشطاء المجتمع المدني ،عملا بالتوجيهات الملكية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده. ومن ذلك ما جاء في خطابه بمناسبة تخليد الذكرى الخمسين لثورة الملك والشعب في 20 غشت 2003: "... **إن على المغاربة جميعا، أن**

يظلوا أوفياء لروح 20 غشت في التشبث بقيم الوطنية وتربية أبنائهم على حب الوطن الذي جعله ديننا الحنيف من مقومات الإيمان، ولن نبلغ ذلك إلا بترجمة الوطنية إلى مواطنة، ونقل الوعي من مجرد حب للوطن إلى التزام فعلي بالمساهمة في بناء مغرب يعتز المغاربة بالانتماء إليه"، انتهى المقتطف من الخطاب الملكي السامي.

الحضور الكريم،

فكما هو معلوم، والذي لا ريب فيه، أن وطننا الحبيب سيبقى على مر العصور والأحقاب، الأرض التي تنجب صفوة رائدة طيبة من المجاهدين والصلحاء والأولياء والعلماء ومن أبرز مجاهدي هذه المنطقة يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الولي الصالح سيدي طلحة الدريج، وهذا الملتقى الفكري ما هو إلا تكريما له ولأحفاده البررة، باعتبار الوطن يبقى بار بأبنائه.

المجاهد والولي الصالح أبي يعلى سيدي طلحة الدريج السبتي، ينتمي إلى قبيلة بني الدراج، الموسومون بمنابعهم الفياضة للجهاد بما يحمله اللفظ من معنى ودلالة، استقر بهم الحال في بداية الأمر بغرناطة، ثم نزحوا بداية القرن 7هـ / 600م إلى مدينة سبتة، ومنهم العلامة أبو عبد الله الدراج الذي كان قاضيا وخطيبا على مدينة سبتة خلال القرن الثالث عشر ميلادي (1294م. الموافق ل 693هـ). وبعد سقوط سبتة تحت سيطرة البرتغال، على يد الملك جوان الأول بتاريخ 21 أغسطس 1415م. الموافق ل 818هـ عرفت المدينة مذبحة كاسحة نجى منها العلامة سيدي طلحة الدريج سليل آل الدراج ، ونزح إلى تطوان ، وكان معاصرا للمجاهدين عبد الله (الملقب بعبو) بن محمد المحكسي وعبد الرحمان الجزولي وأحمد بن سلام بن مرزوق.

سلك رحمه الله طريق أهل التقوى والزهد والورع، وشمر عن ساعد الجد والكد واجتهد في اقتفاء سنن سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وأداء الفرائض والسنن والأوراد، وثابر في تصفية النفس من كل ما يشين نقاءها ويعيق وصولها إلى الله، مصداقا لقول الله تعالى في سورة البقرة الأية 163 "**والذين ءامنوا أشد حبا لله**"، وقوله عز من قائل : "**لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**" سورة الأحزاب الآية 20 وقوله سبحانه

وتعالى: "**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**" ،سورة آل عمران الآية 31.

تميز بصوت جوهري رخو تعانقه رنة الإخلاص والحب والثقة، كانت نار الجهاد والمجاهدة موقدة في روحه؛ ومن مناقبه رحمه الله أن زهده وورعه لم يصرفه عن العمل للدنيا إذ كان يشتغل ويكتسب قوته بعمل يديه. كما كان رحمه الله في طليعة من رفعوا راية الجهاد ونشروا الوعي الوطني والهبوا الحماس الشعبي ووقفوا في وجه الغزاة المتربصين بالثغور المغربية إلى أن لقي ربه .

واكب سيدي طلحة الدريج على تجييش آلاف الجنود من تطوان وملوسة ومشارب أخرى من مشرق المغرب وغربه ومن شماله وجنوبه، للدفاع عن حصن الإسلام بمنطقة سبتة السليبة ما بين 1426م و 1429م. و قاد خلالها ثلاث حملات عسكرية جهادية، واجه فيها البرتغال بما أوتي من قوة إلى أن سقط أسيرا بين أيديهم إلى أن افتداه الفقيه الفكاك مع 50 من رفاقه، كما تزعم حملة جهادية ثالثة والتي كانت عام 1429م/ 832هـ ، تمكن خلالها من بسط نفوذه من جديد على أحواز سبتة السليبة.

وزبدة المقال، إن سيرة هذا الشيخ الجليل الوقور، طافحة بالمناقب والمآثر والمكارم والمحبة الصافية لبني قومه والولاء والإخلاص لوطنه .واسمه وآثاره معروفة شاهدة على مكانته ناطقة بشمائله وجلائل أعماله وجسيم تضحياته ،دفاعا عن المقدسات الدينية والثوابت الوطنية، وهى من دلائل الإعجاب بشخصيته الروحانية وأخلاقه الإنسانية. واعتبارا للأدوار الطلائعية في الجهاد للولي الصالح والشيخ النحرير بين صلحاء ومجاهدي المغرب، فقد بوأه وأهله التاريخ الوطنى منزلة وازنة ومتميزة ما تزال بحاجة للنبش في مكنوناتها التاريخية والتنقيب عن مضامينها النضالية من لدن الدارسين والباحثين والمؤرخين.

الحضور الكريم،

ونحن نحتفي بأمجاد هذا الهرم الشامخ الولي الصالح سيدي طلحة الدريج، نستحضر بإجلال وإكبار الانتصار العظيم لمسيرة الكفاح الوطني والحركة التحريرية بقيادة العرش العلوي المجيد والتي جسدت الالتحام المتين بين القمة والقاعدة من اجل سؤدد الوطن وعزته وكرامته.

وبقدر ما يطفح هذا التاريخ بالأمجاد والبطولات بقدر ما يحفل سجله بالدروس والعبر المفعمة بالمعاني والدلالات الوطنية العميقة، وهي قيم ومثل عليا ألهمت جلائل الأعمال والتضحيات الجسام لأبطال هذا الوطن ورموزه، لذلك يتعين علينا الحرص على صيانة الذاكرة التاريخية الوطنية وأمجاد الكفاح الوطني لتستلهم منها الأجيال الحاضرة والصاعدة أسباب بناء صروح البلاد وكسب رهانات التنمية الشاملة والمستدامة وتحقيق المشروع المجتمعي الديموقراطي الحداثي واعتمادها كمرجعية أساسية للحفاظ على مكتسباتها وأمجادها الوطنية.

وكما لا يخفى عليكم، فإن المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير لا تذخر جهدا من اجل التعريف بأمجادنا التاريخية وتسليط الأضواء على ملحمة الاستقلال وأطوارها الخالدة وتوثيق وتدوين فصولها ومحطاتها وإبراز دلالاتها وتكريم رموزها وإشاعة رسالة الوطنية والمواطنة الحقة في صفوف الأجيال الحاضرة والناشئة لتتمسك باقباس هذه الملحمة الخالدة والذوذ عن ثوابت الأمة ومقدساتها.

الحضور الكريم،

ومن هذا تنبع أهمية إقدام المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير ،على إحداث فضاءات للذاكرة التاريخية للمقاومة والتحرير والتي بلغ عددها 68 فضاء، منها فضاءي تطوان وطنجة بحدائق المندوبية والذي سيفتح ابوابه قريبا لإحياء الذاكرة التاريخية للمقاومة والتحرير عبر مختلف ربوع المملكة، مع تنظيم ندوات فكرية وأيام دراسية وتخليد ذكريات وطنية ،مع الانفتاح على الفضاءات التربوية والمؤسسات التعليمية، وإطلاق التسميات المتعلقة برموز ملحمة الكفاح الوطني من أجل الحرية والاستقلال، علاوة على نشر المؤلفات والإصدارات، مع استنساخ الوثائق التاريخية المرتبطة بتاريخ الحركة الوطنية للمقاومة وجيش التحرير المودعة بالأرشيفات الأجنبية والعمل على توظيفها.

وذلك بفضل النشاط الدولي للمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير ،الذي يتجلى في عقد اتفاقيات تعاون وشراكة في مجال الحفاظ على الذاكرة التاريخية والوطنية والمحلية، واتفاقيات أخرى من أجل النهوض بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمنتمين لأسرة المقاومة وجيش التحرير.

كما تجدر الاشارة كذلك للمشروع الوطني الكبير لموسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب، التي صدر منها الى الآن 16 مجلدا موزعة على ثلاثة أجزاء ،تضم مجموعة من السير الذاتية والنبذ لشخصيات من وطنيين ومقاومين؛ وهكذا صدر الجزء التاسع من الجزء الثاني لموسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب والخاص بالفرنسيين الأحرار وأصدقاء المغرب الذين ناصروا القضية المغربية بوقوفهم إلى جانب حق المغرب في تقرير المصير وتحقيق الحرية والاستقلال، علاوة على جزء ثالث يتكون من مجلدين اتخذت من موضوع "**عمليات ووقائع المقاومة والفداء وجيش التحرير**" صلبا لموضوعها، ونحن الآن لازلنا في صدد جمع المادة المعرفية بخصوص الجزئين الرابع والخامس لهذه الموسوعة، بالإضافة إلى إصدار أعمال أخرى نبتغي منها توثيق الذاكرة التاريخية المشتركة في بعدها الدولي، حيث تم إصدار مؤلف حول **الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الروسية**، ثم إصدار عمل أخر موسوم بالذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الانكلوسكسونية "**المغرب في الكتابات الأنكلوسكسونية: بين العلاقات التاريخية والغيرية والثقافية**"، ونحن نشتغل حاليا على إصدار خاص بالعلاقات وآخر يتناول توثيق الذاكرة المغربية الفيتنامية والامريكية المشتركة واللذان قريبا ما سيخرجان إلى الوجود للزيادة في رفع كفة الشق السوسيوثقافي الذي سرمدا ما تحاول المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير تفعيله بكل حزم وعزم بموازاة مع الجهات المسؤولة في هذا المجال.

ومن المبادرات المتخذة في هذا السياق الإعلان عن مباراة وطنية في كتابة قصص تاريخية حول الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير موجهة للناشئة.

وفي الختام، ندعو بالرحمة والمغفرة والثواب للولي الصالح سيدي طلحة الدريج ولكافة شهداء الحرية والاستقلال شرفاء الوطن وأبطاله الغر الميامين.

ومن هذا المنبر أجزل الشكر والثناء والتقدير مجددا للمنظمين لهذه الندوة الفكرية الهامة والواعدة ، لما قدموه من خدمات جلى لتامين ظروف وشروط انجاح هذه الندوة الفكرية، والشكر موصول للسادة الاساتذة والباحثين على مابذلوه من جهود موصولة، والله ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الدكتور حسن المجدوبي
باسم اللجنة المنظمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، اشكركم في البداية على تلبيتكم دعوتنا بالحضور ، واذ اذكر ان جمعية سيدي طلحة وان كانت جمعية حديثة وفتية، فقد قامت بالكثير من الانشطة العلمية والثقافية والاجتماعية ونظرا لضيق الوقت فساكتفي بالتذكير بنشاط واحد متميز ننظمه سنويا وعلى عادة اجدادنا منذ عقود ، وهو تنظيمنا لموسم سيدي طلحة الدريج بمدشر البرج بملوسة قرب خلوته هناك بجماعة ملوسة، إقليم الفحص أنجرة ، الموسم الذي يعرف نجاحا كبيرا ، حيث تحضره جموع غفيرة آلاف من سكان المنطقة و سكان الجماعات القريبة والبعيدة ، كما يحضر بعض أفراد من عائلة الدريج حفدة سيدي طلحة من مدن تطوان و فاس والرباط و طنجة و البيضاء... وتحيي الموسم فرق المعلمين و درقاوة ....، الذين يعزفون وينشدون ويهللون بخشوع في الحضرة (العمارة) ويقومون بحركات ورقصات شبيهة بتلك التي كان يقوم بها اجدادهم للاستعداد للحرب والجهاد، في جو جميل ومهيب قرب خلوة سيدي طلحة وبين أشجار الزيتون الباسقة ، جو تطبعه مشاعر التقدير والاعتزاز و المحبة والوفاء لهذا الولي المجاهد الذي ترأس الجهاد لاسترجاع مدينة سبتة من يد الصليبيين ، بدعم من قبيلة أنجرة وغيرها من القبائل سواء المجاورة أو النائية ومن سكان العديد من المدن المغربية وفي مقدمتهم مدينة تطوان، التي كانت تعاني من الهجومات المتكررة ومن الخراب نتيجة الهجمات الصليبية بسب انها كانت تشكل دئما قاعدة جهادية ضد المحتلين.

خرج سيدي طلحة الدريج أولا إلى مدينة تطوان من مدينة سبتة المغربية ، حيث اقام في هضبة مشرفة على تطوان من جهة باب النوادر وحيث يوجد ضريحه الان وفي الحي الذي اصبح يحمل اسمه، خرج من سبتة بعد سقوطها في يد البرتغال وبعد المذبحة الصليبية الرهيبة ضد سكانها المسلمين ونهب كنوزها، على يد البرتغال عام1415م (818هـ) قبل ان تنتزعها منهم بالحيلة اسبانيا التي مازالت

ترفض تسليمها إلى المغرب ، رغم انها ارض إفريقية عربية ، تقع في شمال المغرب ويفصل البحر بينها وبين اسبانيا وتاريخيا كانت سبتة دائما ارض مغربية (آمزيغية – عربية – إسلامية) ،حتى قبل ان تكون اسبانيا دولة مستقلة.
ومنذ احتلال مدينة سبتة واحتلال مدينة مليلية التي تقع في شمال المغرب كذلك ونهب واستغلال كنوزهما لحد الآن، لم يتوقف المغرب عن الجهاد والمطالبة لاسترجاعهما.
ويعد سيدي طلحة الدريج من أشهر المجاهدين والذي تزعم الجهاد لاسترجاع مدينة سبتة أواخر حكم المرينيين (سنوات 1427-1428-1429-1430ميلادية)، كما تذكره وتوثق له العديد من المراجع البرتغالية و الاسبانية والفرنسية و المغربية ، قديما وحديثا والتي اعتمدها المؤرخ المرحوم **محمد داود** في تأريخه المتميز والأصيل لمدينة تطوان عند حديثه عن سيدي طلحة وحفدته من اولاد الدريج ،وكذلك فعل المؤرخ المرحوم **محمد ابن عزوز حكيم** في دراساته وكتبه القيمة حول المدينتين المغربيتين المحتلتين، وأهمها كتابيه:"لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية " (طبع بتطوان سنة 1979) و "سبتة ، متى وكيف اغتصبتها اسبانيا "(طبع بتطوان سنة 1985) وغيرهما كثير. وللتذكير فقد كان المؤرخ حكيم من بين أوائل من فصل الحديث بشكل علمي دقيق ، عن سيدي طلحة و كان له الفضل الكبير بتعريفنا بجهاده ومعاركه ولا اريد ان اطيل عليكم وخاصة وان جلسة العروض ستتناول مختلف جوانب الموضوع بشئ من التعمق والتفصيل.
و لكن لا يفوتني ان أشكر كل من ساعدنا على عقد هذه الندوة العلمية الهامة وأخص بالذكر جمعية تطاون اسمير، التي دعمت هذه التظاهرة العلمية ماديا ومعنويا كعادتها في دعم الأنشطة الثقافية الجادة والتظاهرات العلمية الهادفة وكذا الجماعة الحضرية لمدينة تطوان التي وفرت لنا هذه القاعة الجميلة ذات العبق التاريخي الفياض، وشكري موصول الى المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير والمجلس العلمي المحلي بتطوان و الافاضل الاساتذة الذين هيأوا كلمات قيمة وعروض ومحاضرات علمية متميزة. و السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

احتلال مدينة سبتة: الدوافع والعواقب

الدكتورمحمد ياسين الهبطي

في البداية لابد أن أقدم الشكر الجزيل لجمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث وجمعية تطاون أسمير على الدعوة الكريمة التي وجهاها إلينا للمشاركة في هذه الندوة العلمية التي اختارت موضوعا لها: "***التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا***"، وهو موضوع يكتسي أهمية على مستويين:

- **الأول**: كونه يعرف بجزء من تاريخ رقعة من التراب الوطني لازالت مستعمرة إلى اليوم، أي سبتة.
- **الثاني**: لأنه يسلط الضوء على جانب من المجهودات التي بذلها المغاربة من أجل تحرير الثغر المحتل، خاصة تلك التي كان يقودها المجاهد سيدي طلحة الدريج بين سنتي 1426 و1429.

وأول مسألة نريد إثارة الانتباه إليها هي أن مداخلتنا لا تهدف إلى إثبات مغربية سبتة ولا مليلية ولا أية جزيرة مستعمرة لأن الهوية المغربية لكل هذه الثغور هي مسألة لا نقاش فيها وطنيا.

وإذا كان الواقع هو أن مدينة سبتة مستعمرة من طرف الإسبان منذ مدة طويلة، وأن الواقع الحالي هو نتيجة لواقع تاريخي ارتبط بظروف تاريخية معينة، فالمهم بالنسبة إلينا في الجزء الأول من هذه الندوة هو فهم هذه الظروف التاريخية ومعرفة دوافع احتلال سبتة من طرف البرتغال في البداية، ثم استمرار تشبث إسبانيا باحتلالها، بمعنى أن مداخلتنا هي محاولة رصد وفهم محركات الاحتلال ودوافعه أكثر منها جردا للمعلومات أو تتبعا كرونولوجيا للأحداث، هذا إضافة إلى معرفة السياق العام الذي قاوم في إطاره المجاهد سيدي طلحة الدريج الاحتلال البرتغالي لمدينة سبتة. من أجل هذا طرحنا السؤالين الآتيين:

1- لماذا احتلت سبتة بالضبط؟
2- لماذا في تلك الفترة التاريخية بالتحديد؟

فلماذا احتلت سبتة بالضبط؟

يعرف الجميع أن سبتة احتلت سنة 1415، لكن قد لا يعرف الكل أن البرتغاليين هم الذين احتلوها في هذه السنة قبل أن تصبح محتلة من طرف الإسبان سنة 1640.

في الحقيقة للإجابة عن سؤال لماذا احتلت سبتة بالضبط ،نحتاج إلى وقت طويل يتجاوز ما هو مخصص لمداخلتنا في هذه الندوة، وذلك نظرا لتشعب المعطيات العالمية (تاريخيا) ودقة المرحلة (التي نعتبرها فترة انتقالية بين مرحلة تاريخية وأخرى) وتعدد الأطراف المؤثرة في الحدث:

- عالم مسيحي – عالم إسلامي.
- طبقة فيودالية – طبقة تجار – رحالة مغامرون.
- أطراف ذات طموحات اقتصادية- أخرى ذات أهداف دينية.
- دول في بداية الإقلاع الاقتصادي والسياسي – أخرى في بداية التراجع.

إن أهمية سبتة مرتبطة بأهمية البحر الأبيض المتوسط، لذلك لا يمكن أن نفهم بعمق لماذا احتلت هذه المدينة دون فهم أهمية البحر الأبيض المتوسط حضاريا ودينيا واقتصاديا. فسبتة تشرف على هذا البحر، بل وتتحكم في مدخله الوحيد – آنذاك – بمعنى أن موقعها هو موقع استراتيجي بامتياز. والبحر الأبيض المتوسط كان هو قلب النشاط التجاري العالمي قبل بداية الإبحار في المحيط الأطلنتي الذي كان يسمى بحر الظلمات نظرا لعدم معرفة ما وراءه.

فحضاريا كان البحر الأبيض المتوسط معبرا للتأثيرات الحضارية الآتية من ضفتيه في الاتجاهين (القرطاجيون، الرومان، الأفارقة، المسلمون...).

ودينيا، عبر المتوسط وصل المسلمون إلى جنوب أوربا منذ طارق ابن زياد إلى ملوك الدولة المرينية مرورا بأمراء وسلاطين الدولتين المرابطية والموحدية، الذين تحكموا لقرون عديدة في جنوب إسبانيا المسيحي واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فيه. وهو أمر كانت تنظر إليه الكنيسة بتأثر كبير.

أما اقتصاديا، فقد كانت سبتة سوقا تجارية نشيطة جدا وتعتبر بوابة إفريقيا إلى

أوربا (والعكس)، إذ كانت أغلب السلع المتاجر فيها بين دول العالم تعبرها ومن خلالها البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت تمر منها السلع الآتية:

- من إفريقيا: العاج – التبر – الرقيق.
- من أوربا: العطور والأثواب.
- من آسيا: التوابل والحرير.

وأغلب المواد المذكورة كانت تصل غالية إلى أوربا بسبب مرورها بالوساطة العربية – وضمنها المغربية –، وهي مواد تسيل لعاب الأوربيين والإيبيريين على الخصوص، لذلك كان من الضروري التخلص من هذه الوساطة، والوصول مباشرة إلى مناطق الإنتاج.

هذه الأهمية – ذات المستويات الثلاثة – التي كانت تكتسيها سبتة (ونربطها دائما بالبحر الأبيض المتوسط) جعلت جهود عدد من الأطراف تتظافر من أجل السيطرة على هذه المدينة، وتحقيق كل طرف الهدف الذي يبغيه.

وكانت نتيجة الطموحات المشتركة أن ساهم الفيوداليون والتجار في تمويل الرحلات الاستشكافية التي تحولت إلى حملات استعمارية، وإصدار البابا (صك الجهاد المقدس" الذي خول للملك البرتغالي "خوان الأول" (1358–1433) حق التصرف في أموال الكنيسة من أجل المساعدة على التوسع في نشر المسيحية ومتابعة "حروب الاسترداد" فكانت النتيجة احتلال سبتة سنة 1415.

فكيف أصبحت سبتة مستعمرة إسبانية؟

إنه من سخرية القدر التاريخي أن يكون المغاربة هم أنفسهم من سهل على إسبانيا عملية استعمار سبتة، إذ بعد انتصارهم في معركة وادي المخازن سنة 1578 أصبح البرتغاليون بدون طبقة حاكمة حيث قتل ملكهم "دون سبستيان" في المعركة وأصبح معه العرش البرتغالي شاغرا، وهو ما استغله الملك الإسباني فيليب الثاني لضم البرتغال سنة 1580 وكذلك سبتة. فبقيت البرتغال تحت الحكم الإسباني لمدة ستين سنة، وعلى الرغم من استقلالها بعد ذلك، إلا أن الإسبان بقوا محتفظين بسبتة ومتشبثين بها، وهي مسألة يجب الانتباه إليها، إذ أنهم لم يشاؤوا تضييع فرصة تاريخية تجعلهم يتمتعون بالسيطرة على مدينة ذات أهمية استراتيجية مثل سبتة، حيث أصبحت خاضعة لهم رسميا منذ سنة 1640.

وبالعودة إلى سؤال لماذا احتلت سبتة من طرف البرتغال في هذه الفترة بالضبط، وتابعت إسبانيا احتلالها؟ نشير إلى أن هذه الفترة تقع ضمن بداية القرن الخامس عشر الميلادي، والإجابة عن السؤال تتطلب إلقاء نظرة على:

- الوضع الداخلي بالمغرب.
- الوضع الداخلي بالبرتغال.
- الوضع الإقليمي والدولي.

بالنسبة للمغرب، كان قد دخل في مرحلة عسيرة من تاريخه بعد وفاة السلطان المريني أبي عنان سنة 1358 أو 1359، حيث أصبح الصراع حول السلطة يطغى على الحياة السياسية المغربية، فبدأ الضعف ينخر أعمدة الدولة ، بل نجح في تقويضها، والمحاولات الانفصالية في المغرب الأوسط حققت هدفها، والصراعات بين ملوك الطوائف قد تأججت، حتى أصبح بعضهم يستنجد بالمسيحيين، سواء البرتغاليين أو الإسبان، فأضحت الدولة المغربية مشغولة من كل جهة: من الشرق تلمسان، ومن الشمال دويلات الطوائف، وداخليا الصراع حول السلطة.

ومما ساهم في تسهيل مهمة البرتغال أكثر هو أن المغرب لم يكن يمتلك أسطولا بحريا عسكريا بسبب غرق أسطوله الذي كان يضم ستمائة سفينة قرب الساحل الجزائري سنة 1349 أثناء عودته من تونس، حيث لم ينج سوى السلطان أبي الحسن. وعلى الرغم من أن ذلك الحادث حصل قبل أربع وستين سنة من احتلال سبتة، إلا أن المدة لم تكن كافية لبناء أسطول جديد وقوي قادر على الوقوف في وجه الأطماع الأجنبية.

في المقابل كانت بوادر القوة المسيحية قد لاحت وبرزت من خلال السيطرة على عدد من المدن الأندلسية، كما أن البرتغاليين تمكنوا من تحقيق وحدتهم السياسية، وتشكلت لديهم طبقة فيودالية قوية تمول الرحلات والحملات. في الوقت نفسه تدخلت الكنيسة لتعبئة الرجال وشحن العقول والنفوس لإمداد الجيوش بالمقاتلين، وبلورة مختلف الطموحات في بوثقة نشر المسيحية والدفع بمقولة: "حروب الاسترداد"، لتصبح بذلك البرتغال وإسبانيا سيدتا البحر الأبيض المتوسط، حتى أصبحتا تتنافسان فيما بينهما مما اضطر معه البابا إلى التدخل

وتقسيم العالم المستكشف / المستعمر بين الدولتين الإيبيريتين دون غيرهما، حيث أشرف على إبرام معاهدة "توردیسیاس" بين الطرفين سنة 1493 (مما كرس سيطرة إسبانيا على سبتة) والتي أعطت البرازيل والقارة الإفريقية والآسيوية للبرتغال، وباقي القارة الأميركية لإسبانيا، وهو ما جعل ملك فرنسا "فرنسوا الأول" يقول: "إني أريد أن أتعرف على بنود وصية آدم التي تستثنيني من تقسيم العالم، ألا تضيئني الشمس كما تضيء الآخرين؟ إن حق التجارة وتبادل البضائع حق طبيعي ومشروع من بين كل الحقوق".

أما على مستوى الوضع الدولي فيمكن القول إنه كان يعرف حركية كبيرة لعدد من الفاعلين السياسيين وتسارعا للأحداث في مختلف الجهات:

- بداية توسع الإمبراطورية العثمانية.
- بداية توحد الممالك المسيحية.
- تحرك الكنيسة بقوة لدعم الجيوش المسيحية في إطار الصراع مع دار الإسلام.

وفي إطار الظروف الدولية المذكورة لم يكن بإمكان الكنيسة وحلفائها التوسع في الشرق نظرا لقوة الإمبراطورية العثمانية لذلك توجه الاهتمام نحو جنوب البحر الأبيض المتوسط واستغلال ضعف الدولة الموحدية.

وقد كانت لاحتلال سبتة مجموعة من الانعكاسات والعواقب، نذكر منها:

- فقدان المغرب لجزء من رقعته الجغرافية.
- التضييق على التجارة المغربية والحد من نشاط الوسطاء التجاريين المغاربة.
- حرمان المغرب من جزء من مجاله البحري.
- تمكن الإيبريين من استعمار ثغور مغربية أخرى.

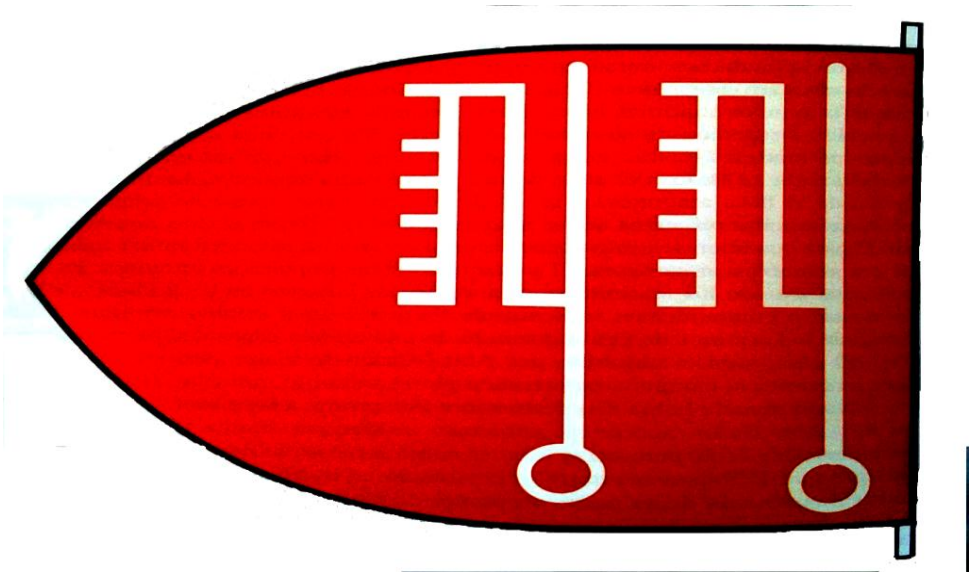

شكل هذا الشعار/الرمز بالنسبة لسكان مدينة سبتة خلال قرون عديدة قبل الاحتلال البرتغالي للمدينة عام 1415 م، تشخيصا للمشاعر العميقة لدى السبتيين نحو أرضهم ووطنهم المغرب . وهو على خلفية حمراء ترمز لنور الضوء والاشعاع العلمي والحضاري للمدينة، وكدلالة على فخر مدينة مزدهرة ومثقفة و متشبثة بدينها وهويتها، في نفس الوقت وانفتاحها ، حيث يرمز المفتاحان إلى الأهمية الجيوستراتيجية لسبتة وانفتاح المغرب على العالم. هذا الرمز الذي سيتم تغييره بعد الاحتلال الصليبي ، برمز أخر هجين بعيد كل البعد عن واقع المدينة وسكانها وتاريخها، كما سيتم تغيير معالمها العربية –الاسلامية وتهجير من تبقى من سكانها بعد المذبحة الرهيبة التي رافقت احتلالها ونهب كنوزها. وهو استنساخ لرسم نشر في العديد من المصادر منها ،كتاب "تاريخ سبتة"، المجلد الثاني (2008) ،تحت عنوان "علم من سبتة القرون الوسطى" تأليف كارلوس Carlos Gozalbes Cravioto

كما سينشره ،قبل ذلك ، المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم في العديد من مؤلفاته وغيره من المؤرخين مثل الدكتور محمد الشريف في كتابه المتميز "سبتة الإسلامية" والذي نشرته جمعية تطاون أسمير ، سنة 1996 وقدم له الدكتور امحمد بن عبود.

السياق الإقليمي والمحلي لمقاومة سيدي طلحة الدريج

إعداد : الدكتور حميد الحداد

مقدمة :

لاشك أن هذه الندوة تهدف إلى إعادة الاعتبار لسبتة ولأحد رموز المقاومة المغربية ضد المحتل الأجنبي خلال القرن 15 م /9 هـ ، وهي بذلك ترسخ إحدى الدعامات الأساسية لمجتمع متماسك ومنسجم ،والمتمثلة في التركيز على الهوية الوطنية وتثبيتها وتجذيرها في أذهان ووجدان المغاربة كبارا وصغارا ، خاصة وأن الندوة تركز على شخصية نحن كباحثين في التاريخ نعاني من قلة النصوص والكتابات حولها (1) .

---

[1]– ذلك أن كتابات المؤرخ البرتغالي Gomes Eanes de Azurara تبقى المصدر الرئيسي الذي اعتمد عليه الكثيرون ، حيث استمد معلوماته من بلاط ألفونصو 5 ، إضافة إلى منويل كاسطيانوس الذي ألف Historia de Marruecos في حوالي 700 صفحة ، وهناك طبعة أخرى يصل عدد صفحاتها إلى 1094 . و Marmol Carvajal وصف عام لإفريقيا ، وكنساليس دافيلا ، تاريخ إنريكي الثالث ..أما المؤرخون المغاربة فأهمهم :

–أبو الربيع سليمان الحوات ، "المسك الأريج في أخبار أولاد الدريج" ، مخطوط ، أخبرت بأن الزميل رشيد العفاقي على وشك الانتهاء من تحقيقه ونشره ، –محمد بن جعفر الكتاني ، "سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس" ، الجزء الثاني. – محمد بن الطيب القادري ، "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" ، ج 3 ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، الرباط ، 1986 م ، ص 217. – أحمد الرهوني ، "عمدة الراوين" ، ومحمد داود ، "تاريخ تطوان " ، ج 1 ،معهد مولاي الحسن ، 1379 هـ / 1959 م ، –انظر كذلك مؤلفات محمد ابن عزوز حكيم المتنوعة حول سبتة ...

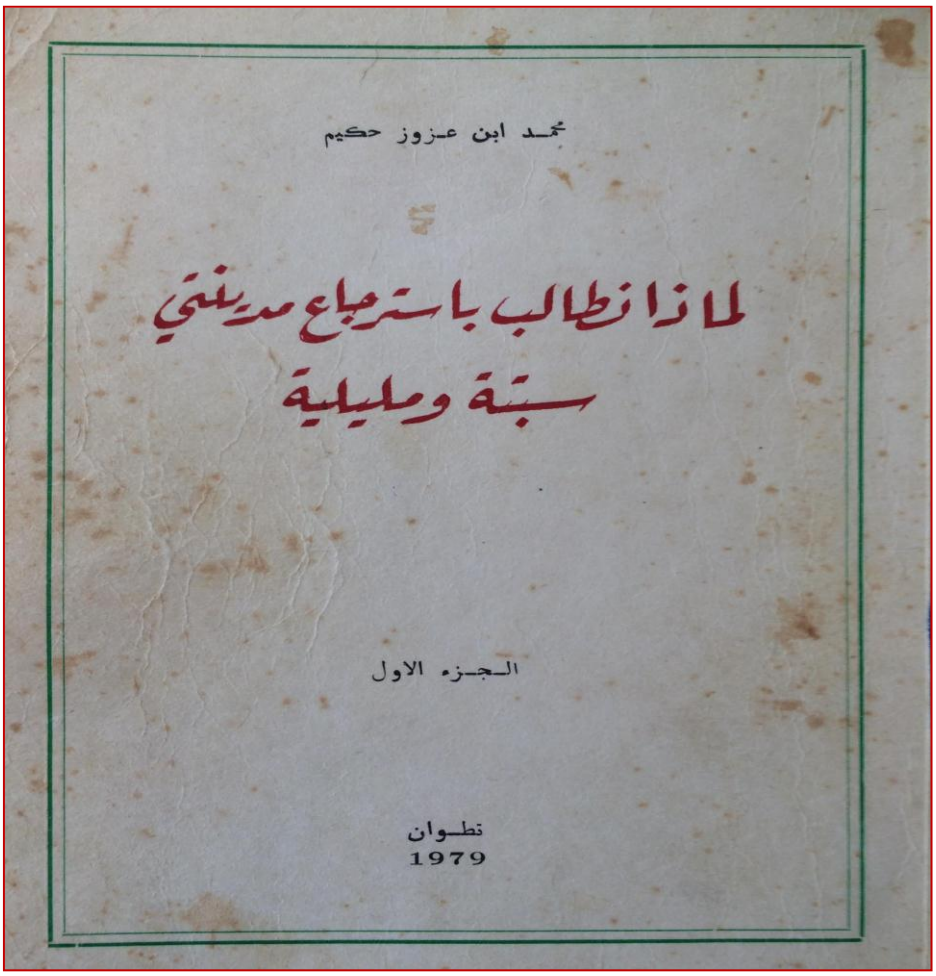

غلاف كتاب "لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة و مليلية " ،لمحمد ابن عزوز حكيم، (تطوان ، 1979) وهو تحقيق لكتاب محمد بن أحمد الشراط " كشف الحجاب عن الأخبار الخاصة بحروب المجاهدين الأبرار من أجل استرداد المدن والأمصار من يد أعداء الله النصارى الكفار ".وقد خص فيه سيدي طلحة الدريج و تزعمه للجهاد لاسترجاع مدينة سبتة ، حيزا هاما ، واصفا مختلف الهجمات التي نظمها ما بين سنوات 1426 و 1429 م.

إفادة عن المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم

قال الباحث رضوان احدادوا ، إن البحث العلمي بالمغرب في مجال التاريخ والحركة الوطنية فقد بوفاة ابن تطوان ، محمد ابن عزوز حكيم، مؤرخا من طينة العلماء الكبار ومناضلا كبيرا من أجل القضايا العادلة للمغرب.

وأعرب عن أمله في أن يعمل الباحثون والجامعيون على سبر أغوار مؤلفاته وإبداعاته الغزيرة خدمة للفكر المغربي وتنويرا لكل المهتمين بالشأن التاريخي خاصة والشأن الثقافي عامة ، ومن أجل نفض الغبار عن العديد من الأحداث التاريخية التي غيرت مجرى تاريخ الضفتين، خاصة وأن الراحل كان يتوفر على كم هائل من المستندات والوثائق النادرة.

ومن جهته، قال المؤرخ عبد العزيز سعود إن المرحوم محمد ابن عزوز حكيم كان باحثا من طينة الكبار حيث أفنى حياته في البحث والتنقيب وتنوير الرأي العام الوطني والدولي بقضايا هامة ، وساهم مع ثلة من المؤرخين المغاربة في إثبات العديد من الحقائق بالحجج العلمية الدامغة، مما جعل من كتاباته الكثيرة مراجع لكافة الوقائع والأحداث التي كان شمال المغرب مسرحا لها في مختلف الفترات التاريخية.

يعتبر محمد ابن عزوز حكيم، المزداد في شتنبر 1924 ، من الباحثين والمؤرخين المغاربة البارزين المختصين في الدراسات التاريخية حول مسار العلاقات المغربية الاسبانية ، وله إسهامات مهمة في هذا المجال أبرزت مختلف المراحل التاريخية المشتركة بين الضفتين.

وقد أسهم على مدى سبعة عقود، في إغناء المكتبة التاريخية بالمغرب واسبانيا بمصنفات تاريخية مستندة إلى الكتابة الوثائقية ، إذ نشر أزيد من 320 كتابا منها 190 كتابا باللغة بالإسبانية ، إضافة إلى أزيد من 300 بحث تاريخي حول تاريخ العلاقات المغربية الاسبانية

ومن بين مؤلفاته " مأساة الأندلس من سنة 1483 إلى سنة 1609 " و " رحلة في أندلسيا " و" معركة أنوال " و " زعيم الوحدة عبد الخالق الطريس" . وسبق للراحل أن أسس عددا من المجلات منها " الوثائق الوطنية " التي تعنى بنشر وثائق الحركة الوطنية ، و

"تطاون " التي تعنى بتاريخ شمال المغرب، و "الجيوب السليبة" باللغتين العربية والاسبانية ، و" دفاتر القصبة" بالإسبانية. (**عن موقع بريس تطوان، في 3 سبتمبر 2014**).

مما كتبه ابن عزوز حكيم ونشره وحققه اهتم فيه بما يلي :

-1بنوابغ المغرب من زاوية إبداع التراث الأدبي والعلمي والحضاري .

-2المقاومة والمقاومين بشمال المغرب

-3التأريخ للعمل الوطني

-4الإلحاح على حقوق المغرب التاريخية في المناطق السليبة من خلال كتب منها: «الصحراء المغربية: وثائق وصور» (1974)، «سبتة، متى وكيف اغتصبتها إسبانيا» (1985)، «لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية«، الجزء الأول (1979) .

-5اعتمد ابن عزوز حكيم الأرشيف لتصحيح كتابات عن تاريخ المغرب.

ويتساءل بعضهم الآن عن مآل هذه الثروة الوثائقية النادرة، خاصةً وأن الراحل كان يتمسك بها بقوة ويرفض الكشف عن محتوياتها أو إعارتها للمؤسسات والمتاحف المتخصصة.

المعطيات مأخوذة عن الأستاذين :

عبد الإله الصالحي(موقع العربي الجديد)

عبد العزيز جدير(موقع القدس العربي)

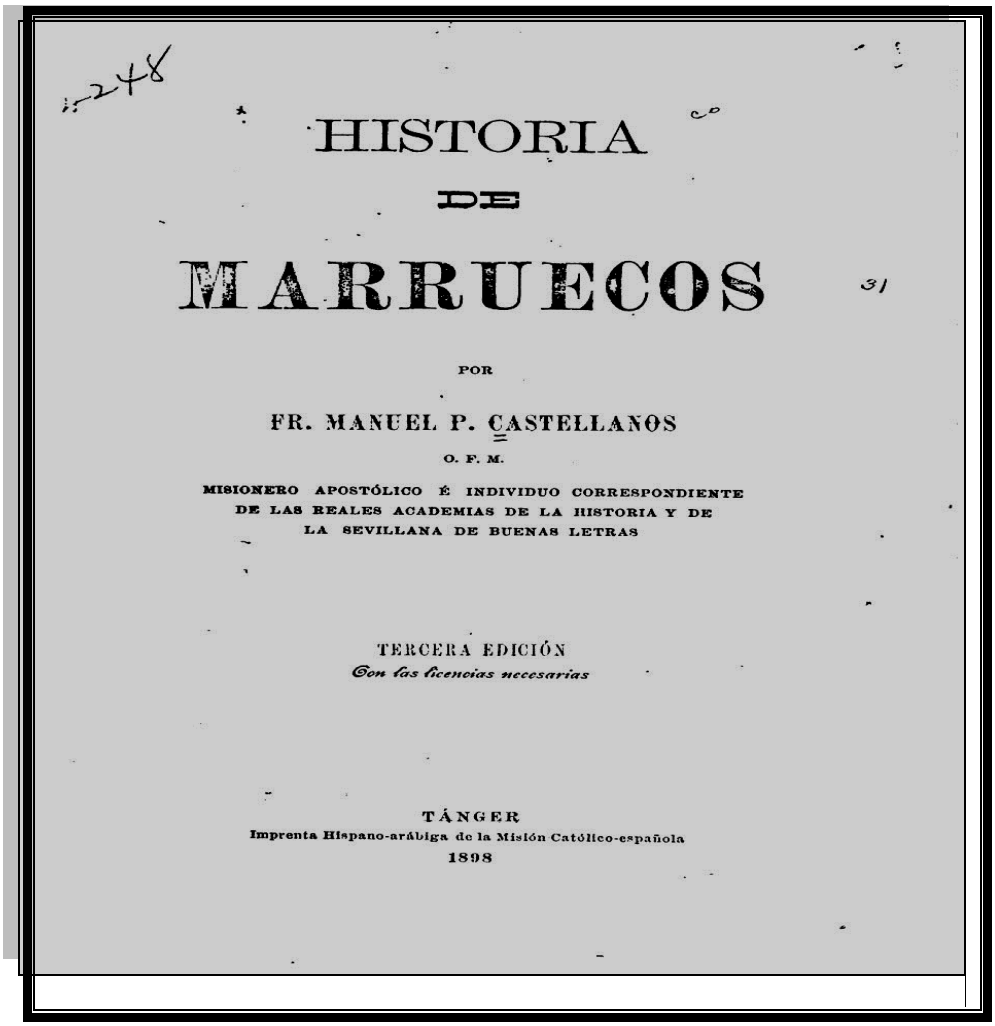

HISTORIA
DE
MARRUECOS

POR

FR. MANUEL P. CASTELLANOS
O. F. M.

MISIONERO APOSTÓLICO É INDIVIDUO CORRESPONDIENTE
DE LAS REALES ACADEMIAS DE LA HISTORIA Y DE
LA SEVILLANA DE BUENAS LETRAS

TERCERA EDICIÓN
Con las licencias necesarias

TÁNGER
Imprenta Hispano-arábiga de la Misión Católico-española
1898

غلاف كتاب منويل كاسطيانوس ، **Historia de Marruecos** "تاريخ المغرب" في حوالي 700 صفحة، والذي أرخ فيه لسيدي طلحة الدريج وتزعمه الجهاد ، و حروبه ضد احتلال البرتغال لمدينة سبتة المغربية .ونقدمه كمثال عن العديد من المراجع الاجنبية التي أرخت للمجاهد سيدي طلحة.

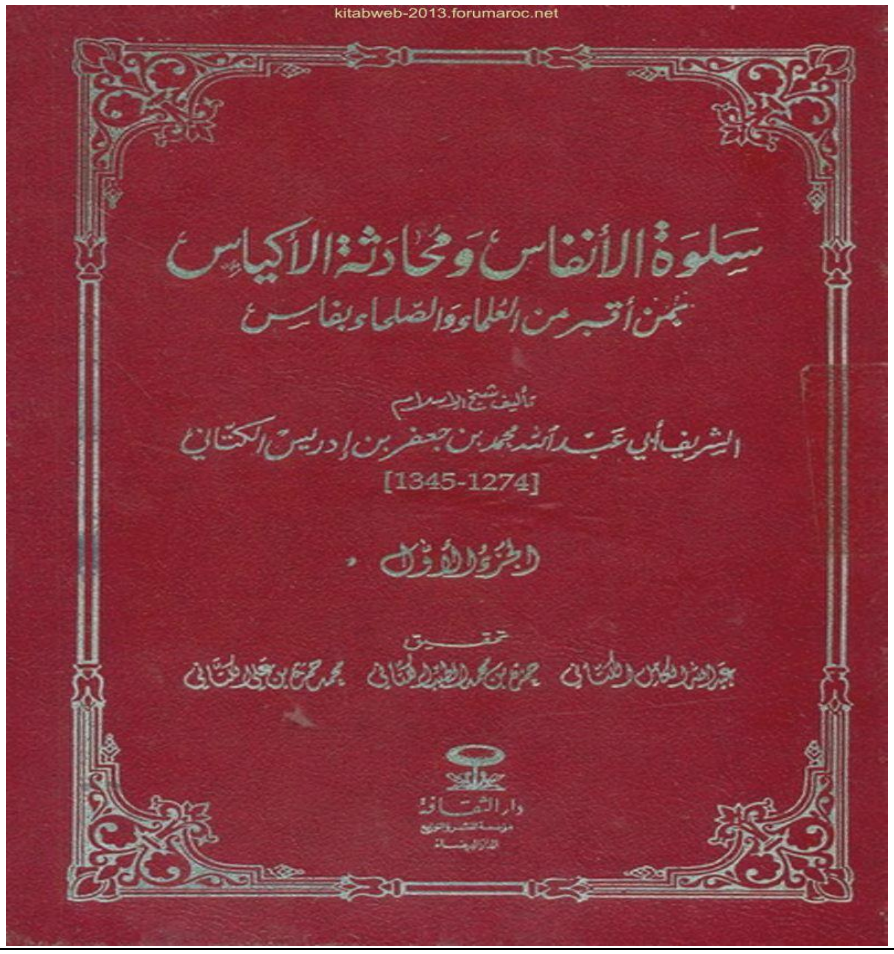

غلاف كتاب محمد جعفر بن ادريس الكتانى، " سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس"، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وآخرون،(دار الثقافة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، *سنة* **2004**).ويتحدث فيه عن الفرع الفاسي من أسرة الدريج أحفاد المجاهد سيدي طلحة والذين انتقلوا من تطوان واستوطنوا مدينة فاس ،ثم عاد أفراد منهم مجددا إلى مدينة تطوان للإقامة بجوار ضريح جدهم بالحي الذي يحمل اسم سيدي طلحة خارج باب النوادر بتطوان.

فالأشخاص الذين لا تكتب تراجمهم ولا تسجل أخبارهم في عصرهم أو فيما قاربه ، يضيع تاريخهم مع الأيام ، ويحتمل أن تكون أخبار سيدي طلحة لم تدون بما فيه الكفاية للإهمال واللامبالاة ، أو قد ضاعت جلها ولا نتوفر إلا على النزر اليسير ، لذلك نقترح أن تتكلف الأسرة بإعداد موقع مع بنك للمعلومات موثقة وذات مصداقية تتعلق بكل صغيرة وكبيرة حول جدهم المجاهد والمقاوم ..
وفيما يتعلق بهذه المساهمة فالهدف منها هو وضع المخاطب مهما اختلفت مستويات إدراكه ضمن الظروف الداخلية والخارجية التي أدت إلى بروز مقاومة سيدي طلحة الدريج السبتي التطاوني ، ذلك أن معرفة االسياق العام والخاص لأي حدث تاريخي مسألة منهجية هامة تساعد على فهم وإدراك الحدث قصد التمكن من التحليل والتعليل والتركيب إضافة إلى النقد والتعليق .. فلا شك أن مقاومة سيدي طلحة فجرتها أحداث تاريخية هامة ارتبطت سواء بالسياق الخاص أو العام للحدث.

I. السياق الإقليمي لمقاومة سيدي طلحة الدريج:

إذا كان شرق البحر الأبيض المتوسط قد بدأ يعرف نموا مضطردا لقوة الدولة العثمانية ، فإن غربه أصبح يعرف صراعا بين ضفتيه الشمالية والجنوبية ، فبعد سقوط دولة الموحدين في العقد السابع من القرن 13 م ، فقد المغرب الإسلامي وحدته السياسية وتفكك إلى دول صغيرة ومتنازعة:

أ) **الحفصيون بإفريقية وطرابلس** : [12] استقل الحفصيون بحكم إفريقية منذ القرن 13 م ،ومروا بمراحل مد وجزر ، وتمكنوا في القرن 15م من استرجاع قوتهم التي كانوا قد فقدوها ، لكنهم سرعان ما دخلوا منذ أواخر نفس القرن مرحلة تدهور جديد.

وقد حاول الحفصيون استقطاب القوافل التجارية نحو مجالهم ، بل أصبحوا يقصدون المراكز التجارية الصحراوية ليبيعوهم الخيول والفضة والنسيج ويعودون

[12]) انظر أحمد ابن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، تونس ، 1963 م.

عبر سجلماسة وتلمسان أو مباشرة عبر توات جالبين العبيد وغير ذلك.[13]
وفي عهد أبي سعيد عثمان تحول النفوذ في المغرب العربي والأندلس الإسلامية إلى يد السلطان الحفصي أبي فارس 1394 م – 1434 م ، إذ تمكن بفضل دهائه وحسن تدبير مساعديه من إخضاع جميع الإمارات المحلية التي تشكلت من قبل في عهد ضعف الدولة الحفصية ، ثم طمح بنفسه إلى بسط سلطته على سائر الشمال الإفريقي ، وكان ابن عمه لاجئا بالمغرب ، فحرضه أبو سعيد على الاستيلاء على عرش تونس ، حتى إذا دخل المغرب الأوسط ، وقع في قبضة أبي فارس الذي وجه برأسه لى فاس حيث علق بباب المحروق إغاظة لسلطان المغرب .وتمكن أبو فارس من إحتلال تلمسان والزحف بسهولة إلى فاس . وكان الوضع العسكري يومئذ في غاية الضعف بالمغرب . فطلب أبو سعيد عقد صلح مع أبي فارس ، ثم خطب له على منابر المغرب . مما يبرز تدهور وضعف الدولة المرينية والانزلاق نحو نهايتها .[14]

ب) **بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط** : تركزت بتلمسان والمناطق الغربية للمغرب الأوسط، وقد مكنها موقعها الجغرافي من موارد اقتصادية مهمة ، غير أنها كانت تعاني من عدة مشاكل ، أبرزها الصراعات الداخلية على السلطة ، وحروبهم مع جيرانهم الحفصيين و المرينيين وقيام الثورات ضد سلطتها . وقد كانت تلمسان مستقلة إلى حدود 789 هـ / 1387 م ، ثم ابتداء من 815 هـ / 1412 م مدعومة من طرف جزء من معقل الأحلاف ، وقد تمكنت من تحويل جزء من التجارة الصحراوية لصالحها.[15]

ج) **المرينيون في المغرب الأقصى** : دخلت الدولة المرينية منذ منتصف ق 14 م مرحلة من التدهور واكبها تزايد النزاعات مع الزيانيين والحفصيين وتصاعد

---

[13] Jean Brignon et autres, Histoire du Maroc ,hatier ,librairie nationale ,Paris – Casablanca ,1982 , P170.

[14] حركات، إبراهيم،، المغرب عبر التاريخ ،الجزء الثاني، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1405هـ-1984م، ص 58 - 59.

[15] J .Brignon , ibid.

قوة المسيحيين بشبه جزيرة إيبيريا وشروعهم في محاولة غزو المغرب ، فضعفت السلطة المركزية وأصبحت غير قادرة على الدفاع عن البلاد وتجلى ذلك في احتلال البرتغال لسبتة في سنة 1415 ميلادية وسنعود لهذا الأمر فيما بعد .

د) **مملكة بني الأحمر بالأندلس** :بدأت كفة النصارى منذ سقوط الموحدين ترجح لصالحهم في شبه جزيرة إيبيريا ، حيث أصبحوا يسيطرون على معظم البلاد ، بينما انحصر النفوذ الإسلامي منذ سنة 1232 م في مملكة بني الأحمر – بني نصر – ، وقد أصيبت هذه المملكة منذ ق 14 م بالضعف السياسي والعسكري ، رغم إشعاعها الحضاري الكبير ، فتصارع أفرادها على الحكم وظلوا يتأرجحون بين الاستنجاد بالمسلمين والاحتماء بالنصارى ، واشتد هذا الضعف مع تقلص الإمدادات المغربية عند نهاية المرينيين .

وكانت غرناطة تبعث بالمتمردين للسلطة المرينية ، وتدعم معقل ، وتبعد منافسة تلمسان وتستفيد من موارد السودان المصدرة عبر سبتة ، لكنها ستثير انتباه البرتغال لأهمية هذا الميناء المصدر للذهب والقمح المتخوفة من نمو قوة الحفصيين التي تشجع تجارة الموانىء الإيطالية .[16]

لكن خطر بني الأحمر سيبعد إثر تدخل قوة في الشمال وهي البرتغال ، والأخرى في الشرق الحفصيون ، حيث سيبرز دورهما خلال القرن 9 هـ / 15 م.

هـ) **البرتغاليون** : برزت البرتغال كدولة بحرية منذ أواخر القرن 13 م أي منذ أن نشأت الصلات التجارية بين موانىء البحر المتوسط وبين الموانىء الواقعة على شاطىء المحيط الأطلسي ، وأصبحت لشبونة بفضل وقوعها في منتصف هذا الطريق ميناء بحريا هاما ، فاهتم ملوك البرتغال بالملاحة والتجارة ، و شرعوا يشيدون إمبراطوريتهم .

---

[16]) Ibid . وكانت تدخلات غرناطة أكثر وضوحا حيث بدأت تحرك مطالبي العرش المريني إلى فاس أو مراكش ،ففي الظاهر كان سلطان بني الأحمر يلعب دور الحكم ، لكنه في الواقع كان محرك اللعبة محاولا الاعتماد بالخصوص على معقل أعداء تلمسان ، وقد كان معقل المستفيد الأساسي من هذا التدخل إذ كانوا يطالبون بالتعويض لتقديم الدعم لهذا أو ذاك خاصة مراقبة التجارة الصحراوية.

وقدم لنا BRIGNON وآخرون[17] تفسيرا ماديا منطقيا للوضع الاقتصادي والاجتماعي بالبرتغال وعلاقته باحتلال سبتة ، فقد نتج عن نجاح الثورة البورجوازية والحضرية التي أدت إلى وصول أسرة avis إلى الحكم 1385 م ارتباط الحكام بالمال .وبما أن الرأسمالية الفردية كانت ما تزال ضعيفة ، فإن ذلك ألزم الدولة بالتدخل. و نظرا لفقر البلاد ، ولوجود نظام جبائي يعفي الفئات المحظوظة من كل المغارم ، فإن الدولة عملت على الرفع من مواردها بالاهتمام بالتجارة.. لذلك ستلجأ البرتغال للتدخل في السياسة المغربية ،هذا التدخل تجلى في مظاهر مختلفة ، فبعضها اتخذ صبغة التأييد المعنوي لتنصيب ملك معين كما كان التدخل أحيانا عن طريق إمدادات عسكرية ، وسينتهي بالتدخل المباشر المسلح .[18]

وقد أكد هذا التحليل باحث آخر [19] مبرزا تداخل مصالح البورجوازية مع فئة من النبلاء ، فالعملية " قضية بورجوازيين ..يقودها نبلاء..".

نستخلص أن تفكك هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي وانحلال دوله وتنازعها ، وتردي أحواله الداخلية ، قد أدى إلى أن يصبح هدفا لأطماع وضغوط الأجانب وفي مقدمتهم الإيبيريون ، وخاصة البرتغاليون.

---

[17]) P156 .

[18]) حركات : المرجع السابق ، ص 67.

[19]) أحمد بوشارب ، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وآزمور ، ط 1 ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1404 هـ / 1984 م ، ص 157.

غلاف كتاب "سبتة ومليلية ...حتى لا ننسى" من تأليف محمد المعزوزي و جعفر بنعجيبة سليل العالم الجليل سيدي أحمد بنعجيبة التطواني – السبتي دفين الزميج على مقربة من ضريح/خلوة سيدي طلحة بمدشر البرج بجماعة ملوسة (إقليم الفحص أنجرة بطنجة). والكتاب يقدم حقائق ومعطيات هامة ونادرة، مدعومة بالوثائق والصور والمستندات القديمة والحديثة والتي تثبت بطلان مزاعم الاحتلال الاسباني وأطماعه في المدينتين المغربيتين السليبتين، سبتة و مليلية والجزر. "و ما ضاع حق وراءه مطالب".

II. عوامل احتلال سبتة :

قدم لنا بوشارب معطيات هامة عن الأسباب التي أدت إلى احتلال سبتة مشيرا إلى أن المصادر البرتغالية لم تفصح عن العوامل التي كان لها وزن كبير، وأعطت الأولوية لعوامل كانت ثانوية أو سرعان ما اختفت ويمكن الإشارة إلى أهم تلك الدوافع :

1. العامل الديني :

أعطى المؤرخون البرتغاليون المعاصرون لغزو المغرب وللكشوف مثل AZURARA أهمية قصوى لهذا العامل ، مسجلين أن الهدف هو تطويق المغرب أولا ثم الاتصال بالشعوب والملوك المسيحيين للتحالف معهم ضد مسلميه ثانيا ، وعملت الكنيسة والملوك على إذكاء روح العداء للمسلمين عند البرتغاليين ، فأصبحت محاربتهم مسألة مصيرية عند عامة الناس وخاصتهم .[20]

وهكذا التقت مصالح البابوية والبرتغال المتورط بالمغرب مما يفسر ذلك الاهتمام البابوي، [21] إذ أعطى البرتغال للبابوية نوعا من الاطمئنان من الناحية الغربية ، [22] في فترة كثرت فيها مخاوف الأخيرة وقلقها من التقدم التركي العثماني بحوض الأبيض المتوسط الشرقي ووسط أوربا.

لذلك أمرت البابوية رجال الكنيسة بإعلان الحرب الصليبية بالبلاد كلما قرر الملوك البرتغاليون هجوما على المغرب ، وضمنت الغفران لكل من ساهم فيها..وحثت على الحج إلى سبتة وعلى الإقامة بها على الأقل ثلاثة أشهر ، أو كراء من يقوم بذلك..واعترفت البابوية بمشروعية التوسع بالمغرب، وجعلته حكرا على البرتغال وحقا دائما و بدون حدود.[23]

والواقع أن هذا العامل الديني إن كان له دوره ، فإنه كان إلى جانبه عوامل أخرى ، ربما أكثر أهمية ، ولاسيما العامل الاقتصادي المحفز الرئيسي للبرتغاليين ، وقد

---

[20] نفسه ، ص 148.

[21] نفسه ، ص 149.

[22] نفسه.

[23] نفسه ،ص 152.

يتخذ العامل الديني لبوسا وغطاء لتبرير تعبئة الجنود وتحفيزهم لاحتلال سبتة ، فقد كان يهم البرتغاليين التجارة وجني الأرباح والتحكم في موقع استراتيجي هام ..

2. **العامل الاستراتيجي ومحاولة القضاء على الجهاد البحري :**

يمكن القول إن البرتغاليين عملوا على احتلالهم لسبتة كهدف أول لكونها " ..ذات أهمية استراتيجية عظمى ..مفتاح المضيق.." إضافة إلى "رغبتها في حماية استقلالها ، ومنع كل محاولة للعبور إلى العدوة لحماية الإسلام المهدد بها ".[24]

ولعب "الجهاد البحري "، " القرصنة "الإسلامية والمغربية على الخصوص دورا في دفع الإيبيريين إلى العمل على احتلال الموانىء المغربية ، أو على الأقل القضاء على هذا النشاط بها.[25] فلقد كان هذا العامل سبب هجوم القشتاليين على تطوان سنة 1399 م وتخريبها وأسر نصف سكانها... ذلك " أن القوة البحرية قد تحول معظمها من يد الدولة المغربية إلى يد حركة المقاومة قبل أن تضمحل الدولة المرينية بنحو ثلثي قرن ."[26]

وقد استخلص بوشارب[27] أن اهتمام البرتغاليين بالناحية الاستراتيجية كان مزدوجا : ضمان سلامة سفنهم وتوفير الموانئ لها على طول طريقها إلى سواحل غرب إفريقيا أولا ، ثم إلى الهند والبرازيل منذ بداية القرن 16.

3. **العوامل الاقتصادية :**

➢ افتقار البرتغال إلى القمح :[28] إذا كانت إسبانيا تعرف اكتفاء ذاتيا نسبيا في ميدان الحبوب إلا في حالات الجفاف ، فإن البرتغال كانت تعتمد باستمرار في تغذيتها على قمح المغرب ،بسبب تزايد عدد سكانها وارتفاع عدد حضرييها ...ولهذا لم يتردد بعض المؤرخين في ربط احتلال السواحل المغربية بمحاولة البرتغاليين ضمان هذه المادة الأساسية لبلادهم ..

---

[24]) نفسه ، ص 154.

[25]) نفسه ، ص 153.

[26]) حركات، المرجع السابق ، ص 60

[27]) بوشرب ، نفسه ، ص 154.

[28]) نفسه.

➢ الذهب : كانت أوربا تجلب التبر من موانئ المغرب الذي يجلبه بدوره من السودان. ولقد أظهرت القوافل عجزها عن تغطية حاجيات أوربا المتزايدة من هذه المادة ..ولم تعرف أوربا أبدا مستوى من الفقر إلى التبر مثلما عرفته ما بين 1350 م – 1500 م ، ولم تكن منطقة تشكو من هذا النقص أكثر من إيبيريا .، فلقد توقف سك العملة الذهبية بالبرتغال بعد 1383 م، ودام ذلك خمسين سنة ، أي إلى أن انطلقت الكشوف ، وبعد احتلال سبتة . ونتج عن هذا التوقف سلسلة خطيرة من انخفاض قيمة العملة بالبرتغال..فلا غرابة والحالة هذه أن يعمل البرتغاليون على الخروج من بلادهم ليبحثوا لأنفسهم عن سند لعملتهم المتدهورة ، الشيء الذي حاول الإيطاليون والكطلانيون القيام به قبلهم بحرا وبرا. وبما أن سبتة كانت أكبر أسواق الذهب بالمغرب ، فمن المعقول أن تكون لذلك هدفهم الأول.[29] ومما يربط بين هذا العامل والاحتلال أن سك العملة الذهبية تم بعد احتلال سبتة ، التي احتفظت بدار سكتها حتى بعد احتلالها.[30]

نستنتج أن هذا العامل كان أساسيا في دفع البرتغاليين إلى احتلال سبتة..

4. الأسباب الاجتماعية :

أجمعت الدراسات على أن الملك البرتغالي توخى من الهجوم على المغرب هدفين : الحفاظ على الروح العسكرية لدى النبلاء والفرسان الذين مالوا إلى الدعة بعد إمضاء الهدنة مع قشتالة 1411م، وشغل النبلاء المبعدين عن السلطة في حروب خارجية.[31]

كما وجد النبلاء والفرسان في غزو المغرب وسيلة لتخطي الأزمة التي أصابت ذوي المداخيل القارة بعد تتالي انخفاض قيمة العملة ، وذلك بالعمل على الحصول على أراضي جديدة وعلى مناصب أو رواتب تخلفها الحروب

[29] نفسه ، ص 155.
[30] نفسه ، ص 156.
[31] نفسه ، ص 157.

بالمغرب.[32]

وهكذا يتبين أن الوضع الاجتماعي بالبرتغال كان يفرز صراعا طبقيا خفيا بين النبلاء المتحمسين للحروب والسيطرة متأثرين بما ساد خلال الفترة الفيودالية ، وبين التجار الذين أصبحوا يشكلون نواة بورجوازية المستقبل والذين يهمهم بالدرجة الأولى بناء علاقات قائمة على "السلم" للتمكن من غزو الأسواق للتمكن من التصدير والاستيراد وفسح المجال أمام جني الأرباح بأقل تكلفة.

وبذلك تكون العوامل مختلفة حسب الفئات المهتمة بالتوسع .

احتلال البرتغال لسبتة:

وقد نتج عن هذه الدوافع احتلال سبتة سنة 818 هـ / 1415 م بعد حصار طويل ، وقد قدم لنا الأنصاري[33] المعاصر لاحتلال سبتة ، معطيات هامة تدل على المعالم الاقتصادية والحضارية التي كانت تتوفر عليها المدينة من ميناء وزوايا ومقابر ومدارس ومساجد...وسيحول البرتغاليون الجامع الأعظم إلى كنيسة[34] وعملوا على استفزاز المسلمين في سبتة – ثم فيما بعد في باقي المدن التي سيحتلونها – بالإغراق في الفساد وهتك الحرمات والمس بالمقدسات الدينية ، مما سيؤدي إلى تبني المقاومة.

---

[32]) نفسه .

[33]) محمد بن القاسم السبتي ، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ط 2 ، الرباط ، 1403 هـ / 1983 م.

[34]) حركات ، المرجع السابق ، ص 60. لحسن اليوبي ، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، ص 43.

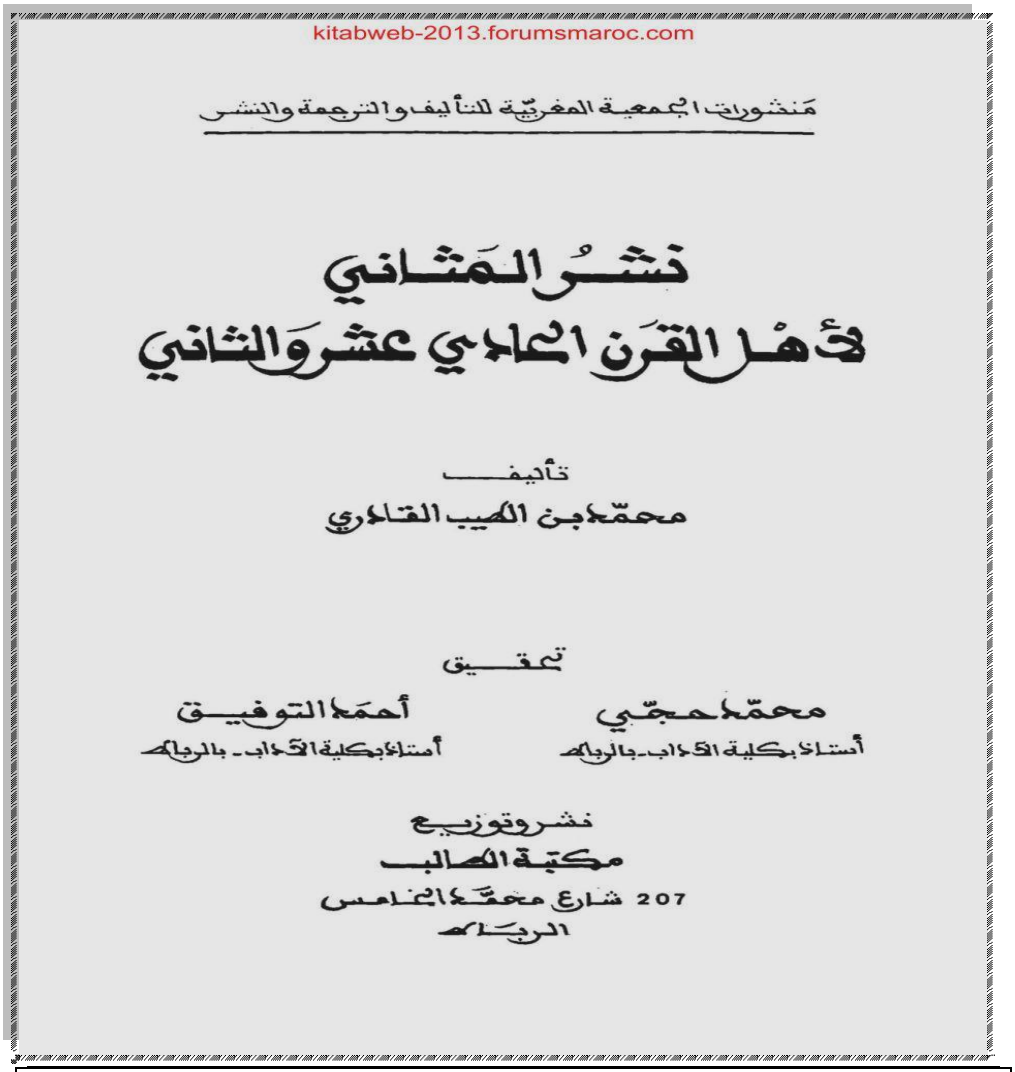
kitabweb-2013.forumsmaroc.com

منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

نشر المثاني
لأهل القرن الحادي عشر والثاني

تأليف
محمد بن الطيب القادري

تحقيق
محمد حجي — أستاذ بكلية الآداب بالرباط
أحمد التوفيق — أستاذ بكلية الآداب بالرباط

نشر وتوزيع
مكتبة الطالب
207 شارع محمد الخامس
الرباط

كتاب محمد بن الطيب القادري ، "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" ، تحقيق الدكتور محمد حجي والدكتور أحمد التوفيق ، الرباط ، 1986 م، والذي يتحدث فيه عن أحد العلماء الذائع الصيت، من أعقاب المجاهد سيدي طلحة الدريج و الذي انتقل من مدينة تطوان إلى مدينة فاس، وهو حسب القادري ،" الفقيه النبيه ،المبارك النزيه،الولي الصالح،العارف الواضح،سيدي محمد بن محمد الدريج الاندلسي التطواني"، توفي بفاس عام 1126 هـ (صفحة 217 من الجزء الثالث من كتاب نشر المثاني).

II. السياق الوطني لبروز مقاومة سيدي طلحة :

قدم لنا الناصري [35] اعتمادا على ابن خلدون – وهو معاصر تقريبا للفترة – نصوصا هامة تبرز ضعف الدولة آخر المائة الثامنة ، حيث تراجع العمران ، وتقلص النمو الديمغرافي بسبب الأوبئة ، وخربت الأمصار والمصانع ،فساد الخمول والانقباض ،كما قدم لنا[36] نصا قيما اعتمادا على صاحب مرآة المحاسن يشير إلى جور الوالي فارح بن مهدي بمدينة تيجساس مما أدى إلى خلوها من سكانها ،كما زودنا أيضا بنص آخر حول تخريب تطوان سنة 1400 م [37] ، ومن خلال هذه النصوص نستنتج بصفة عامة تدهور الدولة المرينية في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والمالية والعسكرية :

الأزمة السياسية : تجلت خصوصا في ضعف السلاطين خاصة الذين أعقبوا أبا عنان ، إذ هناك من بويع صبيا صغيرا ، فقد تولى السلطان عبد الحق آخر سلاطين الدولة المرينية وسنه لا تتعدى سنة واحدة ، وهناك من كان مريضا يعاني من خلل عقلي ..كما تجلت الأزمة في الصراع العائلي على السلطة (مثال الصراع بين أبي عثمان وأخيه محمد السعيد) إضافة إلى بروز وزراء وحجاب أقوياء – عمر الفودودي وفارح بن مهدي وأحمد القبائلي – بسطوا نفوذهم على الأمراء، واستعملوا الخصيان العبيد كأدوات لتنفيذ مخططاتهم لاسيما ما يتعلق بالاغتيال والقتل، وفي هذا الصدد قدم لنا أحد الباحثين[38] معطيات كمية هامة

---

[35]) الناصري, أبو العباس أحمد ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى , ج4 ، مطبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء، 1954م، ص 84 – 85.

[36]) نفسه ، ص 89.

[37]) نفسه ، ص 89 – 90.

[38]) الهلالي ، محمد ياسر، اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني (قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة) ، ضمن التاريخ والفقه : أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني ، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تنسيق محمد حجي ، جامعة محمد الخامس ، منشورات كلية الآداب ، الرباط ، ط 1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1423هـ / 2002م،(سلسلة ندوات ومناظرات ، رقم 103):

في هذا المجال .وقد شكل كثير من الوزراء الطموحين أدوات coteries féodales في يد التكتلات الإقطاعية مثل هنتاتة ،معقل ، فكان لها تأثير أكبر في ضعف وتفكك و انهيار الدولة المرينية ..[39]

وهكذا أصبح تمركز السلطة مستحيلا بسبب عوامل داخلية ساهمت فيها أقليات ، وصدف و موت أمراء نسبيا أقوياء ،واستبداد وزراء ، وأصبحت الهياكل الإدارية و المخزنية بعشرة أقاليم بيد أسر مرينية[40] ، واستدعوا عرب الخلط ، وسفيان ، وبني جابر وأدمجوهم في الإدارة المخزنية ومنحوهم الأراضي الخصبة ، وفقد حلف الأسرة الزناتية أهميته وانفصم وانحل ..[41]

عسكريا : أما الجيش والذي تكون في الأصل من زناتة ، فقد أصبح يعتمد أيضا على المليشيات المسيحية التي تزايد عددها إلى حدود 823 هـ / 1420 م ، فتميز بعدم التجانس ، وضعف العدة ، مما أفقد الأمراء أداة هامة لنفوذهم .[42]

الأزمة الاقتصادية و المالية : أعفى المرينيون كثير من الفئات من تسديد الضرائب خاصة كثير من القبائل العربية و الشرفاء و القبائل المخزنية مثل بني وطاس الذين أصبحوا شيئا فشيئا مستقلين ، فخلقت أرستقراطية معفية من الجبايات ، كما أخذ أمراء الإقطاعيات fiefs العادة باستخلاص الضرائب لأنفسهم ..[43] مما حرم الدولة من مداخيل هامة .

" إنه من ضمن 28 سلطانا مرينيا نجد 7 فقط توفوا بشكل طبيعي ، بينما اغتيل 12 سلطانا مرينيا ، وخلع 9 ، 3 منهم قتلوا بعد خلعهم .والنتيجة أن 54 % قتلوا ، 21 % خلعوا دون قتل ، 25 % توفوا بشكل طبيعي.وهنا لابد من الإشارة إلى تعرض كل من أبي السعيد عثمان وعبد الحق إلى القتل وهما الأميران الأخيران في الدولة المرينية. إذ يسود الغموض أواخر عهد أبي سعيد الذي رغم طوله كان من أشأم فترات الدولة المرينية ، فقد أدى طاعته لبني حفص ، ومات أسيرا في السجن حسب رواية مانويل بينما مات مغتالا حسب رواية طيراس .."

(39 Brignon ,P167 – 168.

(40 Ibid.

(41 Ibid.

(42 Ibid.

(43 Ibid.

ومع التفكك والضعف خلال أواخر المرينيين وبروز مملكة تلمسان الراغبة في تحويل الطرق التجارية لصالحها ، وبسط نفوذ الحفصيين على منطقة تمتد من الجزائر إلى طرابلس ومن بسكرة إلى توزر ، تحولت الطرق أو انحرفت من جديد نحو الشمال الشرقي ، فانهارت بعض المراكز التجارية في الوقت الذي برزت فيه أخرى.. وفقد المغرب المراكز التجارية الأكثر نشاطا ، فانحصر نشاط فاس التجاري البعيد واقتصر على المجال المغربي ، إذ تدخلت معقل وسكان الهضبة الوسطى ، وقبائل الريف المتمردة المطلة على حوض المتوسط[44] لاستقطاب واستمالة جزء من القوافل الصحراوية. وقد نتج عن هذا الضعف والتدهور العام تصاعد التدخلات الأجنبية سواء من طرف قشتالة أو البرتغال أو غرناطة أو الحفصيين (مثال تطوان 1400 م).

نستخلص أن المغرب عانى خلال هذه الفترة من ضعف وتدهور عاما مختلف المجالات

السياسية والعسكرية والاقتصادية ، فاختل الاستقرار ، وبرزت قوات إقطاعية وإقليمية بدأت تتدخل في شؤونه الداخلية ، وتهدد مجاله ، وشكلت سبتة ونواحيها مجالا واسعا لتلك الاضطرابات .

---

(44) Ibid , P 169.

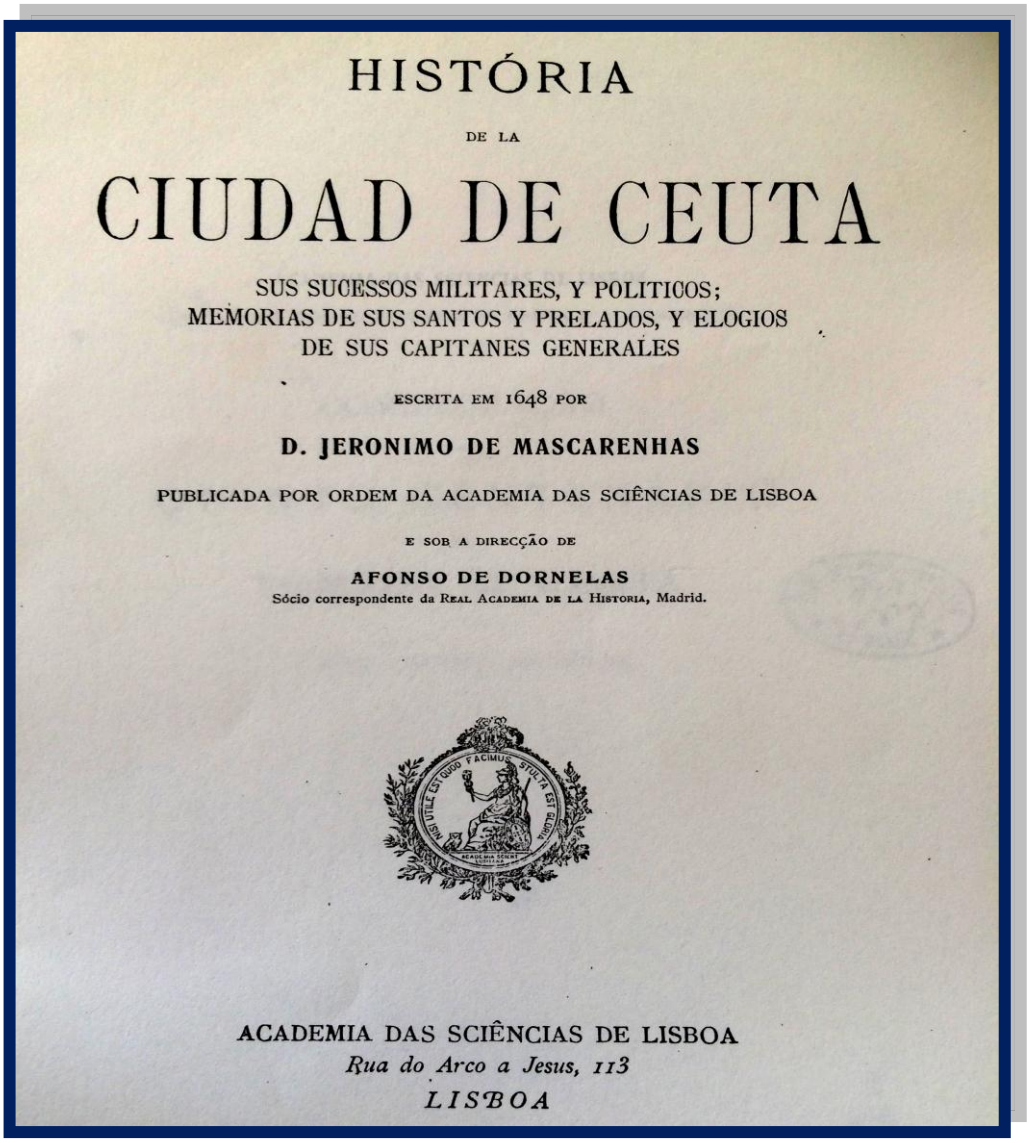

HISTÓRIA

DE LA

CIUDAD DE CEUTA

SUS SUCESSOS MILITARES, Y POLITICOS;
MEMORIAS DE SUS SANTOS Y PRELADOS, Y ELOGIOS
DE SUS CAPITANES GENERALES

ESCRITA EM 1648 POR

D. JERONIMO DE MASCARENHAS

PUBLICADA POR ORDEM DA ACADEMIA DAS SCIÊNCIAS DE LISBOA

E SOB A DIRECÇÃO DE

AFONSO DE DORNELAS

Sócio correspondente da Real Academia de la Historia, Madrid.

ACADEMIA DAS SCIÊNCIAS DE LISBOA

Rua do Arco a Jesus, 113

LISBOA

وعاصرت أسرة أفيس الكثير من تلك الاضطرابات وتابعت أطوارها عن كثب ...وظلت سبتة في إطار الوضع الداخلي محطة معارضة للسياسة المركزية المرينية ، والمتمثلة سواء في تلك الجماعات المنفية إلى الأندلس والمتكونة من القرابة غير المرغوب فيها ، أو تلك التي كانت من حين لآخر ترتد إلى فاس ، بغية الاستيلاء

على الملك بمساعدة غرناطة المسلمة .[45]
نستنتج أن احتلال سبتة تم نتيجة عدة عوامل أهمها الضعف السياسي والاقتصادي والعسكري للدولة المرينية والذي نتج عنه تضعضع الأوضاع الداخلية وبروز قوات إقطاعية منافسة للسلطة " الشرعية " ، في المقابل استغل البرتغاليون هذا الظرف لاسيما أمام اختلال ميزان القوى لصالحهم ، فسيطروا على المدينة مما فجر مقاومات شعبية.

III. السياق المحلي لبروز مقاومة سيدي طلحة :

لذلك شكل هذا الغزو تحديا دينيا هدد العقيدة والمقدسات ، وأحس العلماء والصلحاء بالروح الصليبية التي ينطوي عليها ذلك الاحتلال ،لذلك مالوا إلى الإصلاح والمقاومة ، إذ دعوا إلى جمع الكلمة والوحدة، واهتموا اهتماما خاصا بأمر الجهاد ، فعملوا على توجيه المقاومة توجيها واعيا متيقظا ، وذلك بتعبئة الجماهير تعبئة دينية ، والعمل على تكتلها تحت راية الجهاد لتحرير البلاد من قبضة المحتل.[46] كما ساهموا عمليا عن طريق التطوع في صفوف المجاهدين و مباشرة القتال سواء خلال هذه الفترة أو فيما بعدها خلال العهد السعدي .
وقد نتج عن عدم تحمل السلطة لواجباتها في الدفاع عن حوزة البلاد لضعفها ، أن برزت ظاهرة الالتفاف والتكتل حول كل متطوع ينادي بالجهاد ويدعو إليه ،وتبنت أغلب المبادرات شخصيات ذات هوية صوفية مثل سيدي طلحة وقبله عب بن محمد وعبد الرحمان الجزولي الذين قادوا حركات متوالية للجهاد ضد البرتغاليين ..

[45]) حسن الفكيكي ، المرجع السابق ،ص 76- 77. [45]) نفسه ،ص ، 83.

Crónica de D. Duarte de Meneses (eBook) de Gomes Eanes de Zurara (também grafado como *Gomes Eanes de Azurara*) Edições Vercial 2012 (غلاف كناب زورارا وتكتب كذلك أزورارا.

صورة من المخطوط الأصلي لكتاب زورارا

المقاومة :

1) **مقاومة عبد الله (عب) بن محمد المجكسي** بين 1415 – 1419

قدم لنا أحد الباحثين[47] معطيات هامة حول هذا المجاهد ، فقد برز اسمه قبل انطلاق مقاومة سيدي طلحة بما يناهز عشر سنوات ، لذلك يمكن اعتباره أول قائد للجهاد، فاتجه إلى القيام بمناوشات بعدما اكتسب صيتا واتصل بمختلف زعماء القبائل، نتج عن ذلك بروز تضامن إقليمي ووطني ،[48] تجلى ذلك بفضل الدعوة التي وجهها عب بن محمد ، واحتمال ما قام به الصلحاء والعلماء في مختلف الجهات.[49] فمنذ بداية 1416 م اتصل عب بمختلف شيوخ القبائل المتواجدين بالإقليم طالبا الفرسان والمشاة.. وبالفعل ساهمت قبائل بني حزمار وبني عروس في حصار سبتة كما شاركت في التعبئة قبائل مجكسة وانجرة وطنجة واصيلا وجبل حبيب والشاون وبني كرفط و ..[50] بل امتد جذور هذا التضامن نحو الجنوب الغربي بمشاركة جزولة ، وإلى الجنوب الشرقي بتطوع رجال تافيلالت ، فضلا عما توصل به الميدان من مشاركة أقاليم مملكة فاس المرينية .[51]

وقد انحصر العمل الحربي في إعداد كمائن ظهر خلالها تفوق البرتغاليين مما أثر على معنويات المجاهدين.ومما زاد الطين بلة استشهاد عب بن محمد ومحمد الأنجري مما انعكس سلبا على المقاومين الذين تعرضوا لخيبة كبرى دامت ثلاث سنوات .[52] لكن أهل أحواز سبتة واصلوا الجهاد طيلة سنة 822 هـ / 1424 م ، وأنه في سنة 823 هـ/ 1425 م تزعم هذا الحصار صالح بن صالح الياباني

---

[47]) الفكيكي ، المرجع السابق ، ص 94 – 95. أصله مريني وينحدر من أسرة مشهورة ، كان حاكما لجبال مجكسة 1415 م وقيل إنه قائد فاس المرسل من طرف السلطان أبي سعيد عثمان.. ويعتقد أن عب كان من المساعدين الأولين لصالح بن صالح حين استنجد بالقوات المجكسية ..

[48]) نفسه ، ص 109 – 110.

[49]) سيدي موسى أكبر فقهاء مصمودة ، والفقيه أحمد وفقيه طنجة و فقيه بني معدن 1436 م.

[50])نفسه ، ص 119 – 120

[51]) نفسه ، ص ص 111.

[52]) نفسه ، ص 131 – 132.

المريني واستمر الحصار إلى سنة 829 / 1426 م .[53]
لذلك فبالإضافة إلى عبد الله بن محمد أورد الفكيكي [54] أسماء قواد اشتهروا خلال هذه المرحلة : قاسم بومكان الترغي و الشيخ جابر والغازي يوسف مقدم مجاهدي انجرة و حدو بن أحمد العروسي والحسين بن رحال الشاوني ويوسف الأنجري ..
ذلك هو الظرف الذي أدى إلى تعبئة سيدي طلحة لرجاله وقيادتهم إلى ميدان سبتة بين 1427- 1429 م.

خاتمة :

نستخلص أن ضعف دول شمال إفريقيا وسيادة التفكك والتجزئة ، وتدهور الوضع السياسي والعسكري والمالي والاجتماعي للدولة المرينية بالخصوص ، أدى إلى تكالب القوى المسيحية خاصة البرتغال مدعمة من البابوية ، فاحتلت سبتة ، دون تمكن الدولة من تعبئة الجيش الهش والقبائل للدفاع عن البلاد والعباد ، مما فجر مقاومة شعبية قادها زعماء – لم تتناولهم الكتابات التاريخية المغربية بإسهاب بل اقتصرت جلها على الاعتماد على الكتابات الإيبيرية– وسيكون من بينهم سيدي طلحة الدريج العالم والمتصوف والذي قاد حركة جهادية بوسائله المتواضعة وبرجاله المتحفزين ، فدافعوا عن الإسلام وعن الحرية والتحرير وعن الثوابت وعن الهوية مما جعلهم ينالون احترام قبائل المنطقة وغيرها. وسيمثل الشيخ أحمد بن مرزوق المجكسي 833هـ/ 1430 م استمرارا لهم في قيادة حركة الجهاد.

---

[53]) نفسه ، ص ص 150 .أورد الباحث هذه المعلومات انطلاقا من كناشة قديمة نقل عنها أحمد الشراط في كتابه " كشف الحجاب عن الأخبار الخاصة بحروب المجاهدين الأبرار من أجل استرداد المدن والأمصار من يد أعداء الله النصارى الكفار "..

[54]) نفسه ، ص 123 – 125.

صورة البرج الموجود بمدينة سبتة والمعروف ببرج المرأة المغربية لأنه كان مسرحاً لإحدى الأعمال البطولية التي قامت بها امرأة مغربية في معركة الدفاع عن المدينة يوم احتلالها من طرف البرتغال حيث ألقت من أعلى البرج بحجرة أودت بحياة أول ضابط برتغالي سقط في المعركة واسمه باسكو أطايدي.

نشر هذه الصورة العديد من المؤرخين الأجانب والمغاربة منهم محمد ابن عزوز حكيم و حسن الفكيكي.

سيدي طلحة الدريج
وجهاده في سبيل استرجاع سبتة السليبة

الدكتور رشيد العفاقي

بداية، أودّ أن أتوجّه بالشكر إلى رئيس «جمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث» على توجيه الدعوة إلى شخصي المتواضع للمشاركة في هذه الندوة المتميزة إلى جانب عدد من أهل العلم. وشكري موصول كذلك إلى «جمعية تطاون أسمير».

من الصدف الجميلة – بالنسبة لي على الأقل – أن الإعلان عن تنظيم هذه الندوة المؤتمر الوطني الرابع للغة العربيةالمؤتمر الوطني الرابع للغة العربيةجاء في الوقت الذي انتهيت من تحقيق كتاب: الْمِسْكُ الْأَرِيجِ فِي نَسَبِ أَوْلَادِ الدَّرِّيجِ.

أقول هذا ليس من باب الدعاية للكتاب الذي أعددته للطبع، وإن كانت الدعاية في هذا المجال محببة عموما، وإنّما من قبيل التلميح إلى هذه الصدفة الجميلة.

وبالتالي وجدت في هذه الندوة مناسبة لتقريب الحاضرين، والباحثين، لاسيما المهتمين بتاريخ سبتة، من مضامين هذا الكتاب الذي أُعِدُّه مساهمة في التعريف بجهاد المغاربة من أجل استرجاع مدينة سبتة المحتلة، هذه المدينة العريقة التي يتوجب على كل مؤرخ مغربي أن يهتم بها لما لها من الفضائل والمزايا، ولما لها من تاريخ متميز أغنى الحضارة المغربية في غير ما مجال.

- **بيت الدريج**

قلتُ: إنني انتهيت من تحقيق كِتَاب «الْمِسْكُ الْأَرِيجِ فِي نَسَبِ أَوْلَادِ الدَّرِّيجِ»، بالاعتماد على نسختين: نسخة الخزانة الملكية بالرباط، ونسخة خزانة الفقيه محمد داود رحمة اللّه عليه. وتجدر الإشارة إلى أنّ «مختصر المسك الأريج» نشره

الفقيه أحمد الرهوني قديما بمجلة «الاتحاد» التطوانية.
ثم إنه لربما أسعفني الحظ في الاطلاع على مخطوطة لها ارتباط بـ«المسك الأريج»، وأعني تقييدا عنوانه: «المسك الأريج في نسب الشاميين وأولاد الدريج»، لمؤلف لم أتحقق من اسمه حتى الآن، والمخطوطة توجد في ملكية الأستاذ عبد المالك الشامي بفاس، وأظن أن مضمونها يؤكد علاقة النسب بين عائلة الدريج الأندلسية السبتية ثم التطاونية وبين عائلة الشامي الفاسية، فكلا العائلتين يرجعان بأصولهما إلى الأنصار وبخاصة إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه.
وهذا الكتاب هو من نوع التقاييد التي وضعت في نسب العائلات، ويتعلق خاصّة بعائلة «الدريج» الأندلسية التطوانية ثم الفاسية، قال في أوّله:
«فَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْأَحْبَابِ مِمَّنْ لَهُ الْغِيرَةُ عَلَى الْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ أَنْ أُقَيِّدَ شَيْئًا فِيمَنْ بِهَذِهِ الْأَعْصَارِ مِنْ بَنِي الدَّرِّيجِ الثَّابِتِ نَسَبِهِمْ إِلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا رَأَى مِنْ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَوَجَدَ مِنْ ضُعْفِ مَدَدِهِمْ، وَأَنَّ الْخُمُولَ كَادَ يَذْهَبُ بِنُورِ شُهْرَتِهِمْ.
إِنَّ هَذَا النَّفَرَ، الْمَوْجُودُ الْآنَ مِنْ بَنِي الدَّرِّيجِ فِي حَضْرَةِ[55] فَاسَ وَثَغْرِ تِطْوَانَ[56]، يُرْفَعُ نَسَبُهُمْ أَوَّلًا إِلَى وَلِيِّ الله الشَّيْخِ أَبِي يَعْلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله الدَّرِّيجِ الْأَنْصَارِيِّ صَاحِبِ الْمَزَارَةِ الْعُظْمَى حَيْثُ ضَرِيحُهُ بِخَارِجِ تِطْوَانَ الْمَحْرُوسَةِ نَفَعَنَا الله بِهِ، وَرَفْعُ نَسَبِهِمْ كَمَا يَأْتِي ثَابِتٌ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَصْدِقَتِهِمْ الَّتِي بِخَطِّ جُمْلَةٍ مِنْ أَعْيَانِ الْعُدُولِ بِالْحَضْرَةِ الْفَاسِيَّةِ وَالتِّطْوَانِيَّةِ.
فَنَسَبُ بَنِي الدَّرِّيجِ فِي الْأَنْصَارِ، ثُمَّ فِي الْخَزْرَجِ مِنْهُمْ، ثُمَّ فِي نَوْفَلَ بْنِ عَوْفٍ، ثُمَّ هُمْ مِنْ بَنِي أَبِي الْوَلِيدِ سَيِّدِنَا عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ؛ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْقَاضِي وَلِيِّ الله أَبِي عَبْدِ الله الدَّرَّاجِ السَّبْتِيِّ، ثُمَّ مِنْ بَنِي الشَّيْخِ وَلِيِّ الله أَبِي يَعْلَى طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الله الدَّرِّيجِ السَّبْتِيِّ دَفِينِ خَارِجِ بَابِ النَّوَادِرِ مِنْ ثَغْرِ تِطْوَانَ كَلَأَهُ اللّه.
وَكَانَ سَلَفُهُمْ الْأَوَّلُ بِالْأَنْدَلُسِ كَمَا فِي «الْعَرْفِ الْعَاطِرِ» لِلْعَلَّامَةِ الصَّالِحِ النَّسَّابَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ الطَّيِّبِ الْقَادِرِيِّ الْحَسَنِيِّ.

[55] «الحضرة» في الاصطلاح المغربي الأندلسي يقصد بها مقر السلطان، أو العاصمة باصطلاح اليوم.
[56] الثغر: المنفذ البحري، ومنفذ تطوان البحري هو مرسى مرتيل.

وَقَدْ عَلِمْتَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّهُ يُقَالُ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ الدَّرَّاجَ بِصِيغَةِ الْفَعَّالِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْمُبَالَغَةِ مُحَلَّاةٍ بِأَلْ ثُمَّ صَارَ يُقَالُ لَهُ الدَّرِّيجَ بِصِيغَةِ التَّصْغِيرِ[57] فِي الْأَلْقَابِ بَلْ وَالْأَسْمَاءِ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ. ثُمَّ اسْتَقَرَّ بَنُو الدَّرِّيجَ الْأَنْصَارِيُّونَ الَّذِينَ نَحْنُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ إِحْدَى قَوَاعِدِ الْجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُوسِيَّةِ [وَمِنْهَا] إِلَى مَدِينَةِ سَبْتَةَ مِنْ بَرِّ الْعُدْوَةِ أَعَادَهَا اللهُ لِلْإِسْلَامِ»[58].

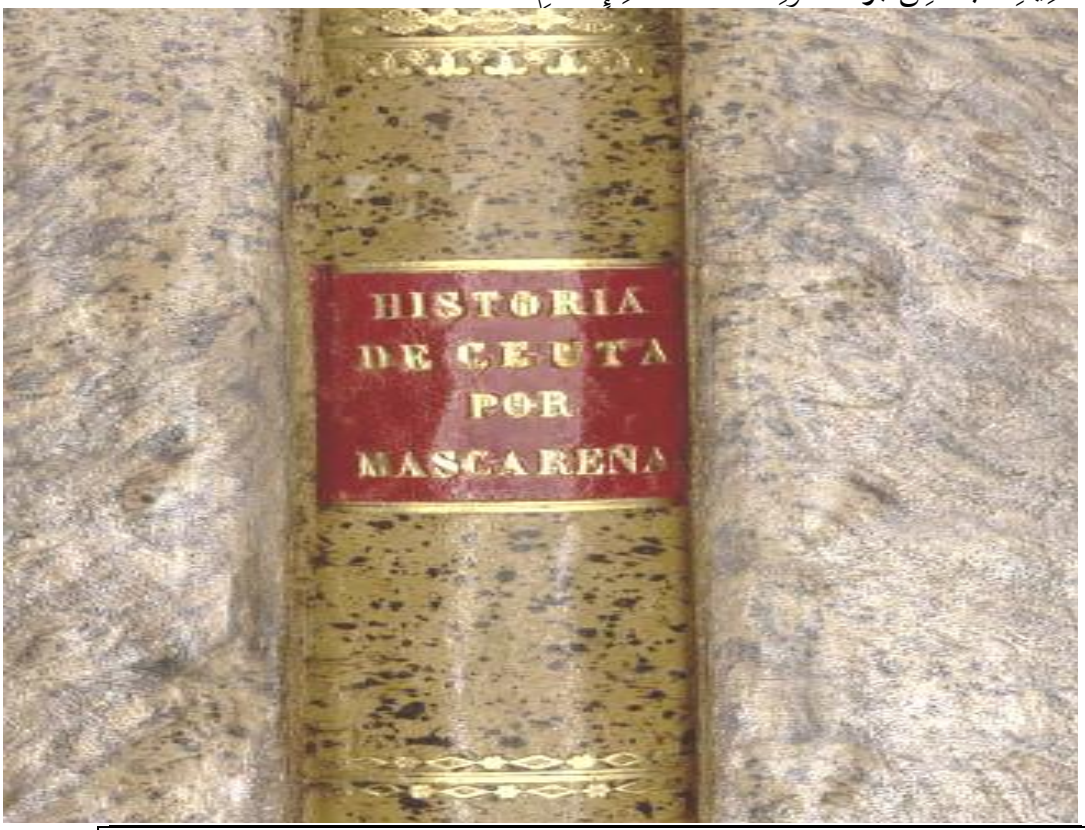

الكتاب المخطوط لخيرونيمو دي ماسكارينياس عن "تاريخ مدينة سبتة "(1671) حيث سجل فيه بطولات المجاهدين الأبرار في حروبهم لاسترجاع مدينة سبتة ، ومن بينهم سيدي طلحة الدريج.

Historia de la ciudad de Ceuta - Jerónimo de Mascareñas, Mascarenhas, Jeronimo (m. 1671)

[57] الدَّرِّيج .. ليس بالتصغير وإنما بالإمالة حيث تنقلب الألف ياء وهذا معروف في لهجة الأندلسيين.
[58] المسك الأريج، ص.1-3 (مخطوط)

ولقد كان «المسك الأريج» معروفا لدى المؤرخين المغاربة، قال عبد السّلام بن سُودَة في «دَلِيلُ مُؤَرِّخِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى»: فقال:

« «المسك الأريج في نسب أولاد الدريج»، لأبي الربيع سليمان بن محمد الحوات الحسني. تكلم فيه على نسب أولاد الدريج الموجودين بفاس وتطوان، وأنهم من الأنصار، استهله بقوله: «الحمد لله الذي جعل حب الأنصار من الإيمان». يقع في نحو الكراسة. يوجد عند الأخ الأستاذ محمد بن عبد الواحد الفاسي حفظه الله»[59].

كما تكلم الفقيه محمد المنوني – رحمه الله– على هذا التقييد في «المصادر العربية لتاريخ المغرب»، فذكر الآتي:

«وللحوات «تقييد في نسب أسرة الدريج بفاس وتطوان»، باسم: «المسك الأريج في نسب أولاد الدريج». رسالة وجيزة حقق فيها رجوع نسب هذه الأسرة إلى الأنصار الخزرجيين، وترجم لِجَدِّهِمْ أبي يعلى طلحة بن عبد الله الدريج دفين تطوان. لخّص منه المؤرخ محمد داود في «تاريخ تطوان» »[60].

ولم يكن هذا التقييد ليشذ عن نظر مؤرخ تطوان الكبير، الأستاذ محمد داود – رحمه الله–، فقد وقف على نسخة منه، ونقل عنه، واستفاد مما جاء فيه في كتابة ترجمة للشيخ طلحة الدريج، قال:

«الشيخ أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج الأندلسي السبتي التطواني، هو صاحب الضريح المشهور خارج باب النوادر في سفح الجبل عن يمين الذاهب من تطوان إلى مدشر سمسة. وهو جد عائلة الدريج بتطوان وفاس.

ثم قال:

«وقد تكلم العلامة الأديب أبو الربيع سيدي سليمان الحوات المتوفى بفاس سنة 1231هـ في تقييد له في أولاد الدريج على جدهم سيدي طلحة المذكور، ومنه نلخص المعلومات الآتية: ...»[61].

---

[59] ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص.71 رقم: 371 (ط. 2)

[60] المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج.2 ، ص.37 (رقم: 731)

[61] داود، تاريخ تطوان، ج.1 ، ص.77

ثم أدرج الفقيه محمد داود ملخصا[62] لِمَا كتبه الحوات عن سيدي طلحة الدريج في تقييده المذكور، وبعد ذلك أتى بفقرة إضافية نصّها:

«قُلتُ: وما تزال قبة الشيخ سيدي طلحة – رحمه الله– قائمة مشهورة، وبها ضريحه وهو محفوظ مصون مقصود للزيارة. وقد كانت ذريته قد انقرضت من تطوان إلا أن أفراد منها عادوا من فاس إلى هذه المدينة في أواسط هذا القرن وبعضهم يسكن قرب ضريحه مشتغلين بحرفة الخرازة، موصوفين بالخير والدين، مع مسكنة ومروءة وعبادة، وهم المتولون الآن لشؤون الضريح المذكور. وقد تكلمت على عائلة الدريج بتطوان وفاس بتوسّع وتحقيق في كتابي «عائلات تطوان» أعانني الله على إتمامه بمنه وكرمه»[63].

وكتاب «عائلات تطوان» المشار إليه لايزال مخطوطا، لم يطبع منه إلا الجزء الأوّل، وليس فيه تعريف بعائلة الدريج، ولكني لما قرأت الإحالة عليه أثناء البحث في هذا الموضوع كاتبتُ الأستاذة حسناء بنت محمد داود، بهدف الاطلاع على ما كتبه والدها – رحمة اللّه عليه– عن عائلة «الدريج»، فتفضّلت – حفظها الله ورعاها– بكرمها وأريحيتها المعهودة، وزوّدتني بما طلبت، وفيما يلي نصّ ذلك:

« الدريج : عائلة الدريج من أقدم عائلات تطوان، وقد وقفت على تقييد ألّفه فيها العَلّامَة الأديب نقيب الشرفاء بفاس سيدي سليمان الحوات، ومنه نقلت جُلّ المعلومات عن هذه العائلة، وملخص ذلك ما يلي: «يوجد أولاد الدريج بفاس وبتطوان، ونسبهم يرجع إلى وليّ الله الشيخ أبي يعلى طلحة بن عبد الله الدريج الأنصاري صاحب المزارة المشهورة، حيث ضريحه خارج باب النوادر من تطوان.

ورفع نسب أولاد الدريج إلى الشيخ المذكور ثابت في أصدقتهم، وهو من نسل قاضي سبتة العلامة الولي المحدث أبي عبد الله الدَّرَّاج الأنصاري، كما في تاريخ الشيخ محمد بن الطيب القادري، وقد صرح بأنصاريته محمد بن أبي بكر

---

[62] نفسه (ج.1 ، ص.77-79)

[63] داود، تاريخ تطوان، ج.1 ، ص.79

الحضرمي في كتابه «الكواكب الوقادة، فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والقادة»، وزاد القاضي عيسى بن حيون أن سيدي طلحة المذكور هو من ذرية أبي الوليد عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي، فبنو الدريج أنصاريون خزرجيون من ذرية القاضي أبي عبد الله الدراج السبتي دفين باب النوادر من ثغر تطوان، وقد صرّح بأنصاريتهم جماعة من كبار العلماء منهم المهدي الفاسي والعلامة المسناوي ومحمد بن الطيب القادري وعمر الفاسي والشيخ التاودي بن سودة وغيرهم. وكان سلفهم بالأندلس كما في «العرف العاطر» للشيخ عبد السلام بن الطيب القادري، ثم انتقلوا من غرناطة إلى سبتة، وفيها نشأ جدهم سيدي طلحة، ثم خرج منها إلى بعض المداشر من أعمالها، وبقي هناك إلى أن توفي ودفن به، «قال الشيخ سليمان الحوات: وذلك فيما أظن قبل اختطاط[64] القرية المسماة بتطاوين التي هي أقدم من مدينة تطاوين التي يقال لها تطاون وتطوان».

ولما توفي سيدي طلحة بقي أعقابه بزاويته من المدشر المذكور إلى أن صاروا في عداد البيوتات الأندلسية بتطوان، مع العلم والعمل، ثم انتقل منهم إلى فاس أواخر المائة الحادية عشرة الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد الدريج، ولا زال بها نفر من أولاده».

إلى أن قال:

«ثم إنّ الفرع الذي بقي بتطوان وكان بها في أوائل القرن الماضي قد انقرض بعد ذلك، ولا نعرف تاريخ انقراضه ولا أسماء آخر من عاش منه بتطوان. كما لا نعرف من أسماء رجاله أحدا ما عدا ما وقفت عليه في بعض الرسوم من أن محمد بن عبد الحق الدريج كان بتطوان عام 1171 والحاج المهدي بن قاسم بن عبد الحق المدعو الدريج كان من شيوخ النظر عام 1173 وعام 1182. ولا أدري هل هو من ذرية سيدي طلحة المذكور أم لا.

---

[64] يعني الاختطاط الغرناطي لمدينة تطوان حوالي عام 881هـ.

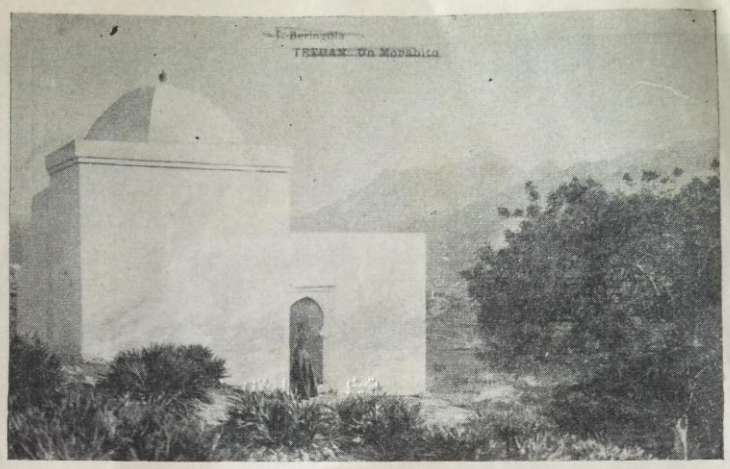

(رقم 14) ضريح الشيخ الصالح المجاهد ابى يعلى طلحة الدريج السبتى التطوانى، من رجال تطوان وصلحائها، وهو واقع خارج باب النوادر بتطوان، وسيدى طلحة، هو جد اولاد الدريج بتطوان وفاس ص 77

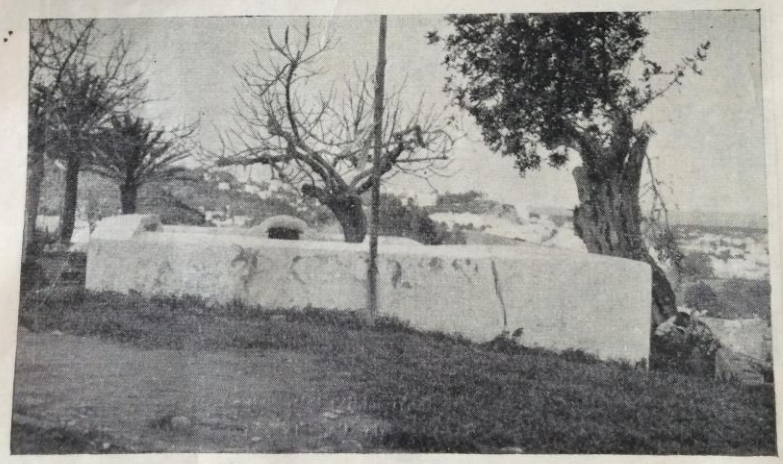

(رقم 15) حوش فى وسطه ضريح المجاهدالكبير ابى الحسن على المنظرى الاندلسى التطوانى، مجدد بناء تطوان وشيخها وحاكمها فى اواخر القرن التاسع للهجرة الموافقة لاواخر القرن الخامس عشر للميلاد وهو جد اولاد المنظرى بفاس وتطوان

صفحة من كتاب مؤرخ تطوان محمد داود ، "تاريخ تطوان" ، وبها صورتان قديمتان الأولى لضريح المجاهد سيدي طلحة الدريج بتطوان، والثانية لضريح المجاهد سيدي علي المنظري.حيث يتحدث في صفحة 78 وما بعدها في القسم الأول من

المجلد الأول ،(1959)،عن الضريح وصاحبه قائلا :"...إلى أن توفي رحمه الله ودفن بمتعبده في المجشر المذكور حيث روضته الان ...ولا زالت إلى اليوم هناك بقية من الرسوم الاولية وعين مائه (والتي تسمى حاليا عين سيدي طلحة) لم تزل في انهمار تسقى بها عرص اهل تطوان واجنتها التي بخارج باب النوادر ، حيث ضريح صاحب الترجمة رضي الله عنه ". ويستمر داود في الحديث مفصلا عن الأكابر والعلماء والاعلام الذين كانوا يزورون الضريح للتبرك بصاحبه سيدي طلحة الدريج ومنهم :"–أبو المحاسن يوسف الفاسي الفهري ، واخيه العلامة ابو زيد عبد الرحمن الفاسي الفهري وابو العباس احمد معن الاندلسي الذي كان يلتزم زيارته كلما زار ضريح القطب مولانا عبد السلام بن مشيش في كل سنة "...

"وكان الشيخ العلامة ابو الحسن على بركة الاندلسي التطواني ملتزما لزيارته في كل يوم خميس ويخرج اليه في كل مهم ويستسقي به ، وغيرهم ممن لا احصيه "...

ويضيف "وما تزال قبة الشيخ سيدي طلحة رحمه الله قائمة مشهورة وبها ضريحه محفوظ مصون مقصود للزيارة. وقد كانت ذريته قد انقرضت من تطوان إلا أن أفرادا منها عادوا من فاس الي هذه المدينة في اواسط هذا القرن وبعضهم يسكن قرب ضريحه...وقد تكلمت على عائلة الدريج بتطوان وفاس بتوسع وتحقيق في كتابي عائلات تطوان ...". انتهى كلام المؤرخ محمد داود.(صفحة 79).

الصفحة الأولى من كتاب أبو الربيع سليمان الحوات ، "المسك الأريج في أخبار أولاد الدريج" ، مخطوط ، أخبرنا الدكتور رشيد العفاقي بأنه على وشك الانتهاء من تحقيقه ونشره.

وكنت وقفتُ في رسم كتب بتطوان عام 1088 على رسم التاجر السيد سعيد ابن الفقيه البركة الحاج محمد الدريج التطاوني وأخيه السيد محمد المؤذن بجامع المصيمدي.

أما الفرع الذي انتقل إلى فاس في أواخر القرن الحادي عشر، فقد عاد إلى تطوان بعض رجاله في أواسط هذا القرن – الرابع عشر– حوالي عام 1348، والعائدون المذكورون ثلاثة أشخاص هم:

السيد مَحمد – فتحا– بن الحاج عبد السلام بن محمد بن عبد السلام بن الحاج عبد الرحمن بن عبد السلام بن محمد المنتقل من تطوان إلى فاس.
والسيد أحمد بن محمد بن محمد بن عبد السلام بن الحاج عبد الرحمن المذكور.
والحاج محمد بن مَحمد – فتحا– المذكور.
وقد أدلى السادة المذكورون بالحجج التي أثبتت اتصالهم بجدهم سيدي طلحة، فسلمت لهم النسبة المذكورة، وأسند إليهم أمر التصرف في ضريح جدهم المذكور والانتفاع بفتوحاته. وقد عين السيد مَحمد المذكور مقدما على الضريح المذكور، وسكن مع عائلته بجواره خارج باب النوادر، وما زال كذلك إلى تاريخنا هذا الذي هو سنة 1372».
إلى أن قال:
«وقد وقفتُ على أصول رسوم أثبتت، وفي كل واحد منها سلسلة، نسبهم إلى الشيخ سيدي طلحة. فمنها رسم زواج السيد محمد بن عبد السلام بن الحاج عبد الرحمن بابنة الشريف سيدي المهدي بن حدو الصقلي الحسيني بفاس عام 1219، ومنها رسم تزويج ابنة السيد علال بن عبد السلام بن الحاج عبد الرحمن للسيد عبد الكبير بن محمد بن الحاج الحسن الرندي الأندلسي بفاس عام 1249.
ومنها رسم زواج الشاب الحاج عبد السلام بن محمد بن عبد السلام ابن الحاج عبد الرحمن بسيدة من ذرية الشيخ سيدي أحمد بن محمد بن عبد الله مَعَن بفاس عام 1299.
ومنها رسم زواج الحاج عبد السلام المذكور بالسيدة البتول ابنة الفقيه أبي مدين بن عبد النبي بن المجذوب بن عبد الحفيظ الفاسي الفهري بفاس عام 1302.
كما وقفت على أصل رسالة كتبها السلطان مولاي الحسن بالتوصية ببعض أفراد من هذه العائلة في أواخر القرن الماضي، وهذا نصها:
«الحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد و آله
(الحسن بن محمد الله وليه ومولاه)
وصيفنا الأرضى القائد الجيلاني بن حَمُّ، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فحملته المرابط الحاج عبد السلام الدريج وأخواه السيد محمد والمفضل،

ينتسبون لولي الله سيدي طلحة الدريج الأنصاري، صاحب الضريح المشهور خارج تطوان، وذكروا أن ظهائر أسلافنا قدسهم الله بتحريرهم وتوقيرهم كانت عندهم وضاعت، فنأمرك أن تستوصي بهم خيرا، وتكف عنهم الأيدي العادية مراعاة لانتسابهم للولي المذكور، وإذا قرأت كتابنا هذا فادفعه لهم ليتمسكوا به والسلام، في 3 رجب الفرد عام 1291»[65].

ويتفق الذين تحدثوا عن أسرة الدريج على أنّها أسرة تطوانية تنتمي إلى الأنصار، وأنها من أصل أندلسي، انتقلت أولا إلى بَرّ العُدوة لتتّخذ من سبتة سُكْنى لها، وأن سلسلة نسبهم تتصل بجدهم الأعلى: الشيخ أبي يعلى طلحة بن عبد الله الدريج، السبتي النشأة، دفين تطوان، وصاحب الضريح المشهور بها (كان حَيًّا عام 832هـ).

غير أن الذين تحدثوا عن هذه الأسرة يذكرون أن الشيخ سيدي طلحة هو من نسل قاضي سبتة وخطيبها العلامة المحدث ولي الله أبي محمد عبد الله الدراج الأنصاري دون تحديد علاقة هذه القرابة إن كان طلحة ينزل فيها ابنا للمذكور أو حفيدا من أحفاده.

وقد اجتهد الحوات في تفسير التحول الذي حدث في اللقب وانتقاله من صيغة الدراج إلى الدريج، فهو يعتقد أن صيغة لقب العائلة «الدريج» هي تصغير لـ «الدراج».

ونحن نرى أن هذا غير صحيح، فالشائع على ألسنة الناس إلى اليوم هو اسم: الدَّرِّيج، وهذا بالإمالة وليس بالتصغير، وهي انقلاب الألف ياء في بعض الكلمات، والإمالة من خصائص اللهجة الأندلسية الغرناطية.

يتبيّن مما سبق أن الولاية والصلاح كانتا الميزة التي عرفت بها أسرة الدريج وهي لا تزال في سبتة مع قاضي سبتة الشيخ عبد الله الدريج الذي نُعِتَ بالصلاح؛ ثم استمرت معها تلك النعوت الجليلة حين استقرارها بضاحية تطوان مع الشيخ سيدي طلحة الذي جمع بين الولاية والصلاح والعلم والجهاد. وقد تسلسلت بعض هذه الصفات في عقبه المستقر بكل من حاضرتيْ تطوان وفاس كما يظهر

[65] محمد داود، عائلات تطوان. (كتاب مخطوط).

ذلك جليا في تراجم أبنائها المبثوتة في كتاب «عائلات تطوان» للفقيه محمد داود، وفي كتاب: «زهر الآس في بيوتات أهل فاس»، للنسّابة عبد الكبير بن هاشم الكتاني.

ولفضل هذه الأسرة، وجلالة موقعها العلمي والاجتماعي، ألّف الشيخ سليمان الحوات تقييده الشهير في بني الدريج، اعترافا لما أحرزوا عليه من «جلالة المنصب، علما وولاية، بكل من عدوتيْ المغرب والأندلس إذ لهم فيها الزوايا الواسعة الحرمة، والمزارات التي تنكشف عندها عن الزائر الغُمّة».

فأصل هذه الأسرة كما ألمعنا قبل قليل، من الأندلس، وبالضبط من غرناطة. نزحت إلى سبتة من بَرِّ العُدوة المغربية لتستقر بها إلى حين. وقد ظل انتماؤها الأندلسي ثابتا يُذكر في أنساب المتأخرين من أبنائها، بل إن أسرة الدريج بعد تشييد مدينة تطوان، ستصبح ضمن الأسر الأندلسية الشهيرة بها، فتحتل بذلك، وبما ورثته من علم وولاية، مركزا مهما في بيئة تطوان الاجتماعية، وبين أسرها، «فصاروا في عداد البيوتات الأندلسية بتطوان المحروسة، ومن أهل الحرمة التي أبقاها السلف للخلف، مع التخلق بالعلم والعمل، والتعلق بعوامل الحسب والنسب»[66].

[66] الحوات، المسك الأريج، ص.10 (مخطوط).

• جِهاد سيدي طلحة الدريج:

احْتُلّت مدينة سبتة عام 818هـ/1415م، والذي يظهر أنّ عائلة سيدي طلحة الدريج عندما خرجت من سبتة، كَرْهًا لا طَوْعًا، بعد احتلالها من قبل البرتغاليين، استوطنت أرض قبيلة أنجرة، فهذه القبيلة لاتزال حتى الآن تقطنها العديد من الأسر الأنصارية.

ويتبين من بعض النصوص التاريخية أن لواء الجهاد لتحرير سبتة من الاستعمار البرتغالي، ستحمله عائلتان أنصاريتان بأنجرة وهما: عائلة الدريج وعائلة الشاط، فالنصوص البرتغالية تشير إلى الْمُجاهِدَيْن: أبي علي الحسن الشاط، وأبي يعلى سيدي طلحة الدريج.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّه لازال أهل أنجرة إلى اليوم يقيمون لسيدي طلحة الدريج موسما بمدشر البرج بقبيلة أنجرة، وفي هذا الدشار (أي دشار البرج) يُوجد موضع بين أشجار الزيتون الباسقة يُعرف باسم: «خلوة سيدي طلحة». حفظت له الذاكرة الجماعية هذا الأثر في هذه القبيلة، تِذْكَارًا لمواقفه البطولية، ولأنّ أهل أنجرة كانوا دعامة جيشه المجاهد لاسترجاع مدينة سبتة من براثن المحتلين البرتغاليين خلال أعوام 1427م – 1430م.

لقد وقعت فاجعة سبتة يوم الأربعاء 14 جمادى الثانية من عام 818هـ/ الموافق ليوم 21 غشت 1415م، ويُنعَت هذا الحدث في تاريخ المغرب بـ«يوم الكارثة»، حيث تعرَّض سكان سبتة لمذبحة رهيبة على يد الصَّليبيين الغزاة، بعد أن قاوموا بشراسة إلا أنّ الغلبة كانت للغُزاة، وقد تَمَّ احتِلالُها من طرف البرتغال أيام السلطان أبي سعيد المريني.

خرج سيدي طلحة الدريج – كَرْهًا لا طَوْعًا– من مدينة سبتة، فاستقر أولا بمدينة تطوان، ومالبث سيدي طلحة الدريج أن تزعم الجهاد على المحتلين البرتغاليين لمدينة سبتة بداية من عام 1427م.

وقد تَنَقّل المجاهد سيدي طلحة الدريج ما بين تطوان وقبيلة أنجرة، وظهر على رأس كتيبة للمجاهدين سنة 1427م/831هـ، وكان هؤلاء أغلبهم من اللاجئين السبتيين الذين آووا إلى أنجرة بعد سقوط سبتة. ويخبرنا الفقيه أحمد الرهوني في كتابه «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين» أنّ سيدي طلحة الدريج لما هاجر من

سبتة بَنَى قرية بجوار تطاون وعَمَّرَهَا بالعلم والجهاد[67].
وتتحدث المدَوّنات البرتغالية التي كُتبت في القرن 15م عن محطات مُشرقة لهذا المجاهد في الدفاع عن حوزة الوطن والحفاظ على الهوية الدينية الإسلامية للمغاربة في مواجهة الغزو الصليبي البرتغالي، ومن أبرز هؤلاء المؤرخين: إنايس دي أزورارا (E. de Azurara) وراي دي بينا (Ruy de Pina) اللذين أوردوا أخبار أزيد من 12 حملة قادها سيدي طلحة الدريج الأنصاري في محاربة البرتغاليين ومحاصرتهم بسبتة. وفيما يلي صورة من فقرة تتحدث عن جهاد سيدي طلحة الدريج مُقتطفة من مُدوّنة الإخباري البرتغالي راي دي بينا (Ruy de Pina) حيث يُذكر هناك باسم: (Cide Talpa)[68]:

[67] الرهوني، عمدة الراوين، ج.1 ، ص.172.
[68] ونحن الآن بصدد ترجمة هذه النصوص إلى العربية لكي تُدرج في الدراسة التي تتقدم كتاب «المسك الأريج» الذي انتهينا من تحقيقه، وسنعمل على طبعه قريبا إن شاء الله.

حول البرتغال ، بعد احتلال سبتة ، الجامع الأعظم إلى كنيسة والتي شيدت عليها كتدرائية المدينة حاليا ،في سياق تغيير بل ومحو معالمها العربية الإسلامية،والقضاء على أهلها المغاربة أو تهجيرهم، فعملوا على استفزاز المسلمين في سبتة – ثم فيما بعد في باقي المدن التي سيحتلونها – بالإغراق في الفساد وهتك الحرمات والمس بالمقدسات الدينية، مما سيؤدي إلى تبني المقاومة.

36 CHRONICA

todo o que ſoubeſſe, e a mim falouho em ſegredo, e iſto he que o velho que ſtava em Cepta per Capitaõ he partido pera o ſeu Regno donde he natural, porque parece que vay fallar ao ſeu Rey, que ſegundo me eſte dixe quer leixar aquella Cidade aaquelle ſeu filho que alli tem conſigo, ca ſe ſente jà fraco, e querſe jr pera ſua terra; porque parece que elle tem grande ſperança naqueſte filho, que ha de ſer grande Capitaõ, porque o vio arguhoſo contra nós outros, e porque eu ſey que ſe nom ha de ter aquelle aviſamento na Cidade, que o velho tinha, quero que vamos la hum deſles, e que nom curemos de gente de pee per nos nom empachармos com ella, e o mancebo como nos hi ſentir, logo he fora com vinte ou trinta de cavallo, que hi tem, penſando que tudo he o feito da deſaventura de Cide Talpa, que ſe quis fiar em ſua força, e nom ſe quis reger como devia, e ganhou o que ouviſtes. E de feito ſegundo a mi parece nos nom podemos ſair ſe nom bem, pois ſabemos que os de cavallo nom paſſaõ de xxx, e que nom ha hi Capitaõ que os ſaiba reger. Certo he que o mancebo como nos hi ſentir logo he fora, ca como tem o ſangue novo e eſtaa poſto em alteraçom pollos boõs aquecimentos que houve, parecerlheha que lhe tras Deos aa maõ couſa per que fallem delle per toda a ſua terra, e ſegundo vos ſoes homens ſpeciaes, e que haveis de dar conta de voos, e que nom

أمّا التقاييد التاريخية المحلية المغربية فإنها لم تحتفظ لنا من أخبار جهاد سيدي طلحة الدريج إلا بفقرات موجزة مقتضبة، من ذلك ما نجده عند محمد بن أحمد

الشراط نقلا عن بعض الكنانيش القديمة، قال:
«يقول صاحب الكناشة: إنّه في سنة 830هـ تزعّم الرباط على سبتة الولي الصالح الشريف البركة سيدي طلحة الدريج صاحب الضريح المشهور بتطاون، ويقول إن هذا الرباط ابتدأ في شهر ربيع الأوّل من سنة 830هـ، وكان عدد المرابطين يفوق الأربع مائة رجل، ويقول إنّ أهم العمليات التي قام بها سيدي طلحة كان الهجوم الذي قام به ضد المدينة في شهر ذو القعدة سنة 831هـ، وآخر وقع في شهر شوال سنة 832هـ»[69].
ورُجوعًا إلى سليمان الحوات الشفشاوني، فهو أوّل من أفرد لجهاد سيدي طلحة الدريج فقرات مُطوّلة، وذلك عند حديثه عن أولاد الدريج وأصولهم، يقول:
«وَمِنْهَا (أي من سبتة) خَرَجَ جَدُّهُمْ الْوَلِيُّ الشَّهِيرُ أَبُو يَعْلَى طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ الله الدَّرِّيج السَّابِقِ الذِّكْرِ إِلَى بَعْضِ الْمَجَاشِرِ مِنْ أَعْمَالِهَا إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَدُفِنَ فِيهِ.
وَلَمَّا تُوُفِّيَ الشَّيْخُ الْوَلِيُّ أَبُو يَعْلَى طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الله الدَّرِّيج بَقِيَ أَعْقَابُهُ بِزَاوِيَتِهِ مِنَ الْمَجْشَرِ الَّذِي كَانَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ سَبْتَةَ إِلَى أَنْ دَخَلَ فِي رَسْمِ الِاخْتِطَاطِ الْأَوَّلِ وَصَارَ حَدًّا مَانِعًا فِي الْبِنَاءِ الثَّانِي فَصَارُوا فِي عِدَادِ الْبُيُوتَاتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ بِتِطْوَانَ الْمَحْرُوسَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْحُرْمَةِ الَّتِي أَبْقَاهَا السَّلَفُ لِلْخَلَفِ مَعَ التَّخَلُّقِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالتَّعَلُّقِ بِعَوَامِلِ الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ. ثُمَّ بِالشَّيْخِ أَبِي يَعْلَى طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الله الدَّرِّيج السَّابِقِ أَيْضًا وَكَانَ جَبَلًا رَاسِخًا فِي الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَقْطُوعًا بِوِلَايَتِهِ مَشْهُورًا بِالزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَالسُّلُوكِ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ، دَائِمَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ كَثِيرَ التَّهَجُّدِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، مُلَازِمَ الرِّبَاطِ لِلْجِهَادِ فِي الثُّغُورِ، مَقْصُودًا لِلزِّيَارَةِ فِي مُهِمَّاتِ الْأُمُورِ آمِرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ نَاشِرًا لِلشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ بِكُلِّ مَحْضَرٍ، تَخَافُ صَوْلَتَهُ فِي الْحَقِّ مُلُوكُ الْعُدْوَتَيْنِ[70] وَتَرْجِعُ إِلَى رَأْيِهِ فِيمَا يَعْرُو بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ وَتُقَدِّمُهُ أَمَامَهَا لِقِتَالِ الْكُفَّارِ تَيَمُّنًا بِطَلْعَتِهِ فِي طَلَبِ الِانْتِصَارِ فَيَحْمَدُونَ حَرَكَتَهُ وَيَجِدُونَ بَرَكَتَهُ. كَانَ آبَاؤُهُ بِغَرْنَاطَةَ ثُمَّ أَوْطَنَ بَعْضُهُمْ سَبْتَةَ كَمَا سَبَقَ وَهَا نَشَأَ صَاحِبَ التَّرْجَمَةِ رَضِيَ الله عَنْهُ، ثُمَّ لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَانْتَشَرَ سِرُّهُ وَاعْتَقَدَهُ النَّاسُ بِكُلِّ فَاضِلَةٍ

---

[69] ابن عزوز، لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية؟، ج.1 ، ص.30-31
[70] العدوتين : المغرب والأندلس.

وَفَضِيلَةٍ وَانْحَشَرُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَقَبِيلَةٍ لَمَّا شَهِدُوا مِنْ كَمَالِ عِنَايَتِهِ وَعَايَنُوا مِنْ ظَاهِرِ كَرَامَتِهِ.
وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوِيًّا شَهْمًا كميّاً قرْناً طَوِيلَ الْقَامَةِ أَسْمَرَ اللَّوْنِ يَلْبَسُ جُبَّةً خَضْرَاءَ لَهُ فَرَسٌ يَرْكَبُهُ لِلْجِهَادِ وَيَقْتَحِمُ بِهِ أَعْدَاءَ اللهِ فِي كُلِّ وَادٍ، تَخَلَّقَ أَهْلُ الْمَنْزِلِ بِأَخْلَاقِهِ مِنَ النَّجْدَةِ وَالْبَأْسِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ لِإِرْهَابِ عَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّهِمْ فَكَانُوا يَرْكَبُونَ مَعَهُ فِي خَمْسِينَ فَارِسًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي الْحَرْبِ، أَسَدٌ هَصُورٌ»[71].

بقي في الأخير أن أشير إلى أنّ الشيخ سيدي طلحة الدريج مدحه بعض الشعراء منهم الشيخ الأديب محمد بوخبزة التطواني الذي نظم فيه قصيدة من 18 بيتا، أوّلها (منقولة من كناشته):

طَأْطِئ خضوعا فهذا الطود والعلم ... واسمع فقدره في الأحلام مرتسم
مثوى به أسد الأشراف مضطجع ... فاخلع مداسك هذا الرمس والحرم
انظر إلى القُبّة البيضاء والعَلَم ... إذا رهبا بالآيات يعتصم
ألست تعرف هذا الفحل من خدمت ... في شأنه اليد والأفكار والقلم
هذا الذي طلّق الدنيا بِهِمّة ... وحارب الخلق والأغرار إذ ظلموا
هذا الذي احترف التقوى إذ اندرست ... معالم الدين فانقادت لها الهمم

[71] الحوات، المسك الأريج، ص.12-13 (مخطوط).

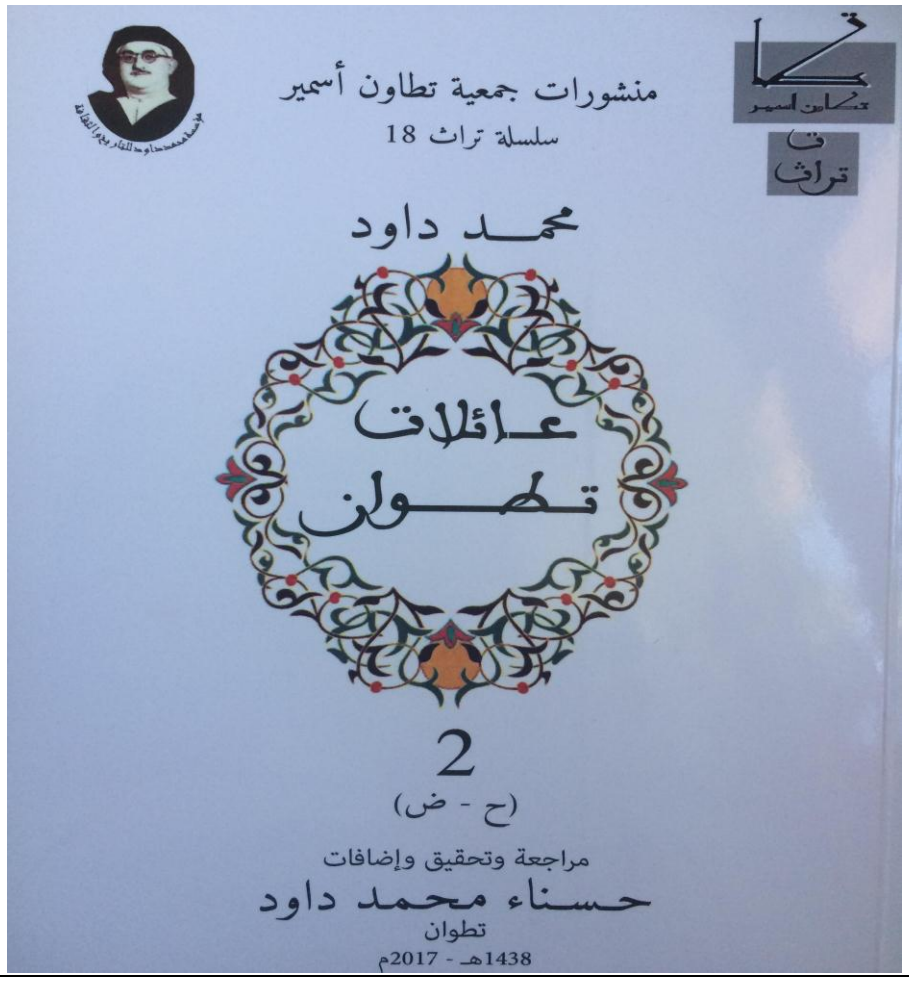

كتاب مؤرخ تطوان محمد داود، "عائلات تطوان"، الجزء الثاني، مراجعة وتحقيق وإضافات حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث 18، 2017م. وقد خص فيه المؤلف ،المجاهد سيدي طلحة الدريج وذريته من أسرة الدريج السبتية /التطوانية/الفاسية ، عناوين كاملة بحقائق هامة وتواريخ دقيقة وقد كان داود قد زار أوائل الخمسينات من القرن الماضي ، أفرادا من آل الدريج بمقر سكناهم قرب ضريح جدهم سيدي طلحة خارج باب النوادر بحي سيدي طلحة بتطوان

وزودوه بالوثائق الضرورية للتأريخ لأسرتهم ، رحمهم الله جميعا.(انظر الصفحات من 149 إلى 153). وقد وقف محمد داود من بين تلك الوثائق على أصل، الرسالة/الظهير الشريف الذي اصدره السلطان العلوي مولاي الحسن الاول، قدس الله روحه، تكريما وتشريفا لهذه الأسرة الكريمة و بالتوصية ببعض أفراد من هذه العائلة منذ عام 1291هـ، وهذا نصه كما في الأصل الذي في حوزة عائلة الدريج و كما أورده كذلك محمد داود في صفحة 152 من الجزء الثاني من كتابه"عائلات تطوان":"

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد و ءاله

(ثم الطابع السلطاني الصغير ونقشه :

﴿الحسن بن محمد الله وليه ومولاه﴾

وصيفنا الأرض القائد الجيلاني بن حَمُّ، وفقه الله وسلام عليه ورحمة الله وبعد، فحملته المرابط الحاج عبد السلام الدريج وأخواه السيد محمد والمفضل، ينتسبون لولي الله سيدي طلحة الدريج الأنصاري صاحب الضريح المشهور خارج تطوان، وذكروا أن ظهائر أسلافنا قدسهم الله بتحريرهم وتوقيرهم كانت عندهم وضاعت، فنأمرك أن تستوصي بهم خيرا، وتكف عنهم الأيدي العادية مراعاة لانتسابهم للولي المذكور، وإذا قرأت كتابنا هذا فادفعه لهم ليتمسكوا به والسلام، في 3 رجب الفرد عام 1291».

حوز سبتة ومساهمته في مقاومة الاحتلال البرتغالي

أ.د. عبد السلام الجعماطي*

مسألة التاريخ لأحواز سبتة:

تفطن ابن خلدون إلى ميول المؤرخين نحو تاريخ الحواضر والأمصار، وهو أمر طبيعي إذا ما قيس بمنظور العُمْران البَشَري، وما يرتبط به من مُلْك وجُنْد وحاشية وأتباع، وما يلزم إقامة ذلك من تجارة وصنائع وثروات ومبان وخُطط؛ وهذه أمور لا بد أن تترتب عنها أخبار يحرص أهل التاريخ على تدوينها، إما بإيعاز من السلاطين وأهل الجاه والنفوذ أنفسهم، أو بمبادرة من المؤرخين ذواتهم تقرّبا إلى أولئك، وجلبا للمنفعة التي قد تتحصّل بواسطة ذلك؛ وقد حاول ابن خلدون في عمله الموسوعي الموسوم بكتاب "العبر" استدراك هذه الثغرة، فعمل على الالتزام بجعل تاريخه "مشتملا على أخبار العرب والبربر، من أهل المدن والوبر، والإلماع بمن عاصرهم من الدول الكبر، وأفصح بالذكرى والعبر، في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر"[72]. وعلى الرغم من هذا المجهود الجسيم الذي بذله العلامة ابن خلدون، إلا أن نظرة فاحصة على أعمال معظم المؤرخين تخلص بنا إلى انطباع سلبي يتمثل في إهمال معظمهم لتواريخ البوادي والقفار؛ فلم تحظ إلا بقدر يسير

*أستاذ باحث في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة طنجة ـ تطوان ـ الحسيمة، وأستاذ زائر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، جامعة عبد المالك السعدي.

[72] ـ **مقدمة ابن خلدون**: 1/284-287.

من التدوين التاريخي، وكان النصيب الأوفر في هذا الصدد لكتب المسالك والممالك والمعاجم الجغرافية، فضلا عن إشارات وإفادات شاردة وردت في مصنفات الطبقات والتصوف.

إن هذه الملاحظة تنطبق على كثير من البوادي والأحواز التي لم تحظ بقسط وافر من اهتمام المؤرخين، على الرغم من كونها قريبة من مسرح شهد أحداثا تاريخية جسيمة، مثل ما ينطبق على أحواز مدينة سبتة خلال العصر الإسلامي؛ فإذا كانت كل من بنيونش وقرية وادي أويات قد حظيتا ببعض الإشارات من قبل أهل التاريخ، وخاصة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، فإن مناطق أخرى تدخل ضمن أحواز سبتة ظلت خارج دائرة الاهتمام الذي أولاه مؤرخو سبتة وجغرافيوها ورحّالوها، وفي طليعتهم؛ الشريف الإدريسي صاحب ''*نزهة المشتاق*''، و''*أنس المهج*'' والحميري مؤلف ''*الروض المعطار*''، والتجيبي صاحب ''*مستفاد الرحلة*'' والقشتالي مصنِّف ''*تحفة المغترب*''، والأنصاري صاحب'' *اختصار الأخبار*''، والحضرمي صاحب''*الكواكب الوقّادة*''، وسليمان الحوات مصنف "*المسك الأريج*"، والفقيه الشرّاط مؤلف ''*كشف الحجاب*''؛ غير أن بعض الجغرافيين العرب قد شذوا عن هذه القاعدة؛ وفي طليعتهم البكري الذي ترك وصفاً مهماً للأحواز الواقعة ما بين مدينة سبتة وحاضرة تطوان، وأبو العباس العزفي الذي أورد عرَضا بعض المعطيات الجغرافية عن موضع متنان، وهي ''قرية بخارج سبتة[73]''، وسليمان الحوات الذي يشير إلى أحد المجاشر من أحواز سبتة المسمى "خندق الفرجة"[74]، كما أشار ابن الخطيب وزير غرناطة إلى وادي الزرجون في إحدى رواياته عن بعض أعلام سبتة[75]. بيد أن جلّ هذه الإشارات لا تغني الباحث عن الاستزادة من المعطيات المصدرية عن أحواز سبتة، استنادا إلى الحوليات الأجنبية، خاصة البرتغالية، فضلا عن الدراسات التاريخية والطوبونيمية الحديثة. كما أثبتت العديد من التحريات الميدانية التي أجرينا بالمنطقة موضوع هذه المداخلة، أن الذاكرة الشعبية والرواية

[73] - **دعامة اليقين**: 40، 43.
[74] - **المسك الأريج**: 13و.
[75] - **الإحاطة**: 250/3.

الشفهية المتداولة بين الأهالي لها الكثير من الأهمية في تغطية الفراغ الحاصل في المصادر النصية، والتنقيبات الأركيولوجية.

إن هذه التوطئة تنشد تقديم نصوص وإشارات تتكامل في إلقاء مزيد من الأضواء على حوز سبتة الجنوبي، مع التنبيه على أن هذا التحديد الجغرافي لا يتطابق تمام التطابق مع المجال الجغرافي لقبيلة الحوز الحالية، كما لا يُضمِر أي تحيز أو ''تعصب'' قبلي، يقصي باقي القبائل المتاخمة لحاضرة سبتة السليبة، في تاريخنا الجهادي الحافل ضد الاحتلال الإيبيري، الذي سالت خلاله دماء شهداء هذا الوطن من أقصاه إلى أقصاه. وإنما المبَرِّر لحصر الموضوع في مقاومة قبيلة الحوز لهذا الاحتلال، هو اختيار منهجي يتماشى مع طبيعة الندوة التي نشارك فيها، وما يشتمل عليه برنامجها من مداخلات تحاول كل واحدة منها أن تقارب جانبا محددا في الزمان والمكان، وما تقتضيه هذه المقاربات في مجموعها من تسليط الضوء على زوايا متعددة ومتكاملة، حول موضوع الندوة.

أصل تسمية الحوز:

يطلق لفظ الحوز على الناحية أو محيط المدينة، تعتبر تسمية الحوز لفظة عربية فصيحة، ففي لغة العرب ''الحوز: وجمعه أحواز، يطلق على الأرض التي يقام حولها حاجز، ويقصد بهذه الكلمة كذلك ما يحيط بالدار من مرافق ومنافع، فيرسم حدودها[76]''. وفي ''تاج العروس'' : ''الحوز'': الموضع يحوزه الرجل تتخذ حواليه مسنّاة، والجمع الأحواز''، و''الحوزة: الناحية، يقال فلان مانع حوزته، لما في حيّزه. والحوزة فعلة منه، سميت بها الناحية، وفي الحديث: "فحمى حوزة الإسلام"، أي حدوده ونواحيه''[77].

ويمكن أن نستحضر كلا المعنيين في لفظة حوز سبتة، من منطلق جغرافي وحضاري، فالمدينة العربية الإسلامية في العصور الوسطى على وجه العموم، لم تكن بمعزل عن محيطها وأحوازها القريبة، بخلاف المدينة الفيودالية الأوروبية خلال نفس العصور، حيث كانت أسوارها سدا منيعا يحول بينها وبين الاتصال

[76] - **لسان العرب: 268/4.**
[77] - **تاج العروس**: 120/15-121.

بمحيطها الذي يعد مصدرا للخوف وموطنا للأعداء، فحوز سبتة على هذا النحو كان امتدادا طبيعيا للمدينة، وموردا للمواد الفلاحية والأيدي العاملة، وطلاب العلم، وسوقا لتصريف الإنتاج الحرفي لورشاتها النشيطة. فلا غرو أن سبتة شكلت مقصدا للعديد من رجالات العلم الذين تشتمل المصادر التاريخية على تراجمهم، فمن بين سكان حوزها الجنوبي تحديدا، نقف على ترجمتي عالمين جليلين هما أبو الحسن علي ابن وشاش المحكسي الأصل، نزيل سبتة، ودفين مقبرة الميناء منها[78]، وأبو يوسف يعقوب القصري المحكسي (ت. 712هـ)، الذي "قدم سبتة، وأقرأ بمسجد القفّال منها، وكان فصيح اللسان، حسن الإلقاء والتعليم، وكانت العامة تجلّه وتعظّمه، وتتبرّك بصالح دعائه"[79].

قبيلة الحوز : موقعها الجغرافي

تنتمي قبيلة الحوز إلى مجموعة قبائل جبالة، تحيط بها شمالا قبيلة أنجرة، وغربا قبيلة واد راس، إضافة إلى قسم من قبيلة أنجرة، ومن الجنوب مدينة تطوان وقبيلة بني حزمار، ومن الشرق تحد قبيلة الحوز بساحل البحر المتوسط، ويمتد المجال الجغرافي لقبيلة الحوز على مساحة 410 كلم2، وتعتبر جزءا من السلسلة الكلسية الممتدة من مضيق جبل طارق إلى حدود بلدة الشرافات، في قبيلة الأخماس التابعة لإقليم شفشاون . وتنقسم قبيلة الحور إلى فرقتين، هما:

1. الحوز الصديني: ويشتمل هلى المداشر الآتية: سمسة، اللوزيين، الدشريين، صدينة، بني عمران، الجعابق، الرواوس، اعجيبش، العلاوية، فندلاوة، أكلا، واد أكلا، تارانت.

2. الحوز البحري: ويضم المداشر الآتية: القلالين، بني سالم، الملاليين، أسرور، واد الليل، العنصر، بلوازن، بيين، الكوف، واد الزرجون، جبل زمزم، بوجميل، أكنان، عين اللين، الكدانة .

"مجكسة"، هل هي قبيلة الحوز؟

تذكر المصادر اسم **مجكسة** بوصفها قبيلة بربرية كانت تقطن قديما بالمنطقة

---

[78] - **تواريخ السبتيين**: 129.

[79] - **نفسه**: 144-145.

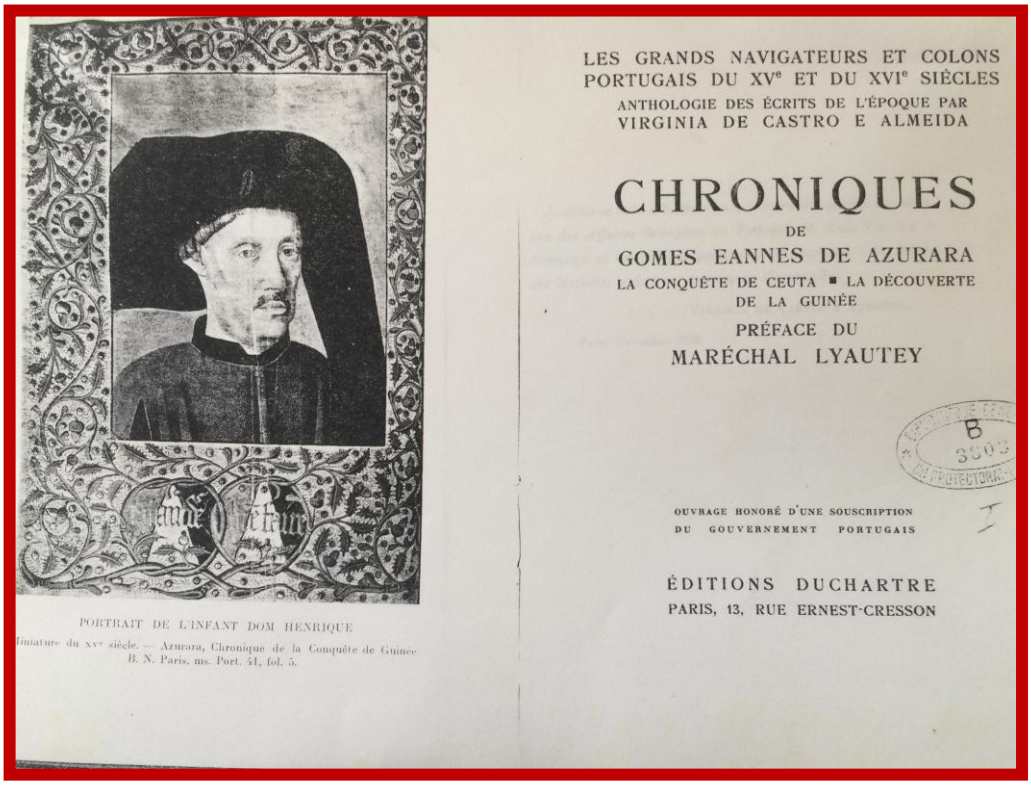

PORTRAIT DE L'INFANT DOM HENRIQUE
Miniature du XVe siècle. — Azurara, Chronique de la Conquête de Guinée
B. N. Paris, ms. Port. 41, fol. 5.

LES GRANDS NAVIGATEURS ET COLONS
PORTUGAIS DU XVe ET DU XVIe SIÈCLES
ANTHOLOGIE DES ÉCRITS DE L'ÉPOQUE PAR
VIRGINIA DE CASTRO E ALMEIDA

CHRONIQUES
DE
GOMES EANNES DE AZURARA
LA CONQUÊTE DE CEUTA ■ LA DÉCOUVERTE
DE LA GUINÉE
PRÉFACE DU
MARÉCHAL LYAUTEY

B
3503

OUVRAGE HONORÉ D'UNE SOUSCRIPTION
DU GOUVERNEMENT PORTUGAIS

ÉDITIONS DUCHARTRE
PARIS, 13, RUE ERNEST-CRESSON

الترجمة الفرنسية لكتاب الإخباري البرتغالي الشهير زورارا (أو أزورارا ، حسب بعض المصادر) "الحوليات"،في ثلاثة مجلدات و الذي ألفه ما بين سنوات 1450 و1468م، في بلاط الملك البرتغالي ألفونص الخامس، وقدم فيها مادة تاريخية غنية اعتمدها الكثير من المؤرخين الأجانب والمغاربة وغطت الاحداث التي عاصرها و المتعلقة بموضوعنا ما بين سنة 1415و 1464 م ومنها احتلال مدينة سبتة وغيرها ورد فعل المجاهدين وبطولاتهم لطرد الاحتلال والدفاع عن استقلال المغرب ومن بينهم المجاهد سيدي طلحة الدريج السبتي، والذي خصه بصفحات كاملة . وقدم لهذه الترجمة المارشال اليوطي أول مقيم عام لفرنسا وللاستعمار الفرنسي بالمغرب.

الواقعة بين سبتة وتيطاون، فهل هي القبيلة التي تسمى حاليا قبيلة الحوز؟ علما أن هذا الاسم قديم كذلك، ذكره المؤرخون بصيغة "حوز سبتة" أو "ريف سبتة"؛ ويسمي البكري وادي راسن قرب تطوان بواد **مجكسة**، ثم يعود ليضيف معطى إضافيا عن مضارب هذه القبيلة، فيذكر أن سوق بني مغراوت هو آخر بلد **مجكسة**[80].

ولحسن الحظ أننا نتوفر على ثلاث روايات تاريخية عن أصل هذه القبيلة، ومصدر اشتقاق اسمها، وهي روايات لإخباريين مشهورين ومتباعدين زمنيا؛ وجميعهم ينسبون قبيلة **مجكسة** إلى رجل من غمارة يسمى **ماجكس**، من رجالاتهم ووجوه قبائلهم، وكان مشركا، فعمّر سبتة، وأسلم ورأس فيها، ثم وليها بعد هلاكه ابنه عصام، ثم ابن ابنه مجبّر بن عصام، ثم الرضَى (أو الرضي) بن عصام، بعد موت أخيه مجبّر، وفي عهده دخل سبتة عامل الأمويين فرج (أو نجاح) بن عفير سنة 319هـ[81].

ويبدو أنّ قبيلة مجكسة ظلت تعرف بهذا الاسم حتى القرن الثامن للهجرة، ويشهد على ذلك ما نقله ابن الخطيب والمقري، عن "***كتاب المؤتمن، في أنباء أبناء الزمن***"، لابن الحاج البلفيقي (ت. 773هـ)، حين عيّر العزفيين حكّامَ سبتة بانتحالهم للنسب العربي، وهو قوله: "وتزعم بعض أهل سبتة أنّ أصلَهم من مجكسة من البربر، فيقولون: ما للخم ومجكسة؟"[82].

بل نعثر في وثيقة غميسة تعود إلى القرن الثالث عشر للهجرة، تنعت الحوز الجنوبي لسبتة باسم "ديار امدكسة"[83]، وهو مجرد تصحيف لاسمها القديم "مجكسة"؛ مما يفيد أن التسمية ظلت رائجة أحيانا بشكل مصحّف بين المؤرخين والنسّابة من أهل شمال المغرب.

بين "ريف سبتة" و"حوز سبتة":

---

[80] - **المسالك والممالك**785-784 /2 :؛ **البيان المغرب**75-4/74 :، 99؛ **نيل الابتهاج** : 323 .

[81] - **المسالك والممالك:** 2/781؛ **البيان المغرب:** 1/203؛ **تاريخ ابن خلدون:** 6/282 .

[82] - **أزهار الرياض:** 2/376 .

[83] - **تقييد الماوي في التغريبة السبتية**: و1 وجه.

يظل الاسم الشائع في المصادر الأكثر قدما هو ''ريف سبتة''، ويرتفع إلى القرن السادس على أقل تقدير لدينا؛ فقد ذكر ابن عذاري عن الموحدين أنهم بلغوا إلى ريف سبتة، في سياق حديثه عن صراعهم مع المرابطين[84].

ومع نهاية القرن الثامن للهجري، تتردد في المصادر التاريخية وكتب التراجم عبارة ''حوز سبتة'' و''حش سبتة''، وتحتاج تسمية **حوز سبتة** بدورها إلى تأصيل تاريخي وطوبونيمي، وفي هذا الصدد، نرى أن تسمية هذه القبيلة باسم الحوز تعد قديمة ترتفع إلى القرن الثامن للهجرة، حيث ذكرها المؤرخ أحمد بابا التنبكتي[85]، نقلا عن" *الكواكب الوقادة*"، الذي يعتمد بدوره على رواية نقلها عن كتاب ''*الإعلام*'' لمحمد بن خميس الجزيري خطيب سبتة (ت. 750هـ)، ويذكر ابن الخطيب في معرض ترجمته لأبي عبد الله محمد ابن إبراهيم ابن الحاج البلفيقي (ت. 694هـ)، ''وادي الزرجون: وهو حش من أعمال سبتة''[86]، ومما تفصح عنه هذه الرواية أن الطريق السالكة إلى القرية المذكورة كانت تربض بها السباع الضارية.

كما تردد اسم ''متنان'' أو قلعة ''متنة''[87]، وهي الفنيدق الحالية في إشارتين أوردهما الشيخ الفقيه أبو العباس العزفي، وكلاهما تقدم معطيات جغرافية واقتصادية في غاية الأهمية؛ فمن خلال حديثه يتضح أن متنان أو متنة هي ''قرية بخارج سبتة''[88]، وأنها كانت مسكنا الشيخ المتصوف السبتي ابن عاصم، كما تخبرنا الإشارة الأخرى لنفس الموضع إلى تربية الأبقار بهذه الضاحية السبتية، مما يدلّ على وجود أنشطة فلاحية كثيفة بها[89].

---

[84] - **البيان المغرب: 4 /74-75، 99.**

[85] - **نيل الابتهاج**:323 .

[86] - **الإحاطة**: 250/3.

[87] - **لا يتعلق الأمر بمتنة التي يذكرها البكري في وصفه للطريق بين سبتة وطنجة، فلعل الاسمين متقاربان، وهو قوله: "ومن المواضع المشهورة والمنازل المعمورة ما بين سبتة وطنجة؛ نهر أليان وقصر أليان فيه آثار للأوّل كثيرة. وفي غربي هذا النهر موضع يعرف بكروشت، وهو آخر غمارة ومصمودة. ويتصل بهم هناك متنة من صنهاجة"؛ المسالك والممالك: 2/ 786.**

[88] - **دعامة اليقين**: 40.

[89] - **نفسه**: 43.

ويبقى الراجح في اعتقادنا أن أصل التسمية أتى من كون قبيلة مجكسة التي استقرت منذ زمن بعيد بمنطقة الحوز، قد اندثر اسمها تدريجيا مع مرور الزمن، فباتت تنسب إلى الحيز الجغرافي المجاور لسبتة من جهة الجنوب.

غلاف الجزء الأول والجزء الثالث من كتاب المؤرخ لويس دي مارمول كرفاخال"الوصف العام لإفريقيا "،والذي يتحدث فيه عن جهاد المغاربة لاسترجاع مدينة سبتة، ومن بينهم المجاهد سيدي طلحة. "Descripcion general de Affrica."Luis del Mármol Carvajal (1599).

.

أقدم وصف جغرافي عربي لقبيلة الحوز:

يحتفظ كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت. 487هـ)، بوصف جغرافي دقيق لمنطقة حوز سبتة، ومن المعلوم أن البكري كان ناقلا أمينا في هذا الجزء من كتابه، لرواية سابقة تعود إلى القرن الرابع للهجرة، ويتعلق الأمر بكتاب موسوم بالمسالك والممالك، من تأليف أبي مروان محمد بن يوسف الورّاق القيرواني الأصل (**ت**. 362هـ)، نزيل الأندلس زمن الخلافة المروانية بها. لذلك فنحن نعتقد أن هذا الوصف الذي نقدم نصه للقارئ الكريم هو أحد أقدم النصوص المؤلفة عن حوز سبتة الجنوبي، وهو قوله:

"وطريق البر من سبتة إلى موقع وادي المنازل[90] في البحر القبلي، من سبتة ستة أميال، ثم إلى وادي نجرو، ومخرجه من جبل أبي جميل، وعليه مساكن بني عفّان بن خلف، وعلى هذا النهر الموضع المعروف بالقصر، وهو قصر للأول، قائم فيه حمّام، وعلى هذا النهر أثار للأُوَل كثيرة. ثم إلى نهر أسمير، ومنبعثه من جبل الدرقة، وجريته من الغرب إلى الشرق، وعلى ضفته قرارات لبني كترات من مصمودة، ثم إلى الموضع المعروف بقب منت، وهو الجبل الداخل في البحر بقبلي سبتة، يسكنه أيضا بنو كترات وبنو سكين، ثم إلى نهر الليل ومنبعثه أيضا من جبل الدرقة، ثم إلى موضع يعرف بتاورص قرية عبد الرحمان بن فحل بن سكين من مصمودة، لها مزارع وأرضون، ومياه عذبة، ثم إلى مدينة تيطاوان[91] "

وصف جغرافي آخر لحوز سبتة:

لقد أورد البكري نقلا عن نفس المصدر، وصفا آخر لحوز سبتة الجنوبي، جاء فيه ذكر بعض المواضع الموجودة حاليا بنفس الاسم تقريبا، كوادي أويات ووادي المنازل أو المنيزلة حاليا، ووادي نكرة، وهو قوله: "وطريق آخر إلى فاس من سبتة: إلى تيطاوان مرحلة، وأول ما يلقى الخارج من سبتة وادي أويات يجري في خندق

---

[90] - في النص المنشور: "المناول"، وما أثبتناه ورد في بعض النسخ الخطية المعتمدة في تحقيق الكتاب.

[91] - **المسالك والممالك: 2/ 784.**

عليه أرحاء شتوية، وبينه وبين المدينة ميلان، ومنه جلب يليان الماء إلى سبتة على آزاج [قنوات معلّقة]، وبعضها قائم في تلك الخنادق إلى اليوم. ثم إلى وادي [المنازل]. ثم إلى وادي نكرة. ثم الطريق كما تقدم من سبتة إلى طنجة حتى تأتي فجّ الفرس "[92].

ومن خلال هاذين الوصفين، يتبين أن حدود مجكسة خلال عصر البكري، كانت تضم إلى جانب قبيلة الحوز، جنوب أنجرة وشمال وادراس، وهذا التقطيع الجغرافي . الإثنوغرافي يقتصر على العصر الوسيط الأعلى والأوسط، أما خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر للميلاد، فيبدو أن الحد الشمالي الغربي لجبل مجكسة ينتهي عند خط واد الرمل ومصبّه قالة أصادة، وهما موضعان لا زالا معروفين إلى اليوم. وبتتبع خط الامتداد نحو الجنوب، نستطيع تعيين حده الطولي الغربي بموازاة أراضي قبيلتي أنجرة وواد راس. ويساعدنا على تحديد تلك الجهة جريان مياه واد الخميس إلى اتصاله بواد منكال وواد محجرة. ويمكن تقسيم ناحية جبل مجكسة إلى قسمين:

مجكسة الساحلية: وتمتد من سبتة إلى مصب واد تطوان على طول ساحل بحر أبي سول أو البحر المتوسط.

مجكسة الجبلية: تشرف سفوحها الشرقية على الساحل المتوسطي على علو تتراوح ارتفاعاته عن سطح البحر ما بين 500 متر في جبل إيشقار (درسة) و900 متر في جبل موسى[93].

---

[92] - **نفسه: 2/795-794 .**

[93] - الفكيكي(2012) ، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة:** 71-72.

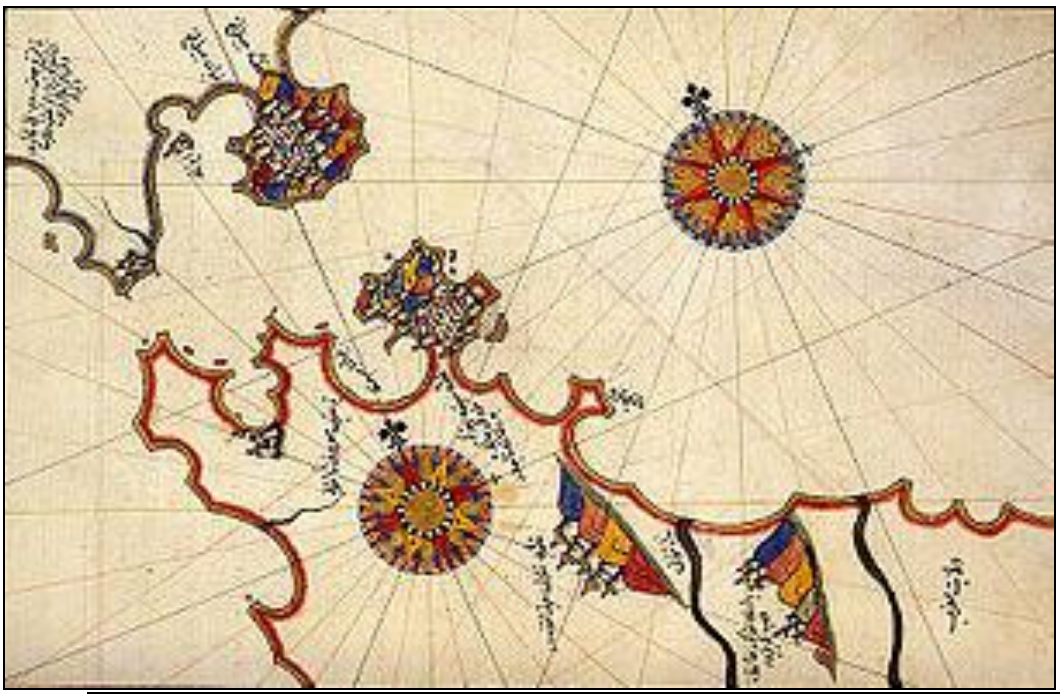

خريطة مضيق جبل طارق وضعها الجغرافي التركي بيري رايس (1513م)

قبيلة مجكسة ومقاومة الاحتلال البرتغالي:

عقب احتلال سبتة من قبل البرتغاليين سنة818هـ/1415م، هاجر العديد من سكانها نحو القرى المجاورة، فكان النصيب الأكبر لقبيلة مجكسة أو الحوز السبتي، وكان أول رد فعل رسمي من قبل الدولة المرينية هو إرسال قائد يدعى عبد الله (عبو) بن محمد المريني[94]، ويرى أحد الدارسين أن هذا القائد اختاره أهل سبتة وأنحائها المفجوعين بفقد مدينتهم، والذين يئسوا من المقاومة العفوية دون خطة

[94] - لماذا نطالب باسترجاع سبتة ومليلية: 1/ 28-29.؛ والجدير بالذكر أن الفقيه الشراط ينقل عن كناشة مجهولة المؤلف في كتابه الموسوم بالاستبصار والتفكير والاعتبار، أن القائد محمد بن عبو أرسله سلطان المرينيين من فاس على رأس جيش عظيم أقام به الحصار على سبتة طيلة تسعة عشر شهرا، غير أنه لم يتمكن من اقتحام المدينة، لأن النصارى كانوا قد أقاموا بها تحصينات هائلة زيادة على كونها محاطة بمياه البحر من كل جانب".

أو قائد ميداني، فقرروا اختيار قائد ليتزعم صفوف المجاهدين، ويسميه عبُّو (عبد الله) بن محمد المجكسي، واستوطن جبال مجكسة، ويقال إنه كان حاكما لهذه الجبال[95]، وقد بدأ هذا الزعيم المجكسي عمله بمكاتبة شيوخ وزعماء المناطق المتاخمة للمدينة السليبة، ويبدو أنهم استجابوا لدعوته، فقرر أن ينظم صفوف المجاهدين، وأضحى القائد عبد الله (عبو) منذ ذلك الحين الزعيم المشرف على عمليات المقاومة الشعبية ضد الاحتلال البرتغالي[96]. وقد استطاع بفضل التجاوب الكبير للسكان المحليين أن يجند نحو ألفي فارس من أهل مجكسة، الذين وصفهم البرتغاليون بكونهم "لا يهابون الموت"[97]. ويخبرنا زورارا أن هذا القائد اكتسب صيتا ونفوذا كبيرين داخل الإقليم وخارجه، وأنه قام بتنظيم مجموعة من الغارات على مدينة سبتة المحتلة خلال الفترة الممتدة ما بين 10 شتنبر و30 نوفنبر من سنة الاحتلال، وقد استهدفت المناوشات التي قادها عبد الله (عبو) ابن محمد إجبار المحتلين على التراجع عن موقع برج فاس، وهو أعلى نقطة من قصر أفراك المريني[98].

وفي سنة 1417م هاجم المجاهدون بقيادة عبد الله (عبو) المذكور مدينة سبتة، واستمرت العمليات الجهادية لهذا القائد إلى أن استشهد بميدان سبتة عام 822هـ/1419م.

الشيخ جابر المجكسي:

حينما تقدم البرتغاليون في اتجاه وادي نكرو، ظهر قادة جدد للمقاومة الحوزية، كان من أبرزهم شيخ يدعى جابر (Xeber) أو جبور (Xebu)، نزل بجبال مجكسة، وتبعه عشرات المجاهدين من أنجرة وفحص طنجة، ومن بلاد سوس . ونعلم من خلال الحوليات البرتغالية أن بداية سنة 1416م شهدت ظهور هذا القائد الذي تنعته بشيخ وادي الرمل الأنجري، كما نعلم من خلال ذات المصادر أنه انتقل من موطنه إلى جبل مجكسة، وأنه أصبح منذ ذلك الحين الساعد الأيمن

---

[95] - الفكيكي (2000)، **سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني:** 94-97.
[96] - الفكيكي (1424-2003م)، سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني: 73-74.
[97] - مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة، م. س: 73 .
[98] - سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني، م, س.: 102.

للقائد محمد بن عبو، وأنهما شرعا معا في مراسلة الزعماء المحليين وشيوخ القبائل يطلبان منهم القدوم إلى ميدان سبتة والمشاركة في حركة المقاومة، بأوفر ما لديهم من الفرسان والمشاة[99]. ويبدو من خلال تغير موازين القوى نسبيا على ساحة المعركة، أن جهود هاذين المجاهدين قد كللت بالنجاح، بفضل العدد الجمّ من المتطوعين القادمين من خارج الإقليم، الذين التحقوا بصفوف المجاهدين، فأولى انعكاسات الدعم الذي تلقته جبهة المقاومة الشعبية، أن رجالها استطاعوا لأول مرة اختراق حاجز طلائع جزيرة الرملة (أفراك)، بل تمكنوا من الوصول إلى حفير السُّهاج وحاولوا عبور قناته، مما أرغم حاكم سبتة على الاعتصام وراء أسوارها خلال أربعة أشهر متوالية[100].

أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج:

تذكر المصادر البرتغالية أن الأحواز المتاخمة لسبتة قد شهدت خلال الفترة الممتدة ما بين 1420 و1430م، ظهور مقاوم يسمى سيدي أبو يعلى طلحة الدريج تزعم المقاومة الحوزية، وتسميه بعض هذه المصادر (Sidi Talpa)، أما في المصادر المغربية، فنقف على ترجمة هذا المقاوم بشكل مفصل، فهو أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج، ويعتبر أحد أهل سبتة المعدودين في سلك علمائها وأعيانها ومتصوفتها أهل الكرامات والخوارق، وقد ترجم به أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي في كتابه "*الكواكب الوقادة، فيمن حلّ بسبتة من العلماء والصلحاء والقادة*"، ونسبه سليمان الحوات الشفشاوني إلى الأنصار، قائلا: "الشيخ أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج الأنصاري، صاحب المزارة العظمى، حيث ضريحه بخارج تطوان المحروسة، نفعنا الله به ورفع نسبهم إليه، كما يأتي، ثابتٌ في الكثير من أَصْدِقَتهم التي بخط جملة من أعيان العدول بالحضرة الفاسية والتطوانية وأهل الهبط، والتحري من العلماء الموثقين بهم، وهو رضي الله عنه من نسل قاضي سبتة وخطيبها، العلاّمة المحدث ولي الله أبي عبد الله الدرّاج

[99] - نفسه: 109-110؛ مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة، م. س: 92-93.
[100] - مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة، م. س: 93.

الأنصاري نفعنا الله به، كما في تاريخ شيخنا العلاّمة الحافظ الصالح أبي عبد الله محمد بن الطيب القادري الحسني، وقد صرح بأنصاريته من عرف به كالشيخ العلاّمة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي، في كتابه المسمى بالكواكب الوقّادة، فيمن حلّ بسبتة من العلماء والصلحاء والقادة"[101]؛ وقد ترجم به سليمان الحوات في "*المسك الأريج*" وحلاّه به قوله: "وكان جبلا راسخاً في العلوم والمعارف، مقطوعا بولايته مشهورا بالزهد والورع والسلوك على طريقة السلف، دائم الصيام والقيام، كثير التهجّد، والناس نيام، ملازم الرباط للجهاد بالثغور، مقصودا للزيارة في مهمات الأمور، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، ناشرا للشريعة والحقيقة بكل محضر، تخاف صولته في الحق ملوك العدوتين، وترجع إلى رأيه فيما يغدو بين الفئتين، وتقدمه أمامها لقتال الكفار، تيمنا بطلعته في طلب الانتصار، فيحمدون حركته، ويجدون بركته"[102].

ويبدو أن هذا المتصوف المقاوم كان قد استوطن أحواز سبتة قبل سقوطها في أيدي النصارى، تبعا لما نستشفه من ترجمته لدى المصدر السالف، وهو قوله: "وكانت بادية سبتة القريبة منها خالية حينئذ من أمثاله، لا جرم طلبوه من بعض أمرائها العزفيين، ليهتدوا بأنواره ويستجيروا بجواره، فأجابهم إلى ذلك في الحين، رغبة في إصلاح حالهم بالعلم والدين، وإعلاء كلمات الله بالاستعداد إلى قوة الرباط في ثغور الجهاد، وأنزله رضي الله عنه في محلتهم بمجشر واسع العمارة، يقال له خندق الفرجة، فيه عين من الماء الغزير، فبقي فيهم يهتدون بهداه ويستجيرون بحماه. وكان رضي الله عنه، قويّا شهما كميا قرنا طويل القامة، أسمر اللون، يلبس جبّة خضراء، له فرس يركبه للجهاد، ويقتحم به أعداء الله في كل واد، تخلّق أهل المنزل بأخلاقه من النجدة والبأس ورباط الخيل لإرهاب عدو الله وعدوهم، فكانوا يركبون معه في خمسين فارسا كل واحد منهم في الحرب أسد هصور، وكان رضي الله عنه يتكلم بالغيوب والحقائق، ويتأيد في الكرامات بالخوارق، إلى أن توفي رحمه الله ودفن بمتعبّده من المجشر المذكور، حيث روضته

---

[101] - سليمان الحوات الشفشاوني، المسك الأريج، في نسب أولاد الدريج، مخطوط الخزانة الحسنية رقم: 1339: و2 ظ - و3و.

[102] - نفسه: و12.

الآن"[103].

وبزعامة سيدي طلحة الدريج لصفوف المجاهدين المرابطين بميدان سبتة، تحققت مشاركة العلماء والمتصوفة وأهل الصلاح في المقاومة الشعبية[104]، وتفيدنا المصادر التاريخية أن سيدي طلحة خاض على الأقل ثلاث حملات ضد الغزاة البرتغاليين:

الحملة الأولى: تتمثل في المرابطة حول سبتة التي ابتدأت في ربيع الأول عام 830هـ/يناير 1427م، بعدد من المجاهدين تقدره المصادر المغربية بنحو 400 رجل، فيما تفيد المصادر البرتغالية أن عدد المحاربين فاق 4000 مجاهد.

الحملة الثانية: وتتجلى في العملية الحربية التي نظمها ضد سبتة المحتلة، في ذي القعدة 831هـ/شتنبر 1428م. وقد علم حاكم سبتة بتنظيم هذا الهجوم، فأمر أن لا يتجاوز جنوده موضع طلائع الجزيرة أي موضع قصر أفراك المريني، خوفا من وقوعهم في الكمائن المغربية، وقد حققت هذه الحملة بعض التقدم، إلى حد اشتداد الأمر على البرتغاليين الذين كانوا بقيادة حاكم سبتة بيدرو دي مينيزيش، رفقة ابنه ضوارطي. وواصل المجاهدون الزحف إلى قرب برج المشنوقين، وهو يشكل إحدى زوايا سور أفرك المريني، فالتحموا بجنود الاحتلال، قبل أن يتراجعوا إلى موضع وادي القصب، الواقع على شاطئ مضرب الشبكة، تبعا لطريقة الكر والفر التي اتبعوها في هجوماتهم. ويفيد المؤرخ البرتغالي زورارا أن هذا الهجوم انتهى بأسر قائد المجاهدين سيدي طلحة[105].

الحملة الثالثة: نلاحظ أن هذه الحملة الثالثة التي تمت في شوال 832هـ/يوليوز 1429م، لا يشير إليها الإخباري البرتغالي، ومن المحتمل لدينا أن سيدي طلحة تم افتداؤه بعد الحملة السابقة وتمكن من إعادة تشكيل صفوف المقاومة ضد البرتغاليين، وتابع عملياته الجهادية إلى أواخر حياته، قبل أن تتوفاه المنية بتطوان في العقد الرابع من القرن التاسع للهجرة على أدنى تقدير[106].

---

[103] - نفسه: و13.

[104] - سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني، م, س: 145.

[105] - Zurara, Cronica de D. Duarte, 69.

[106] - سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني، م, س: 151-157؛ مقاومة الوجود الإيبيري،

الشيخ أحمد بن سلام بن مرزوق:

خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1430 و1437م، قامت القوات البرتغالية بقيادة الأمير ضوارطي دي منيزيش (Duarte **de** Meneses) ابن حاكم سبتة، البالغ من العمر خمس عشرة سنة، الذي خوّله أبوه قيادتها منذ سنة 1429م، بشن بعض الغارات التي استهدفت غزو قرى الحوز الواقعة في الطريق إلى تيطاون، بعد توقفها بوادي نكرو منذ سنة 1417م، فهاجمت قريتي القلعة وعين الفحص في ليلة 6 ربيع الثاني 826هـ/19 مارس 1432م، ثم عادت إليها في السنة الموالية[107]. كما تعرض جبل الرأس الأسود Cabo Negro، الذي تسميه المصادر البرتغالية المعاصرة للفترة رأس "المنقار" (Almenhacar ; Almanacar)[108]، لغارة برتغالية، وخربت على إثرها قرية كدية الطيفور بعد أن غادرها أهلها، وقد وجد بعين المكان مسجد وقلعة. وتذكر نفس المصادر أن زعيم الحوز خلال بداية هذه المرحلة، كان يسمى أحمد بن سلام بن مرزوق[109].

ويعود نسب هذا القائد إلى عائلة شريفة، بدأ بالمشاركة في الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي بسبتة قبل سنة 1428م، فقد نظم عددا من الغارات، إلى جانب المجاهد سيدي طلحة السالف الذكر، ويبدو أنه خلفه على قيادة المقاومة ابتداء من سنة 1430م، كما استعان بفقيه مصمودة المسمى سيدي موسى. وبعد حصوله على معلومات كافية عن الميدان الحربي لسبتة، جمع في بيته أزيد من مائة من خيار فرسان محكسة، وأخبرهم بخطته الرامية إلى أسر ابن حاكم سبتة، ضون ضوارطي أو قتله. والجدير بالذكر أن المحتلين البرتغاليين قد علموا بفحوى هذا الاجتماع، إلى حد أن زورارا يورد مقتطفات من الحديث الذي جرى خلاله، ومن ضمن كلام ابن مرزوق إلى المجاهدين، قوله: "فمن شأن هذه الغزوة أن

م. س: 113.

[107] - مقاومة الوجود الإيبيري، م. س: 113-114.

[108] - المسالك والممالك: 784/2؛ مقاومة الوجود الإيبيري، م. س: 71، 94، 114؛ Zurara, Cronica de D. Pedro, 1-62.

[109] - مقاومة الوجود الإيبيري، م. س: 114-115.

تكون فاتحة باب الانتقام الذي يتمناه المسلمون، لما لاقوه من الأضرار على يد هؤلاء الأشرار الذين غادروا مواطنهم للاستيلاء على بلادنا"[110]. ولعل هذا الكلام من نسج الإخباري البرتغالي نفسه، أو من اعترافات الأسرى المغاربة الذين سقطوا في أيدي المحتلين عقب هذه الغارة.

وبعد أيام ظهر بالقرب من سبتة جماعة من المحاربين الذين تظاهروا بالهجوم على أسوارها بعدد قليل، بينما بقي العدد الأكبر بمطلع مرسى اليم، غير أن البرتغاليين علموا بتفاصيل الهجوم والخطة المدبرة للإيقاع بابن حاكم المدينة، وسرعان ما جرت الهزيمة على جموع المهاجمين، وأدت نتيجة هذه المعركة إلى استشهاد قائدهم ابن مرزوق بعد أيام من المناوشات متأثرا بجروحه[111]. ويمكن تعيين وفاة هذا المجاهد في شهر شعبان عام 833هـ/أبريل 1430م[112].

---

[110] - Zurara, Cronica de D. Duarte, 64-65,69. ؛ سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني، م. س: 97-98.

[111] - Zurara, Cronicas de D. Pedro, 2/585. ؛ مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة، م. س: 114-115؛ لماذا نطالب باسترجاع سبتة ومليلية: 31/1.

[112] - سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني، م. س: 98.

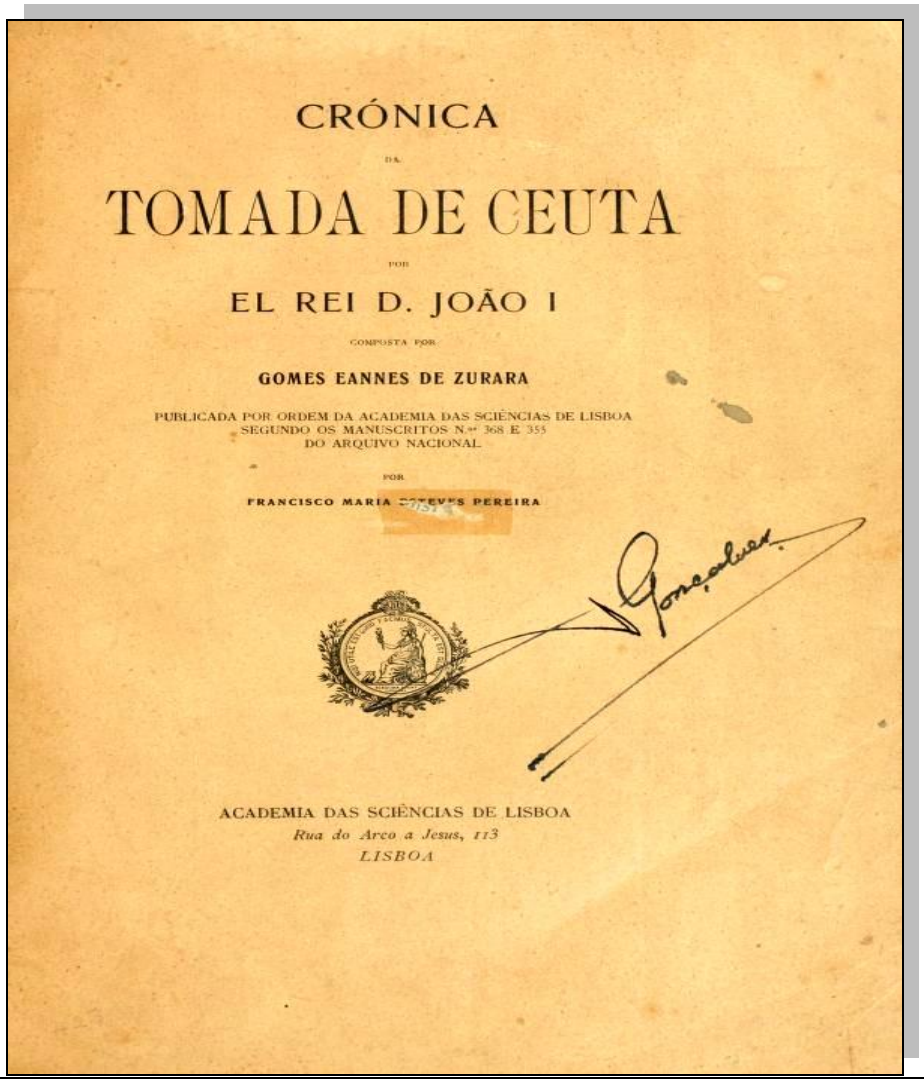
CRÓNICA

DA

TOMADA DE CEUTA

POR

EL REI D. JOÃO I

COMPOSTA POR

GOMES EANNES DE ZURARA

PUBLICADA POR ORDEM DA ACADEMIA DAS SCIÊNCIAS DE LISBOA
SEGUNDO OS MANUSCRITOS N.os 368 E 355
DO ARQUIVO NACIONAL

POR

FRANCISCO MARIA [illegible] PEREIRA

ACADEMIA DAS SCIÊNCIAS DE LISBOA
Rua do Arco a Jesus, 113
LISBOA

خطة المقاومة الحوزية المبكرة:

قامت خطة المقاومة على عنصري المباغتة ونصب الكمائن للجنود البرتغاليين، وعلى سهولة التحرك في الوسط الطبيعي، ولم تكن تعتمد على قوة حربية فعالة، فقد تشكل معظم المهاجمين من المشاة، فيما كانت قلة منهم من الفرسان، وقد كان بعضهم يهاجمون من غير سلاح في كثير من الأحيان، وهذا ما يفسر ارتفاع

عدد شهدائهم الذين يسقطون على إثر كل هجوم، وكان المهاجمون ينسحبون من الميدان إذا أحسوا بوصول نجدات عسكرية برتغالية. وفي هذا الصدد تذكر المصادر البرتغالية أن معظم العمليات الجهادية كانت تتم انطلاقا من الجهة الجنوبية المتاخمة لساحل بحر أبي السول، بدءا من برج متنة المعروف لدى البرتغاليين منذ ذلك الوقت باسم "كاستيخوس" (Castillejos)[113]. واتبعت المقاومة الشعبية خطة الكر والفر في الهجوم على مواقع البرتغاليين[114]، كما كانوا يحرصون على أسر الجنود الطلائعيين، إذ كانوا بمثابة العيون الفاحصة لتحركات رجال المقاومة بالميدان الحربي لسبتة، فكثيرا ما باغتوهم بمكان الحراسة، وقطعوا عليهم طريق العودة إلى المدينة المحتلة، وهذا ما كان يغيض حاكم سبتة البرتغالي[115].

وبتفحص جهود المقاومة الشعبية بأحواز سبتة، نجدها أنها توزعت بين حماية القرى الحوزية بإقامة نظام للحراسة والاستشعار، وبين الدخول إلى الميدان لإثبات وجودها، ونتيجة ضعف الإمكانيات العسكرية للمقاومة، فقد كان المجاهدون عاجزين عن القيام بالمهمتين، مما حتم على قادتهم البحث عن عناصر جديدة من المحاربين، عن طريق التعبئة وطلب التضامن، سواء من داخل الإقليم أو من خارجه، وهو ما طبع مرحلة المقاومة المحكسية منذ فبراير 1417م[116].

الجهاد البحري للحوز السبتي:

إذا كانت الدولة المرينية في عهد أبي سعيد عثمان الثالث، قد فقدت أسطولها البحري بشكل شبه تام، فإن بعض الأسر المشتهرة بممارسة الملاحة التجارية والجهاد البحري كانت ما تزال محتفظة ببعض القطع البحرية[117]، وهو ما شجع المغاربة على القيام بعمليات جهادية على الصعيد البحري؛ فعقب احتلال سبتة،

---

[113] - سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني، م. س: 86-87؛ Zurara, Cronicas de D. Pedro, p. 36.

[114] - مقاومة الوجود الإيبيري، م. س: 68.

[115] - سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني، م, س: 106-107.

[116] - نفسه: 107.

[117] - مقاومة الوجود الإيبيري، م. س: 93-94.

تمكن المرينيون من حشد عدد من السفن والزوارق، بعضها من صنف خمسة وعشرين أو ستة وعشرين مقعدا، تسير بثمانية مجاذيف، وكانت تحمل على متنها نحو مائتي محارب، وقاموا بتجميعها بمرسى بليونش، الذي تم تحريره من أيدي المحتلين، وقد وضعت القيادة البحرية لهذا الأسطول تحت تصرف الرئيس قاسم بومكان الترغي[118].

كما شهد مسرح الأحداث التي واكبت احتلال سبتة ظهور بعض القادة البحريين الذي نظموا عمليات جهادية ضد المحتلين البرتغاليين، ومن أبرزهم:

- المجاهد علي الطويل: كان تمركز سفنه الجهادية بمرسى قب منت (Cabo Negro)، أو المنقار (Almonacar)[119].
- المجاهد المعروف بالأفطس: ظهر هذا البحّار بمرسى بني معدان، وكان يساعده ابنه المسمى بومرجان، وقد كان بمعيتهما ثلاث سفن جهادية، تراوحت مقاعدها بين أربعة وعشرين مقعدا وثلاثين مقعدا[120].
- المجاهد المعروف باسم بنزكان (Abenzagao): وكانت عملياته الجهادية تنطلق بدورها من مرسى بني معدن[121].
- المجاهد أبو بكر قنديل: الذي كان منطلق عملياته من مرسى بني معدن، ويبدو تبعا لإفادة المصادر البرتغالية المعاصرة، أن نشاطاته الجهادية البحرية قد شملت السواحل السبتية ومياه المضيق ، بين طنجة والقصر الصغير وجبل طارق، واستطاع هذا البحّار تكوين ثروة هامة، وابتنى بقرية بني معدن قصره الذي كان بمثابة قلعة جهادية[122].
- مجاهد تسميه المصادر البرتغالية قريل الطنجي، كان ينشط بسواحل مضيق جبل طارق بين طنجة وسبتة.

---

[118] -- Zurara, Cronicas de D. Pedro, p. 243 ؛ سبتة المحتلة: صفحات من الجهاد الوطني: 121-122.

[119] - مقاومة الوجود الإيبيري، م. س: 94.

[120] - نفسه: 94-95.

[121] - نفسه: 95.

[122] - نفس المرجع والصفحة.

- المجاهدون من أسرة بني خيري: وهم من العلوج الذين اعتنقوا دين الإسلام، وقد عرّفت المصادر بثلاثة من أفرادها كانوا يعملون في الجهاد البحري، منهم محمد بن خيري، وكان اسمه مانويل، وهو يملك سفينة مزودة بخمسة عشر مقعدا، ثم أخوه بدر بن خيري، وكان يقود سفينة من صنف أربعة عشر مقعدا، إلى جانب أخ ثالث لهم لم تذكر المصادر سوى اسمه العائلي بن خيري[123].

لقد دأب هؤلاء المجاهدون وغيرهم على التعاون مع المراسي الأندلسية الأندلسية، خاصة جبل طارق ومالقة. وإذا كان حاكم سبتة مطمئنا إلى أمن المدينة المحتلة من جهة البحر قبل ماي 1416، فإنه فوجئ بغارة بحرية نظمها المجاهد الأفطس انطلاقا من مرسى بني معدن. ومنذ ذلك الحين، حرص برتغاليو سبتة على إغلاق الملاحة البحرية بمضيق جبل طارق ومحاولة اعتراض سبيل أية سفينة تعبر بين الضفتين المغربية والأندلسية. كما عمل حاكمها على القيام بجولة تفقدية للمراسي المغربية القريبة من سبتة، في أفق التحضير لحملات بحرية عليها[124].

خاتمة . توصية:

إن المجال الجغرافي المحيط بمدينة سبتة، المعروف منذ فجر التاريخ الوطني باسم "حوز سبتة" أو "ريف سبتة"، ينبغي أن تعاد تسميته التاريخية الأصيلة، دفاعا عن مغربية المدينة السليبة وربطا لحوزها بتاريخها المغربي العريق، حتى لا تظل جسما غريبا عن محيطها الطبيعي والترابي والاجتماعي والتاريخي.

إن "ريف سبتة" هو مجال فريد من حيث الموقع الجغرافي الاستراتيجي، والغنى الطبيعي البري والبحري، والتراث الثقافي العريق والمتنوع، وكلها مؤهلات تجعل منه مجالا مؤهلا للإقلاع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ورهانا للتنمية المستدامة على المستويين المحلي والوطني.

---

[123] - نفسه: 94.

[124] - نفسه: 95.

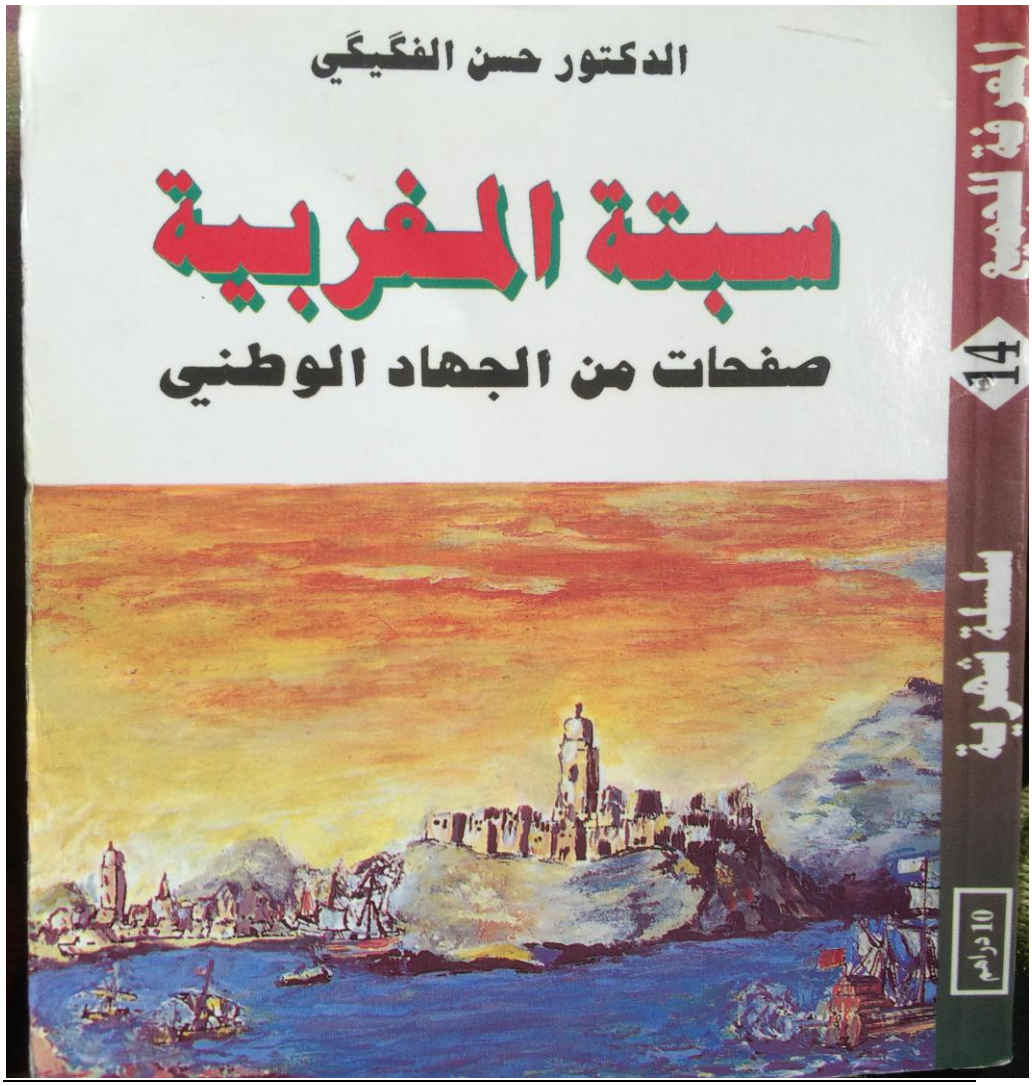

غلاف كتاب "سبتة المغربية "صفحات من الجهاد الوطني،(سلسلة المعرفة للجميع،العدد 14 ، 2000) والذي أفرد فيه مؤلفه المؤرخ الدكتور حسن الفيكيكي،المختص في تاريخ شمال المغرب وحركات المقاومة والجهاد، فصولا كاملة للمجاهدين الأبرار الذين حاربوا لتحرير مدينة سبتة وغيرها، ومن بينهم سيدي طلحة الدريج.

المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، **تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، لعبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000/1421.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر، 2004، 3ج.
3. ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الجزءان الأول والثاني، تحقيق كولان وبروفنسال، والجزء الثالث، تحقيق بروفنسال، الجزء الرابع، تحقيق د. إحسان عباس، ط. 3، بيروت: دار الثقافة، 1983.
4. ابن عزوز حكيم، محمد، **لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية؟**، تطوان: مطبعة ديسبريس، 1979، الجزء الأول.
5. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، **لسان العرب**، ط. I، بيروت: دار صادر، 1410هـ- 1990م، 15 مج.
6. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط. 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992، 2ج.
7. التنبكتي، أحمد بابا، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، تحقيق محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط. 1، المحمدية: مطبعة فضالة، 1421هـ - 2000م، جزآن.
8. التنبكتي، أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م.
9. الحضرمي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي، والأنصاري، أبو القاسم محمد بن القاسم السبتي، **تواريخ السبتيين: شذرات من كتاب الكواكب الوقادة، في ذكر من دفن في سبتة من العلماء والصلحاء والقادة، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب، فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية، من مدرس**

وأستاذ وطبيب، واختصار الأخبار، عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، دراسة وتحقيق د. عبد السلام الجعماطي، منشورات المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق . الفنيدق (4)، الطبعة الأولى، تطوان: مطبعة الخليج العربي، 1436هـ/2015م.

10. الحوات الشفشاوني، سليمان، **المسك الأريج، في نسب أولاد الدريج**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم: 1339.

11. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، **تاج العروس، من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ومراجعة عبد الستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي (16)، منشورات وزارة الإعلام بالكويت: مطابع حكومة الكويت، 1392هـ/1972م.

12. العزفي السبتي، أبو العباس أحمد، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق د. أحمد التوفيق، الرباط: مكتبة خدمة الكتاب، 1989.

13. الفكيكي، حسن، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة: 1415–1574**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2012م.

14. الفكيكي، حسن، **سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني** (1415–1912)، منشورات مديرية الوثائق الملكية، الرباط: المطبعة الملكية، 1424هـ–2003م.

15. الفكيكي، حسن، **سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني**، سلسلة المعرفة للجميع (14)، الرباط: منشورات رمسيس، 2000م.

16. الماوي، عبد السلام بن مصطفى بن موسى، **تقييد الماوي في التغريبة السبتية**، مخطوط خاص.

17. المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق جماعة من الدارسين، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358هـ– 1939م (أعيد طبعه تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة)، المحمدية: مطبعة فضالة، د. ت.، 5 أجزاء.

18. Zurara, Gomes Eanes, (De), Cronica de D. Duarte de Meneses, Lisboa, 1978

19. Zurara, Cronica de D. Pedro de Meneses, Colleçao de Libros Inéditos de Historia portuguesa, 2 vols, Lisboa, 1790-1792.

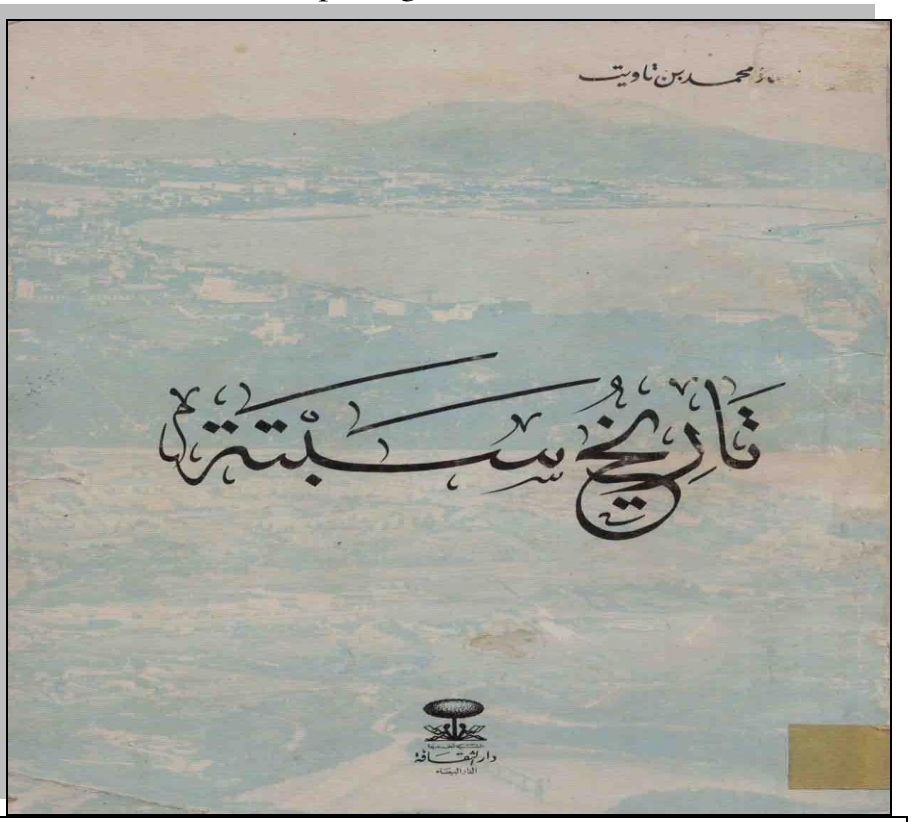

"تاريخ سبتة" ، محمد بن تاويت التطواني، منشورات دار الثقافة ، الطبعة : الأولى – سنة 1402 هـ / 1982 م ، http://archive.org/details/tarikh-sabta

ولد العلامة بن تاويت بتطوان عام 1336هـ الموافق لسنة 1917 م . درس على والده القرآن الكريم والمتون الأولية، وتابع العلم في مساجد تطوان وزواياه، ثم التحق بجامعة القرويين بفاس سنة 1933 ودرس فيها العلوم الشرعية واللغوية ، ثم التحق بالبعثة الحسنية عام 1938 المتوجهة إلى القاهرة لطلب العلم، وحصل من جامعة القاهرة على شهادة الليسانس ودبلوم الدراسات العليا في اللغات السامية . عين باحثا بمعهد فرانكو للأبحاث العربية الإسلامية ثم أستاذا بالمعهد الديني العالي بتطوان ثم مديرا له، كما عمل مديرا لمعهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان ، كما عمل بالتدريس في كلية الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط سنة 1956 ، ثم بكليات الآداب بفاس و تطوان و أكادير.

من دفائن التدوين التاريخي لسبتة

"رسائل علماء فاس إلى المجاهدين المحاصرين لسبتة"

الدكتور محمد أملاح

إنه لمن دواعى الشرف والسرور أن أشارك اليوم في هذه الندوة العلمية القيّمة التى نهضت بتنظيمها مشكورة كل من جمعية **تطاون أسمير** للتنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والرياضية ، وجمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث ،
واتخذت موضوعاً لها بعنوان: "التاريخ الوطنى لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان:
سيدي طلحة الدريج نموذجاً".
لما كان من أهداف هذه الندوة استرجاعُ ذاكرة الماضى المجيد للمقاومة الباسلة والدور الرائد للمجاهدين الأبرار في محاولتهم لتحرير ثغر سبتة، وكذا التنويهُ بالروح الوطنية لدى المغاربة الأحرار في الدفاع عن دينهم وهويتهم ووحدة أرضهم واستقلالها وازدهار أمتهم وتعايشها السلمى، ارتأينا أن نقف على قطعة من تاريخ سبتة تدخل ضمن أدب الثغور، إنها مجموعة رسائل غميسة كتبها علماء فاس إلى المجاهدين المحاصرين لسبتة بأمر من السلطان المولى إسماعيل سنة 1132 / 1720م.

أولا: في السياق التاريخي

كما هو معلوم، فإن مدينة سبتة كانت طوال التاريخ محط أطماع الدول المهيمنة شأنها في ذلك شأن عدد من مدن شمال إفريقيا عموماً والمغربية منها خصوصاً،

مثل طنجة وأصيلة والعرائش والجديدة وآسفي وأكادير وغيرها. وكانت بعض الدول التي تعاقبت على الحكم بالمغرب في محاولات مستمرة لتحرير واسترجاع هذه الثغور المغتصبة عبر التاريخ، إذ لم تفتأ تشن الغارات تلو الغارات، وتضرب الحصارات إثر الحصارات إلى أن أتى عهد السلطان المولى إسماعيل، الذي جاهد في تحرير الثغور في خط سير متجه من الجنوب إلى الشمال. فتحقق بقيادته تحرير المهدية، ثم طنجة، وبعدهما العرائش، فأصيلة التي كانت الفتح الرابع. وبعد هذه الفتوحات المباركة المذكورة والمبسوطة في كتب التاريخ مثل تاريخ الضعيف والاستقصا والحلل البهية، نهض السلطان المولى إسماعيل مجاهداً لتحرير ثغر سبتة. والجدير بالإشارة أن السلطان المولى إسماعيل كان يعد الجهاد لتحرير سبتة الجهاد الأكبر بالنظر إلى صعوبتها الجغرافية وموقعها الإستراتيجي. ونقرأ ذلك في رسالة فريدة بعث بها إلى السلطان العثماني بعد أن وصفه بكثرة الجهاد، وأنه لا جهاد في الحقيقة إلا جهادهم. يقول مخاطبا إياه: «فجهادكم أنتم ... هو والله الجهاد الأكبر، وأما جهادنا نحن فيما تسمعون عن هذه الثغور المهدية والعرائش وغيرها، وحتى طنجة بنفسها، فجهاد على قدر حاله، وعلى قدر رجاله، وعلى قدر البلاد، إذ كل بلد من هؤلاء البلدان المذكورات لا تكاد عمارتها تزيد على ستمائة أو ثمانمائة مقاتل، والغاية ألف أو ألفان إذا انحازوا ولم يتركوا شيئاً من الجهد والاستعداد، اللهم إلا إذا كان جهاد ثغر سبتة أعادها الله بفضله دار إسلام، فهو جهاد حقيقي، يسمى عند أهل الهمم الكبيرة جهاداً، لأن سبتة جاءت في موضع أكثر من أن يوصف من التحصين والمَنَعَة إلا ما يرجى فيها من عون الله وتيسيره، إذ هي في جانب البوغاز مركبة على ذلك البر، وما بينهما وبين الجزيرة إلا مقدار مسافة أو أقل في البحر لا غير... فجهاد سبتة أي والله يشبه جهادكم فيمن قرب منكم أو بعد عنكم... وأما جهادنا في غير سبتة فأمر خفيف، والأجر والثواب على قدر المشقة وبعد الشقة "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"»[125].

وتبعا لذلك، أمر السلطان المجاهد مولاي إسماعيل عامله الباشا عليّاً بن عبد الله

[125]- مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 6926.

الريفي والقائد أحمد بن حدو بالنهوض لحصار سبتة المحتلة، والمرابطة حولها إلى أن يفتحها الله عليهم، وكان ذلك سنة 1106 كما في الحلل البهية[126]، أو سنة 1107 مثلما جاء في النشر[127].ومهما يكن، فقد توجه القائدان بالجيوش إليها وحاصروها،و«أردفهم السلطان بعسكر من عبيده[128]، كما أمر قبائل الجبال أن يُعَيِّنُوا حصة من كل قبيلة بالرباط عليها، وأمر أهل فاس أن يوجهوا حصتهم، فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفاً، والقتال لا ينقطع صباحاً ومساءً، حتى أتاه أن القواد الذين على حصارها لم ينصحوا في فتحها لئلا يتوجهوا إلى حصار البريجة ويبعدوا عن أولادهم وبلادهم لما سئموه من السفر ومشقة الحركة إلى أن مات القائد علي بن عبد الله الريفي سنة خمس وعشرين ومائة[129]، وولى ولده القائد أحمد، فبقي محاصرا لها، وفي كل عام يتبدل الغزاة إلى أن مات السلطان»[130].

ويحكي الضعيف في تاريخه أنه في سنة 1133هـ «خرجت النصارى بجيوش كثيرة وأوقعوا بالمسلمين، ومات فيها خلق كثير من الجهتين، واستولوا على ما كان بأيدي المسلمين، وكان بها حادثاً عظيماً. ثم بعث السلطان في الساعة والحين بالجيوش من جميع أقطار المغرب، ومن وصفان عبيد سيدي البخاري، فردهم على أعقابهم بعدما كانوا استولوا على موضع المحلة، ورجع النصارى إلى سبتة، ورجع عبيد سيدي البخاري إلى مقرهم»[131]. ويذكر القادري في النشر أن المسلمين أثخنوا القتل والأسر في النصارى حتى بقي بأيديهم من النصارى نحو الثلاثة آلاف على ما أخبر بذلك من حضرها والحمد لله على ذلك[132].

ثانيا: في السياق الثقافي والأدبي

126- الحلل البهية 325/1.
127- نشر المثاني 73/3.
128- يقصد عبيد البخاري.
129- أي 1125هـ/ 1713م.
130- الحلل البهية 325.
131- تاريخ الضعيف 97.
132- نشر المثاني 252/3.

لقد وفر الحصار والجهاد لفتح سبتة في الواجهة الأدبية مجالا للكتابة والتعبير عن المواقف الدينية والوطنية اتجاه ذلك، على اعتبار أن الأدب المغربي في مسيرته الإبداعية لازم التاريخ؛فكان يجسده ويتفاعل معه ويؤرخ له بأشكاله الخاصة. بصيغة أخرى، كان الحدث حافزاً على الإبداع، وظل الإبداع شهادة على واقع الحدث وملابساته.ومن خلال تصفحنا للتراث الأدبي المغربي لتلك المرحلة، نتبين تنوع النصوص التي واكبت أحداث الفتوح والجهاد، وهي ما يدخل ضمن أدب الجهاد أو أدب الثغور. فإذا كان الشعراء أمثال عبد الواحد البوعناني وعبد السلام جسوس ومحمد بن علي الرافعي التطواني قد عبروا من خلال مجموعة من القصائد عن موقفهم الرافض لاحتلال سبتة ودعوتهم إلى استنهاض الهمم والتشبث بقوة العزيمة والحث على الجهاد والاستشهاد من أجل تحرير هذا الثغر من قبضة الصليبيين، فإن العلماء والأدباء كان لهم حظهم أيضاً في المشاركة في هذه الحملة تعبيراً منهم عن موقفهم الديني والوطني. ونسجل في هذا المقام تلكم الرسائل التي كتب بها علماء فاس سنة 1132هـ إلى المجاهدين المحاصرين لسبتة، بعد أن استغرق حصارهم لها زهاء ستٍّ وعشرين سنة.

إفادة

الشريف السبتي

الإدريسي المغربي:

"إنه أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، واحد من أوائل من أسسوا لعلم الخرائط بمفهومه الحديث، بل إن خريطته التي قضى من أجل إنجازها قرابة خمسة عشر سنة، تعتبر أهم خريطة عالمية يتم إنجازها في القرون الوسطى ، وُلد بسبتة المغربية سنة 493 هجرية/ 1099 ميلادية، من أسرة يعود نسبها إلى إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية، أنهى دراسته بقرطبة، واستطاع منذ حداثة سنه أن يحصل على ثقافة أدبية متينة، وأن يتشبع بثقافة رياضية كاملة في الحساب و الهندسة والجغرافية، كما زاول مهنة الطب هناك وتعرّف على أسرار النبات، زيادة على نبوغه في الشعر.

منذ ربيعه الـ16، بدأ الإدريسي التجوال في العالم، فزار كل بلدان المغرب الكبير، فمصر والشام والكثير من البلدان العربية، ثم بلاد الأندلس، ففرنسا، ثم انجلترا، قبل أن يرحل لصقلية ويعيش فيها ابتداء من سنة 533 هجرية ، بدعوة من ملكها رُوجار، الذي استدعاه لمساعدته في أبحاثه الجغرافية، بعد أن ذاع صيت الإدريسي وعُرف كواحد من أكبر جغرافيي العالم في ذلك الوقت، فقد كان روجار يميل إلى الاستفادة من المسلمين الذين كانوا حاملي مشعل العلم والحضارة في البحر الأبيض المتوسط، واستفاد منهم الكثير من الملوك الأوروبيين في بناء نهضة أوربا العلمية.

مما قاله في كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" عن مدينة مراكش ":وَ هي في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير يسمى إيجليز .ومنه قُطع الحجر الذي بُني به قصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وهو المعروف بدار الحجر وليس في مَوضع مدينة مراكش حجر البتّة إلا ما كان من هذا الجبل."

توفي الإدريسى سنة 560 هـ /1160 م بصقلية عن عمر ناهز 61 سنة، ولحد الآن، تصفه الكثير من المواقع العالمية بمؤسس علم الجغرافية، كما أن تمثاله موجود بسبتة اعترافا بإسهاماته الكبيرة.

أ: التعريف بالرسائل

مجموع ما هو موجود من هذه الرسائل هو ثمان مراسلات نحمد الله أنها ضمت إلى بعضها البعض، فبقيت محفوظة على الصورة التي وصلتنا بها؛ فهي في أصلها مما كتبه أصحابها من علماء فاس بخطوطهم في وقت شبه موحد، لتنقل فيما بعد إلى جماعة المجاهدين المرابطين على ثغر سبتة، وتقرأ على مسامعهم، ولتؤدي وظيفتها في إثارة هممهم وترسيخ مفهوم الجهاد وبذل النفس في سبيل الله.

سبق للعلامة المنوني أن أورد في الجزء الأول من مصادره[133] أنه تعرف من هذه الرسائل ثلاث مجموعات مخطوطة، اثنتان منهما في خزائن خاصة، وواحدة بالخزانة الحسنية تحت رقم 6926. وما يعرف من هذه المراسلات اليوم هو مجموعتان مخطوطتان من ربائد الخزانة الحسنية بالرباط.

- **المجموعة الأولى** سابقة الذكر رقم 6926: وتقع في عشر ورقات لم يعرف ناسخها، وبها خروم كثيرة. وتضم سبع مراسلات كتبها كل من:

1 – محمد بن عبد الرحمان البكري الدلائي (ت 1141).

2 – أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي (ت 1164) .

3 –محمد بن أحمد بن المسناوي الدلائي (ت 1136).

4 – محمد بن زكري الفاسي (ت 1144).

5 – زاوية المخفية بفاس و شيخها آنذاك هو امحمد بن محمد بن معن (ت 1134).

6 – الطيب بن مسعود المريني (ت 1145). و 7 – كاتب لم يعرف بنفسه.

[133]– المصادر العربية لتاريخ المغرب 211/1.

- **المجموعة الثانية:** وتقع ضمن مجموع تحت رقم 14117:وقد جمعها بخطه شيخ الجماعة في وقته محمد بن قاسم جسوس، وهو أحد تلامذة الشيخ محمد بن زكري والشيخ محمد المسناوي المتقدمين. لذلك، فهو ينقل من خطوط شيوخه مباشرة. وقد صرح بذلك في نهاية بعض من تلكم الرسائل، نحو قوله آخر رسالة محمد بن عبد الرحمان الدلائي: «انتهى من خطه أدام الله علاه، وجعل الجنة مقره ومثواه».

وهذه المجموعة المخطوطة هي التي أشار العلامة المنوني إلى أنها كانت في خزانة خاصة. وقد انتقلت إلى خزانته، التي ضمت إلى الخزانة الحسنية بعد وفاته. وتضم هذه المجموعة، التي كتبت بخط مغربي واضح وجميل، ثمان مراسلات؛ سبع منها هي نفسها في المجموعة الأولى مع اختلاف في الترتيب، ثم مراسلة أخرى خاصة أجاب بها الشيخ محمد بن أحمد بن المسناوي أحد المجاهدين بسبتة دون أن يشير إلى اسمه.

ب: مضمونها وبناؤها

إن كُتَّاب هذه الرسائل –كما يظهر – هم نخبة من كبار علماء فاس، ومن رواد الحركة العلمية والأدبية في زمانهم. وقد كتبوا هذه الرسائل بهدف واحد وغاية مشتركة. فالرسائل وإن تفاوتت فيما بينها من حيث الطول، إلا أنها تجتمع في غرض واحد من حيث المضمونُ أوالبناء.

فمن ناحية المضمون، جاءت هذه الرسائل من أجل أن ترفع الروح المعنوية لدى المجاهدين الذين طال مكثهم محاصرين لثغر سبتة. وهي بذلك قد ارتكزت على إثارة العاطفة الدينية في نفوسهم بتذكيرهم بفضل الجهاد والحث على الإقدام على العدو مع بيان مكانة الجهاد في الإسلام وما ينتظر المجاهدين من الأجر والثواب العظيمين. ونلمس ذلك بوضوح في مجموعة من العبارات،نمثل لها بما جاء في على لسان الشيخ محمد بن عبد الرحمان الدلائي: «فالله الله يا أهل لا إله إلا الله، ويا أهل غارة الله، ويا حملة كتاب الله، ويا أمة رسول الله، بايعوا الله تعالى بهذه النفوس الفانية، والحياة المتقاضية، بالنعيم الأكبر الذي لا يفنى، والحياة الباقية والعيش الهني والملك الأسنى، وما أعد الله للمؤمنين من الرضوان الأكبر، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿إن الله

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيَقْتُلون ويُقْتَلُون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾».ويرتبط بإثارة العاطفة الدينية تحريك الحس الوطني عند هؤلاء المجاهدين باعتبار مدينة سبتة جزءًا من التراب المغربي الإسلامي الذي لا ينبغي التفريط فيه.

أما من ناحية البناء، فجاءت الرسائل في أسلوب شبيه بالخطب في بنائها الحجاجي والإقناعي، علاوة على كونها مسجوعة على عادة الكتابة النثرية في تلك المرحلة، نظراً لكون أصحابها من الأدباء المتمرسين بالكتابة الأدبية كالشيخ محمد بن زكري مثلاً صاحب التآليف الجليلة. وعلى مستوى اللغة والتركيب، اتسمت بالوضوح والخلو من الصناعة اللفظية المعقدة، ثم البعد عن التكلف والإطناب الذي لا فائدة منه. ولأجل تحقيق التأثير في نفوس المجاهدين وإقناعهم بقدسية الجهاد وفضل القتال في سبيل الله، فقد توسل أصحاب الرسائل بالحجج والشواهد الدينية من القرآن الكريم والسنة النبوية،وتعدى الأمر أحيانا في بعض الرسائل إلى جلب أقوال ومواقف السلف الصالح الذي استحق أن يكون مثالا يحتذى.

صورة عن نموذج خطي أصلي (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 14117)،من رسائل العلماء إلى المجاهدين المحاصرين لسبتة المحتلة وهو للعلامة الإمام الكبير، العالم الحجة

الشهير، الدراكة الحافظ المتقن، أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي، كانت ولادته بالزاوية البكرية من إقليم تادلا سنة(1072هـ)، في كنف أسرة اشتهرت بالعلم، والصلاح، والمشاركة السياسية.

ج: قيمتها التاريخية

إن القارئ لهذه الرسائل لن يفوته أن يسجل أهميتها التاريخية الكبيرة بالنسبة إلى تاريخ المغرب عموماً، وتاريخ سبتة خصوصاً؛ فهي:

- **أولا**: ترسم الوضعية التي آل إليها الجيش المجاهد المحاصر لسبتة، حيث إن طول مدة الحصار ولد لديهم تعباً شديدا، وربما تسلل اليأس إلى بعضهم؛ الأمر الذي احتيج معه شحذ هممهم وتشجيعهم على مواصلة الحصار، خصوصاً أن الحرب ما زالت مستمرة حتى بعد أن ييسر الله فتح سبتة، إذ ما زالت ثغور أخرى تنتظر الخطة نفسها، وعلى رأسها ثغر مليلية في أقصى الشمال الغربي، وثغر الجديدة في الجنوب.
- **ثانيا** : تبرز تضامن المغاربة عموماً وتآزرهم مع هؤلاء المجاهدين ودعائهم لهم بالنصر والتمكين، في كل حال وحين. وهذا نوع من الجهاد باللسان في مقابل جهادهم بالسيف و السنان. وقد عبّر عنه صراحة الشيخ المسناوي بقوله: «وهذا حظنا معكم بقدر الإمكان، وغاية ما نقدر عليه من إعانتكم في هذا الشأن. فأنتم جند السيوف، ونحن جند الكفوف، أي نمد إليه تعالى أكف الضراعة في نصركم وأنتم هناك بالجسوم والأشباح، ونحن معكم بالقلوب والأرواح»[134].ولعل ذلك رمز من الرموز القوية لتلاحم الشعب في مكابدة الهموم والفتن؛ وعلى رأسها الجهاد من أجل تحرير الأراضي المغتصبة من لدن الصليبيين. فكأني بهذه الرسائل تترجم قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح، فقد مس القوم قرح مثله﴾، أو تجسد قول الصادق الأمين: ﴿مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾.

[134]- مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 14117، ص 473.

- **ثالثا**: تصور موقف أهل فاس خاصة في إحساسهم العميق والصادق بمعاناة المجاهدين المحاصرين لسبتة. فنقرأ في الرسالة التي يسم كاتبها قوله: «فكل من بفاس يدعو لكم عند ضريحه في كل ساعة، وخصوصا بالغدو والآصال، فلا تسمع إلا عويل النساء، وتضرع الرجال، مادين أكف الرغبة، راجين أن يمن عليكم المولى بالفتح وتعجيل والأوبة»[135]. ونقرأ في الرسالة التي كتبها علماء زاوية المخفية قولهم: «فنسأل الله من فضله العظيم، وجوده العميم، وإحسانه القديم، أن يفتح على المسلمين ويردهم سالمين غانمين مأجورين، وقد وقع بكم الاهتمام، والناس يتضرعون إلى الله عز وجل في الليالي والأيام، حتى إن رئيس هذه البلاد، أخذ الله بيده هنا ويوم المعاد، اهتم من أجلكم غاية، وأمر الناس بالمبيت بالروضات والزوايا، وختم صحيح البخاري في مواضع عديدة، وقصد الناس مشاهير أولياء الله، وما زالوا على ذلك، سالكين تلك المسالك»[136].
- **رابعاً**: تشيد بماضي سبتة العظيم ومجدها الأثيل دينياً وعلمياً من خلال التذكير بأهم أعلامها ورجالها، ثم تصور ما آلت إليه المدينة على يد الصليبيين من تحويل المساجد التي كان يسمع فيها الأذان إلى كنائس تدق فيها النواقيس. وحسبنا أن نقرأ ما قيل في الرسالة التي لم يسم صاحبها: «فالله الله إخواننا في تلك البلدة، أنقذوها بكل ما تقدرون عليه من الإقدام والنجدة، فقد طال أسرها، وعيل صبرها، وكثيراً ما رفع النداء فيها بالتكبير على كل منار، وكانت مأوى الأماجد والفضلاء والأولياء والعلماء والأخيار، فاستبدلت بعد سرورها بِهِمْ وجهاً عبوساً، وعادت سعودها نحوساً، وعوِّض من الأذان بكل منار ناقوساً». ولنا أن نقرأ أيضاً ما قاله محمد البكري في رسالته: «قاتلوهم... حتى يكون الدين لله الحق، ويُدمغ باطلهم بصميم الحق، وتبدل النواقيس بالأذان، والكنائس والبيع بمساجد يعبد فيها الرحمان، ويخلص الله على أيديكم هذه البقعة من الكفر، و تستنقذوها إن شاء الله من بين ناب وظُفر، وتفتح بحول الله وقوته هذه المدينة التي طالما وهي أسيرة، وفي أيدي الكفار منذ زمان كئيبة حسيرة، بعدما كانت دار إسلام،

---

[135]- مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 14117، ص 454.

[136]- مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 14117، ص 457.

ومطالع شموس وأعلام، ومحافل تسبيح وتقديس فأين روضها الفائح، وكوكبها المنير اللائح، و عياضها الذي لولاه ما فاحت تلك الأباطح، وأين قطب العارفين بالله، ومناخ ركاب أولياء الله، سبتيها الشهير، أبو العباس الولي الكبير»[137].

صفوة القول، إذن، هي أن هذه الرسائل على قدر كبير من الأهمية حول تلك المرحلة التاريخية التي طال فيها الحصار بعد عدة فتوح وتنقلات للجنود بين ميادين القتال. فجاءت لتحريك مشاعر المجاهدين وإثارة حميتهم الجهادية بضرب الأمثلة واستحضار المشاهد والمواقف التاريخية لخيرة السلف الصالح، مع استحضار تاريخ سبتة الزاهر بمعالمه ومساجده، وكذا دور هذه المدينة في التاريخ العلمي في الغرب الإسلامي. ولا شك في أن مزيداً من البحث والتنقيب في خبايا التراث المغربي سيقودنا إلى وثائق دفينة أخرى ستسهم في تجلية صورة المرحلة، ومن ثم ولا ريب الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي بقيت معلقة، ولم يكشف اللثام عن حلها.

[137]- مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 14117، ص 440.

إفادة

هذا الكتاب للمؤرخ أحمد الرهوني (علامة و مؤرخ و أديب توفي رحمه الله بتطوان سنة 1953 م) و الذي نشرته جمعية تطاون أسمير في عشرة مجلدات ، من تحقيق الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي الدارس المعروف في الآوساط العلمية بحنكته وتمكنه وأيضا بإمساكه بناصية التحقيق العلمي الرصين والممنهج. و كتاب "عمدة الراوين " اهتم في مجمله بالتاريخ العام، وإن كان يتجاوز التاريخ الحَدَثي المقتصر على الأحداث السياسية الرسمية والعسكرية.. إلى محاولة صناعة تاريخ مجرّد لحاضرة تطوان قديما وحديثا من حيث التركيزُ على مختلِف خصيصاتها الثقافية الفردية والجماعية والاقتصادية والاجتماعية والإناسية واللغوية والحضارية.. بمعنى أن "العمدة" (عدد صفحات أجزائه المطبوعة 1423 صفحة) أدخل الحضارة التطوانية –المنبثقة من تفاعلات بين المغرب والأندلس والمشرق...– في دائرة المعلوم والمحفوظ ، وهو ما عَضَده فيما بعد المؤرخ محمد داود وغيره.

والكتاب متوفر للتحميل المجاني على موقع منتدى الثقافة العالمية KITABWEB وعلى الرابط: http://archive.org/download/3omdatRawin/3omdat-rawin-00.pdf

من وحي ندوة التاريخ الوطني لمدينة سبتة ودور سيدي طلحة الدريج

متابعة صحفية لأشغال الندوة: ذ. منتصر الخطيب

أنباء المغرب، الاثنين ، 17 أكتوبر 2016

في الصورة خلال جلسة افتتاح أشغال الندوة ، من اليمين إلى اليسار، الافاضل الأستاذ مصطفى الغازي الذي القى كلمة جمعية تطاون أسمير والدكتور جعفر بن الحاج السلمي الذي تراس أشغال الندوة والدكتور حسن المجدوبي ممثلا لجمعية سيدي طلحة ، وممثل المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بتطوان والذي ناب عن الدكتور مصطفى الكثيري في القاء كلمة بالمناسبة.

على غير العادة في إطلاع القراء على مضمون بعض الندوات والأيام الدراسية التي تابعتها سابقا، أثارت انتباهي المناقشة التي دارت بين الحاضرين في الندوة العلمية التي نظمتها جمعية تطاون أسمير وجمعية سيدي طلحة الدريج يوم السبت الماضي 15 أكتوبر 2016 بالقاعة الكبرى لبلدية تطوان، والتي ساهم في إثرائها ثلة من المتخصصين والباحثين في التاريخ والآداب لرصد جهاد سيدي طلحة الدريج كأحد أعلام منطقة الشمال المغربي ضد الاحتلال البرتغالي، في موضوع: "التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا ."

وقد استفاد الحاضرون من عروض متنوعة ساهم بها كل من: الدكتور ياسين الهبطي أستاذ باحث في تاريخ شمال المغرب والذي قدم عرضا بعنوان ''احتلال مدينة سبتة: الأسباب والعواقب''، والدكتور حميد الحداد أستاذ باحث في تاريخ تطوان، والذي ركز في عرضه على ''السياق الإقليمي والمحلي لظهور سيدي طلحة الدريج، والدكتور رشيد العفاقي أستاذ باحث، والذي تناول في عرضه موضوع ''جهاد سيدي طلحة الدريج لاسترجاع مدينة سبتة''، والدكتور عبد السلام الجعماطي أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين ورئيس وحدة البحث حول تاريخ سبتة، والذي تطرق إلى ''المقاومة الحوزية للوجود الاستعماري الإيبيري بسبتة السليبة''، وشارك في هذه العروض كذلك الدكتور محمد أملاح أستاذ باحث، والذي ركز في عرضه على الجانب الأدبي من تراث عصر الدريج في موضوع: ''من دفائن التدوين للتاريخ الوطني السبتي''، ثم الدكتور رشيد المصطفى عضو المجلس العلمي بتطوان الذي قارب في عرضه موضوع ''من أعلام المقاومة في الشمال للغزو الأجنبي للثغور المغربية – انطلاقا من نص مخطوط''، فيما قام بتسيير الندوة الدكتور جعفر بن الحاج السلمي أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.

وكانت الجلسة الافتتاحية قد عرفت كلمة كل من السيد مصطفى الغازي عن جمعية تطوان أسمير، والدكتور حسن المجدوبي عن جمعية

سيدي طلحة، وكلمة باسم المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير... وسأترك تفاصيل الحديث عن هذه المواضيع لغيري، باعتبار وعد الجمعيتين بطبع أشغال الندوة كاملة، وتغطية عدد من الصحفيين لأعمالها، لأفسح المجال لموضوع ذلك النقاش الذي دار في أعقاب هذه الندوة، والذي تركز على إثارة مسألتين في غاية الأهمية:

الأولى: حرصت الندوة على الدعوة إلى استرجاع ذاكرة الماضي المجيد للمقاومة الباسلة والدور الرائد للمجاهدين الأبرار وأعلام تطوان وسبتة وباقي تراب المنطقة، وخاصة منهم سيدي طلحة الدريج السبتي التطواني، وإبراز دوره في قيادة حملات تحرير سبتة. وهو ما أثار ثلة من المتدخلين لمساءلة الباحثين عن سبب إغفال تاريخ أعلام المغرب ورجالاته وخاصة بمنطقة الشمال، فالقليل من سكان هذه المنطقة من يعرف سيدي طلحة الدريج ودوره في الجهاد المغربي ضد الاحتلال البرتغالي، بل العديد من سكان الحي المسمى باسمه (حي سيدي طلحة) لا يعرفون عن هذا المجاهد إلا اسمه المرتبط باسم الحي أو ضريحه الذي يوجد خارج باب النوادر.. مما يدعونا إلى ضرورة التفكير في التعريف بهؤلاء القادة كسيدي المنظري أو سيدي أحمد بنعجيبة أو غيرهم من المجاهدين بشمال المغرب، ودورهم في الجهاد ضد المستعمرين، وجعلهم مادة في النصوص القرائية في المناهج والمقررات الدراسية المعتمدة من طرف وزارة التربية الوطنية، وإشراك المندوبية السامية للمقاومة في التعريف بهم من خلال عقد الندوات وتنظيم الأيام الدراسية حولهم .

المسألة الثانية: شهدت الندوة كذلك إثارة مسألة ضرورة دعوة المغرب عبر سياسييه وأحزابه للمطالبة الحثيثة باسترجاع أقاليم سبتة و مليلية والجزر التي ما زالت بيد الاستعمار الإسباني. خاصة وأن التاريخ يشهَدُ – تاريخ ما قبل الإسلام وما بعده – بِمغربيَّة مدينة سبتة، والتي استمرَّت مغربيتها على مرّ العصور، حتَّى هاجمَتْها الحملة الصليبية بزعامة البرتغال، واحتلَّت في 14 جمادى الثانية من عام 818هـ الموافق لـ21 غشت

1415م، أيام أبي سعيد المريني، قبل أن تنتزعها منهم إسبانيا بالحيلة، والتي ما زالت تتجاهل مطالب المغرب باسترجاعها .
كما طالبت الندوة بالدعوة كذلك للاهتمام أكثر بباقي الأحواز المجاورة لمدينة سبتة والممتدة إلى كل من تطوان وشفشاون؛ سواء الحوز البحري أو الحوز الصديني الممتد عبر قبائل أنجرة ووصولا إلى مدينة طنجة، باعتبارها كانت المهاد للحركات الجهادية، وعلى رأسها حركة جهاد سيدي طلحة الدريج. كما تدخل عدد من قاطني المدينة للتذكير بما يعانيه السكان المغاربة القاطنون بسبتة من تهميش على مستوى تدخل وزارة التربية الوطنية ووزارة الأوقاف – وخاصة عند الشباب – لتحسيسهم بأهمية هذه القلعة الحصينة — سبتة – كمعبر بحري هام في المنطقة، مما جعلها عرضة للاحتلال، وإبراز دورها في المقاومة ضد التدخل الأجنبي البرتغالي والإسباني عبر التاريخ .
ولعل لهتين المسألتين أهمية بالغة في تحسيس المواطنين والنخب الثقافية على الخصوص بأهمية النبش في الورقات التاريخية للمقاومة الشمالية، وهو الهدف الذي ضمنته الورقة التعريفية لهذه الندوة حول جهاد أحد أعلام المنطقة واسترجاع ذاكرة الماضي المجيد للمقاومة الباسلة، بل وفي تعمير المنطقة وازدهارها وفي تأصيل الوعي الوطني، والتنويه بالروح الوطنية لدى المغاربة الأحرار في الدفاع عن دينهم وهويتهم ووحدة أراضيهم واستقلالها، وتقديم المعلومات التاريخية والحقائق العلمية وتقديم العبرة والقدوة الحسنة لجيل اليوم، من أجل بناء مستقبل يحافظ على الهوية المغربية ويتمسك بالثوابت الوطنية.. وهو ما ذكره الدكتور محمد الدريج —الرئيس الشرفي لجمعية سيدي طلحة الدريج – في الكلمة الاختتامية لهذه الندوة، مبرزا دور تطوان وأعلامها في الجهاد لتحرير الثغور المغربية، خاصة دور سيدي طلحة الدريج السبتي التطواني في قيادته لحملات تحرير مدينة سبتة وأحوازها.

جانب من الجمهور المتتبع لأشغال الندوة ، ووسط الصورة السيد محمد الدريج رئيس الجمعية سليل المجاهد سيدي طلحة، والخبير في الأعشاب الطبية، بلباسه المغربي التقليدي الأصيل وبطموحاته الكبيرة للمساهمة بفضل العمل الجمعوي ،في التنمية الشاملة لبلدنا و تعميق المشاعر الدينية وقيم الحوار والتسامح والتعاضد بين أطياف المجتمع و بين الشعوب جميعا .

لقطة للقاعة الكبرى لبلدية تطوان الأزهر، تتوسطها منصة الاساتذة المحاضرين في الندوة وتزينها لوحات حائطية جميلة تشخص مظاهر أصيلة من حياة تطوان المدينة الأندلسية العامرة وباديتها والنواحي والتي شكلت دوما القاعدة الخلفية للجهاد والمقاومة للحفاظ على استقلال المغرب ووحدته.

لقطة رائعة أخرى ، للقاعة الكبرى لبلدية تطوان ،حيث يبدو جانب من الجمهور المتتبع باهتمام لاشغال الندوة، من أساتذة وطلبة ومهتمين وعموم المواطنين من ساكنة تطوان والنواحي من مدن مارتيل والمضيق وشفشاون وطنجة وفاس والرباط وسبتة ...والذين غصت بهم القاعة.

تطوان تسترجع التاريخ الوطنى لمدينة سبتة في شخصية سيدي طلحة الدريج

تغطية صحفية من إنجاز : نزار الدكار – صدى تطوان

احتضنت قاعة الجماعة الحضرية بتطوان يوم السبت 15 أكتوبر 2016 ندوة علمية من تنظيم كل من جمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث، وجمعية تطوان أسمير للتنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والرياضية، في موضوع: "التاريخ الوطني لمدينة سبتة والدور الريادي لأعلام تطوان: سيدي طلحة الدريج نموذجا."

هذه الندوة العلمية قام بتسييرها الدكتور جعفر بن الحاج السلمي أستاذ بكلية الأداب والعلوم الانسانية بتطوان. وعرفت في جلستها الافتتاحية كلمة كل من السيد مصطفى الغازي عن جمعية تطوان أسمير، والدكتور حسن المجدوبي عن جمعية سيدي طلحة، لتختم الجلسة الافتتاحية بكلمة باسم المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

الجلسة الثانية عرفت مجموعة من المداخلات التي قامت بوضع سرد كرونولوجي لتاريخ مدينة سبتة ودور شخصية سيدي طلحة الدريج باعتباره قائدا ومقاوما شرسا وسليل بيت الجهاد والمجاهدة ...

–المداخلة الأولى: الدكتور ياسين الهبطي بعنوان "احتلال مدينة سبتة، الأسباب والعواقب"

–المداخلة الثانية: الدكتور حميد الحداد بعنوان "السياق الاقليمي والمحلي لظهور سيدي طلحة الدريج"

–المداخلة الثالثة: الدكتور رشيد العفاقي "جهاد سيدي طلحة الدريج لاسترجاع سبتة"

–المداخلة الرابعة: الدكتور عبد السلام الجعماطي "المقاومة الحوزية للوجود الاستعماري الإيبيري بسبتة السليبة"

-المداخلة الخامسة: الدكتور محمد أملاح "من دفائن التدوين للتاريخ الوطني السبتي"

-المداخلة السادسة: الدكتور رشيد المصطفى "من أعلام المقاومة في الشمال للغزو الأجنبي للثغور المغربية،" ومسك الختام كان مع الدكتور محمد الدريج الأستاذ الباحث في علوم التربية بجامعة محمد الخامس بالرباط الذي ختم هذه الندوة العلمية القيمة.

في الصورة الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي استاذ الأجيال والذي ترأس اشغال الندوة وأدارها بالكثير من الحرفية والحكمة وعلى يمينه الدكتور محمد ياسين الهبطي في مداخلته المتميزة بعنوان "احتلال مدينة سبتة، الأسباب والعواقب".

في الصورة الدكتور محمد أملاح الاديب المتميز و المحقق الفذ وهو يغوص في تحليل وتقويم متون الكتب والوثائق التاريخية التى تخلد مغربية مدينة سبتة المحتلة وتضحيات المجاهدين الأبرار لاسترجاعها، وعلى يمينه المؤرخ الألمعي و المختص في تاريخ أقاليمنا الشمالية الدكتور رشيد العفاقي والذي يعود له الفضل فى تحقيق ونشر الكتاب المخطوط لأبى الربيع سليمان الحوات" المسك الأريج في أخبار أولاد الدريج".

صورة ختامية جمعت الأساتذة المحاضرين فى الندوة بعدد من أحفاد المجاهد سيدي طلحة الدريج وبعض الحضور الكرام وعلى أقصى اليسار وقوفا ،الفاضل عبد السلام الشعشوع الرئيس المنتدب لجمعية تطاون أسمير بوقاره المعتاد ،والذي كان له الفضل فى نجاح أشغال الندوة و يعتبر المهندس الشعشوع ، هذا الاعلامى الفذ ، من الأوائل الذين قدموا النشرة الجوية على شاشة التلفزيون بل وقام بذلك لمدة تقارب 39 سنة الى درجة أن الكثير من المغاربة لا يكادوا يفرقون بين النشرة الجوية ومبدعها عبد السلام الشعشوع، وجلوسا بالقرب منه ،الفاضل جعفر بنعجيبة سليل العالم السبتى الصوفى المجاهد سيدي احمد بنعجيبة دفين مدشر الزميج ، حيث ينظم موسمه السنوي الكبير، ويبعد على مرمى حجر من مدشر البرج بملوسة، حيث ينظم سنويا موسم المجاهد سيدي طلحة الدريج بالقرب من خلوته.والأستاذ جعفر بنعجيبة هو مؤلف كتاب "سبتة ومليلية .. حتى لا ننسى"، رفقة الفاضل محمد المعزوزي ، منشورات الهلال، الرباط ،1986.

الجزء الثاني

دراسات وقراءات مختارة

مفهوم الجهاد وتعميق الوعي الوطني ردا على الادعاءات الاستعمارية

للدكتور حسن الفكيكي

نعد من عدم الإنصاف لتاريخ المقاومة المغربية و الوعي الوطني ، الإعراض عن التذكير بالجهود المبذولة في هذا السبيل النبيل منذ ما قبل الفترة المعاصرة.
فالشمال الغربي المغربي ومن ورائه الإجماع الوطني ، من المناطق المغربية الأولى التي شرفت البلاد بالكفاح والنضال من أجل صيانة التراب الوطني.
ولا ننس من جهة أخرى أن مقاومة الوجود الاستعماري بالشكل الذي نعرفه في الفترة المعاصرة كانت بذوره الأولى قد غرست أول مرة بتراب (15م.) و نخص من تلك الثغور مليلية بالشمال الشرقي و سبتة بالشمال الغربي.
وهناك سبب أساسي يدعونا لطرح موضوع الوعي الوطني بصورة ملحة، يمكن فيما أثارته الكتابات الأجنبية بصيغة مريبة، وعلى شكل نظرية مدسوسة و مفروضة، علاوة على أن هذه النظرية مازالت قائمة لدى بعض المتخصصين في تاريخ الفترة المعاصرة.
تمثلت تلك الصيغة المريبة في نفي أسبقية ظهور ميلاد الوعي الوطني المناهض للتدخل الأجنبي نفيا قاطعا من جهة ، و تأخير ظهوره إلى آخر القرن الماضي أو بداية القرن 20 من جهة ثانية [138].
فتلك أطروحة أجنبية كنا فيما سبق نقرأها على مضض ، ولكن الباحث المغربي يستطيع اليوم ردها الى دواعيها الحقيقية و أسبابها السياسية الاستعمارية. و

[138] الاشارة الى ما كتبه أمثال : André Leblan : la politique europeanne au maroc a l'epoque contemporaine .Paris 1906 ,Augustin Bernard : Le Maroc.Paris 1921

نستطيع الآن إبطالها ودحضها بالشهادات و الأمثلة على مر الحقب المتعاقبة من مستهل القرن التاسع الهجري الى الوقت المعاصر، و آنذاك فقط سيكون الاعتبار قد رد إلى صوابه.

يتطلب بسط قضية الوعي الوطني في البداية تصحيح بعض المفاهيم المتعلقة بالموضوع. وهذا عمل ضروري لإبعاد الالتباس و الشكوك حول ما ندلي به من تأكيد أقدمية الوعي و الشعور الوطنيين المناهضين للغزو الأجنبي[139]. وكما أسلفنا جاءنا الالتباس من الكتابات الأجنبية غير المنصفة، من التي نعد أصحابها من أنصار :

- منطق السيبة الذي لا يمنح لنظام الدولة أي معنى ، بل ولا يعتبره من عناصر حياتها السياسية ، لينتهي القول اثر ذلك الى أن تاريخ بلادنا ليس سوى حلقات متتالية من حكم القبلية و الجهوية.
- مغرب حكمته العصبيات الأسرية المتعاقبة، لم يعرف للترابط ووحدة الشعور و الأهداف طعما ولا معنى أي لا علم له بمفهوم الوحدة الوطنية و القومية[140].

و الواقع أن الحيرة قد تملكت الدارس المغربي في بداية الأمر أثناء البحث عن استحضار الشهادات لمواجهة الأطروحة الأجنبية. وقبول الأطروحة الأجنبية. وقبول الأطروحة الاستعمارية على مضض في مستهلها ناتج عن ندرة ما وصلنا من المعلومات التاريخية عن الثغور المحتلة. و الآن وقد تمكن البحث التاريخي بجامعاتنا من فرض نفسه أصبح في وسعنا تقديم الحجج الكافية و الأمثلة الوافية لتبديد تلك الشكوك و تصحيح النظرية الأجنبية الخاطئة و المغرضة.

من مآخذ الفترة السابقة للقرن العشرين حسب الكتابات الأجنبية، أن تاريخ المقاومة المناهضة للغزو الأجنبي لم يرق إلى مستوى الوحدة و الوعي الوطنيين، بدليل عدم تداول لفظ الوطن بسجلات تاريخنا قبل القرن العشرين ، أي أن لفظ الوطن لم يدخل في قاموسنا التاريخي إلا في الفترة المعاصرة. وهذا بالطبع مخالف للواقع تمام المخالفة إذا اختبرنا ما جاءت به مصادرنا.

---

[139] سبق للأستاذ محمد المنوني ومحمد حجي وجرمان عياش أن تحدثوا عن أقدمية الوعي الوطني و تجذره.

[140] المراجع السابقة

فماهي النتائج المحصل عليها في هذا الموضوع؟
إذا كانت مصادرنا قد تأخرت للإعلان عن ظهور لفظ الوطن إلى الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري (17م) ، فإننا نفسر ذلك التأخر بأمرين اثنين[141] :

- ننبه أولا أنه لا يمكن اعتبار تاريخ ظهور اللفظ دليلا قاطعا على نقطة بداية تداوله، بل علينا أن نفكر في وجود البون الزمني الفاصل بين دخول الألفاظ في طور التداول وبين إتاحة فرصة ظهورها مسجلة على صفحة من الصفحات التاريخية و الأدبيات الأخرى.
- و يتطلب منا الأمر الثاني التعمق أكثر في الموضوع بالصورة التي لا نبقى فيها سجناء الألفاظ، فمن المعلوم أن للألفاظ أيضا تاريخها و عصرها، و بالمقابل ينبغي التطلع بإلحاح إلى اكتشاف عمق الدلالة.

وحينما نبحث في مصادرنا عن دلالة الوطن وما يفيد معناه نجد أن أهل ما قبل القرن الحادي عشر الهجري (17م) ، غلب عليهم استعمال ألفاظ : البلاد، بلاد المسلمين، وبلادنا ودار المسلمين ودار الإسلام ، وبعد أليس هذا هو السائد لدينا أهل هذا العصر؟
إن استعمال تلك الألفاظ بدلالتها بارز على لسان رؤساء المقاومة بالشمال الغربي منذ بداية أمرها اثر احتلال سبتة عام 1415/818[142] ، متداول على لسان رؤساء الجهاد من أهل القرن التاسع الهجري ، بدءا من الرئيس عب بن محمد المجسكي الشهيد في ميدان سبتى عام 1419/822 [143] وما جاء على لسان كل من المجاهد أحمد بن بن سلام بن مرزوق المجسكي، الشهيد عام 1430/834 [144] وما نعرفه عن فقيه مصمودة الأنجري من تصريحات سنة

[141] يعود الوقوف على تداول لفظ الوطن الى رسالتين صادرتين عن المجاهد محمد العياشي سنتي 1040 و 1041 هـ. 1631/1630 م.
[142] مثال ماذكره زورارا من خطاب المجاهد أحمد بن سالم بن مرزوق أمام مجاهدي ناحية تطوان و أنجرة حوالي عام 1428/832 ، مما ستقف عليه لاحقا في مكانه. (D.Duarte de Meneses. P69 Cronica do) انظر "أطروحتنا عن مقاومة الوجود الايبيري بالثغور المغربية الشمالية المحتلة" مرقون ، الرباط 1991، 158/1.
[143] رئيس المجاهدين سنة 1415/818 و 1419/822.
[144] قائد المجاهدين سنة 1430/834.

1461/866[145]. وهذا هو المعروف عند الفقهاء و الحكام و المسجل على لسان كتاب الجهاد على الرغم من قلة ما لدينا من تلك المادة.[146] ولن يتم التعرف على دلالة ما ذكرنا من أشكال التعابير المرتبطة بالوطن إلا إذا توصلنا إلى دلالتها الجغرافية المتداولة خلال العصور.

فحينما نبحث عن المدلول الجغرافي للفظ البلاد " نجد أن أهل العصر لم يكونوا يعنون من العصر المريني غير حدود المغرب الأقصى، أي الحدود التي تشكلت منذ تفكك وحدة الإمبراطورية المغربية في منتصف القرن الثامن الهجري، وأصبحت تلك الحدود ثابتة راسخة منذ فشل سياسة أبي الحسن المريني في شرق المغرب الكبير وجنوب الأندلس[147]. فإلى هذا الحد الجغرافي لدولة المرينية نرد دلالة لفظ البلاد وا رافقتها من مفاهيم موازية.

و بالتوصيل إلى الدلالة الجغرافية الأولى، أي وجود مساحة أرضية ذات حدود معلومة منتمية الى كيان سياسي معين نحصل على الأساس الأول المفترض من شروط ما ندعوه بالقومية. وسرعان ما تجتمع لدينا باقي العناصر الأخرى من الديانة و اللغة و التقاليد و المصالح المشتركة لتكتمل أصول القومية المغربية[148].

و النتيجة المستخلصة من كل هذا أن ظهور القومية المغربة يعود الى العصر المريني الثاني.وإذا لم تكن هناك دواعي شديدة الإلحاح لبروز القومية بشكل لافت للأنظار، فما كان لها أن تتوارى خلال الأزمات الخطيرة التي شهدتها البلاد بساحاتها الشمالية الغربية ، نتيجة التدخل الأجنبي في عدد من أجزاء ترابها.

وخير مثال نقدمه دليلا على ما نقوله قصيدة طويلة نظمها في الموضوع، مؤرخ الوعي الوطني ابن يجبش التازي في قصيدة طويلة يكفي لنا ذكر البيتين التاليين

---

[145] المجهول فقيه قرية الخراب الأنجري سنة 1462/867

[146] نقل أزورارا نفس المعنى مما ذكره عن فقيه أنجرة وشيخ قرية الخراب الذي نجهل اسمه عام 1436/867 . (Cronica . do D Duarte de Meneses.P316.317). أنظر " أطروحتنا : مقاومة الوجود الايبيري بالثغور المغربية الشمالية المحتلة ، مرقون الرباط، 199 258/1

[147] نقصد بالإشارة الأخيرة انهزام الأسطول المغربي بمعرة طريف جنوب الأندلس عام 1341/748

[148] محمد حجي، جولات تاريخية . 545/2 . بيروت 1995. جرمان عياش ، الشعور الوطني في مغرب القرن التاسع عشر. تعريب عبد العزيز خلوق التمسماني و أحمد الأمين البزاز . جريدة العلم 1980/2/19..

منها [149]:

وشاركنا الأعداء في قطر غربنا
وقد أخذوا جل البلاد البهية
ولم يقنعوا ما سبوا من بلادكم
وإخوانكم في حين تلك القضية

كما نطرح في نفس السياق مفهوم الجهاد للمناقشة قصد إبعاد بعض الالتباس الذي أحاطته به الكتابات الأجنبية حينما أوهمت أن ما قام به المغاربة في نطاق التصدي للأجنبي هو من جنس التعصب الديني وليس من قبيل الدفاع عن القومية وحرمة التراب الوطني.

و التاريخ يشهد أن لمفهوم الجهاد وغايته دلالتين متمايزتين، قديمة وحديثة، الفاصل بينهما بالمغرب بصفة عامة و الشمال الغربي الذي نحن بصدده بصفة خاصة، هو تاريخ دخول مدينة سبتة في حوزة السيطرة البرتغالية، ابتداء من سنة احتلالها.

- فالمجاهد بمغرب ما قبل احتلال سبتة كان أسلوبه ينحصر في الانضباط تحت لواء سلك الغزاة بالأندلس خارج حدود وطن المغرب الأقصى على عهد دولة بني نصر، استجابة لرباطة التضامن الإسلامي، فكان المغربي آنذاك مجاهدا حسب المفهوم القديم [150].
- وابتداء عن سقوط سبتة أصبح المغربي ملزما بالدفاع عن عقر داره بمحاربة المتسلط على أرضه وأهلها، كان في وضع يحارب فيه بكل ما توفر لديه من الوسائل و الإمكانات الضعيفة ، حماية لدينه وتقاليده وكيانه من التلاشي و الاندثار. فالمغربي في تلك الفترة كان مجاهدا حسب المدلول الحديث ولا علاقة له بالمفهوم القديم. وبذلك المعنى لم يكن مدلول الجهاد الوارد في مصادرنا الخاصة بالفترة التالية لاحتلال سبتة سوى المرادف لما نستعمله اليوم بمفهوم المقاومة المسلحة.

---

[149] أبو بكر البوخصيبي ، أضواء على ابن يجيش التازي البيضاء 1976، ص .176م

[150] أنظر ما ذكره ابن خلدون عن سلك الغزاة بالمجلد السادس من كتاب العبر

ولابد من العودة إلى ما تعلق بلفظ الجهاد من سوء فهم الكتابات الأجنبية، إذ أن المفهوم لديها مرادف لحرب الإسلام للمسيحية و المسلمين للمسيحيين. ويأتي الالتباس أولا من عدم إدراك أن المقاوم المغربي مجاهد بمفهومه الحديث، وثانيا من كون الواقع المفروض عليه هو تجريد سلاحه في وجه الدخلاء الايبيريين الصليبيين دون غيرهم. ويأتي خطأ الفهم أيضا من عدم استساغه أن المغاربة يحاربون أيا كان من المعتدين على حرمة ترابهم، ولاشيء للدين في ذلك من التخلي عن هذا المبدأ. و الأمثلة التاريخية كثيرة متوفرة بالنسبة لجميع المراحل سواء قبل احتلال سبتة أو بعده[151].

هذا هو مفهوم الجهاد الذي ينبغي أن ينطبق على جهاد المغاربة بالثغور الشمالية المحتلة، الموازي لمدلول المقاومة بكل حيثياتها و أصولها. وينبغي تبعا لذلك صرف النظر عن المدلول الظاهري الوارد في مصادرنا للفظ «النصارى" الذي لا يعني مطلقا عموم المسيحيين، بل يخص منهم أولئك الغزاة المتسلطين على التراب الوطني مما لا حق لهم فيه.

وتبعا لذلك فان دعوة الجهاد ضد نصارى الثغور لم تكن تعني سوى تعبئة العمل الجماعي للمقاومة المغربية لإجلاء الأجنبي من مواطن احتلاله. و اعتبارا لتلك المعطيات فان الظروف المحيطة بالشمال الغربي المغربي هي التي جعلته على الرغم منه مجاهدا بما أبداه من مقاومة بميدان سبتة المحتلة مهد الوعي الوطني.

وإذاشئنا وضع تقسيم وفق أهداف المقاومة و أساليبها و نتائجها ، فسنستحضر في المقام الأول فصلا قصيرا من المرحلة الأولى زمنيا بمعركة وادي المخازن. وداخل هذا الإطار الزمني سينصب التفاف الوعي الوطني حول مدينة سبتة [152] و الدفاع المغربي عن طنجة سنة 1437/840[153]. و بالطبع فان إدماج طنجة في الحديث المخصص لسبتة عائد إلى محاولة المغرب المريني استغلال الانتصار الحربي بميدانها لصالح قضية المدينة المغربية المحتلة.

---

[151] من تلك الأمثلة دفاع المغرب عن سبتة ضد الاندلسيين قبل سقوطها بيد البرتغاليين ، ومثال حماية الأراضي المغربية من الزحف التركي الجزائري.

[152] احتلالها يوم الاربعاء 14 جمادى الثانية 21/818 غشت 1415 . أنظر أطروحتنا مقاومة الوجود الايبيري ، 41/1

[153] حملت القوات البرتغالية برا وبحرا على طنجة منذ يوم 12 ربيع الاول عام 13/841 شتمبر 1437. انظر أطروحتنا ، 179/1.

أمثلة عن التضامن الإقليمي والوعي الوطني:

وقفنا على مثال للتضامن الإقليمي في صورة مصغرة،حينما احتشدت جموع آتية من الإقليم ومن خارجه في آخر نوفمبر من سنة احتلال سبتة (1415)، نتيجة للدعوات التي أرسلها رئيس المجاهدين عبد الله المعروف بعب بن محمد المحكسي إلى مختلف الجهات. ويبدو أن مكاتبة شيوخ القبائل وذوي النجدة و المرابطين استمر العمل بها بعد ذلك التاريخ أيضا.

وقد أثبتت لنا حوليات حاكم سبتة أن الحركة الجهادية لم تتوقف منذ أواخر سنة 818هـ ، (مستهل سنة 1416 ميلادية) لتستمر طوال نفس السنة على أشدها، بفضل ما توصلت به الحركة الجهادية من مساعدة اقليمية ووطنية. فما هي الخصائص العامة لهذا التضامن الوطني ؟

من المؤكد أن الشعور بالتضامن الموجه لمقاومة الوجود البرتغالي بسبتة عاد الى الظهور مرة ثانية، بعد التعبير عن وجوده مرة أولى اثر احتلال المدينة. كان ذلك بفضل الدعوة التي وجهها عبد الله (عب) بن محمد، وا قام به رجال الدين و العلماء في مختلف الجهات.

وفي هذا الصدد علمنا، منذ بداية سنة 1416 ميلادية باهتمام عبد الله المحكسي للاتصال بمختلف شيوخ القبائل المتواجدين بالاقليم. بدأ بالكتابة الى شخص يدعى جبور أو جابر (Xeber , Xebu) ، وهو شيخ وادي الرمل الأنجري ومن الشخصيات الهامة بالمنطقة . ومنذ ذلك الحين أصبح جابر الساعد الأمن لعبد الله في شؤون الجهاد. وشرع الاثنان في مكاتبة شيوخ القبائل يطلبان منهم القدوم الى ميدان سبتة بأوفر ما لديهم من الفرسان و المشاة[154] .

واذا كنا لا نجهل الدور الهام الذي ألف العلماء ورجال الدين الاضطلاع به في مثل هذه الظروف ببلادنا عامة ، فاننا سنبقى عاجزين كل العجز عن الكشف عن قائمة أسماء المساهمين في الدعوة الى الجهاد و نوعية الأساليب المستعملة لتلك الغاية. فلا ندري مثلا دور رجال الزاوية المشيشية الشاذلية المتمركزة بجبل العلم.

---

[154]- Azurara , C.do D.Pedro,chap.47, pp.362-363.

كما أننا لن نحصل على بعض أسماء فقهاء المنطقة الا بعد سنة 1430، ولا شيء يدل على أن هؤلاء كانوا من المشاركين في الدعوة، وان كان الأمر جد محتمل.

نعرف من بين هؤلاء سيدي موسى (Side Muz) ، أكبر فقهاء مصمودة ، و الفقيه أحمد (Ameude)، وفقيه طنجة المدعو باسم لم نتوصل لرده الى أصله، اذ أن أزورارا سماه Bellarado.

ونجد أحسن الأمثلة، فيما يمكن استنتاجه من الدور البطولي الأخير الذي قام به فقيه بني معدن ، حين استشهد هو وجماعة من طلبته، أثناء الغارة البرتغالية على القرية سنة 1436. ونستطيع أن نضيف أيضا ما لمح به أزورارا مبينا أن الفقيه كان من أشهر علماء المنطقة ، يستقبل الطلبة من جميع الجهات، للتزود بما هم في حاجة اليه من العلوم.

و النقطة المحتاجة الى مزيد من الاهتمام هي المرتبطة بوجود عدد من مجاهدي الجنوب الغربي المغربي من قبيلة جزولة ، التي كانت بدورها تحت تأثير الطريقة الشاذلية، فعن هؤلاء قول أزورارا : " جاء هؤلاء المسلمون من جهة جزولة ، ولم يأتوا بأكثر من 12 أو 13 فارسا ، قدم أغلبهم تلبية لنداء عبد الله ."[155] وفي هذه الفترة التي نؤرخ لها كان مقدم الجماعة الجزولية هو الشيخ عبد الرحمان (Auderame) ، وقد أضفنا اليه لقب الجزولي، وسيتم التعريف بنشاط الجماعة التي ترأسها في كتابنا "سبتة المغربية".

وفي صدد البحث عن النتائج التي حصلت عليها حركة المقاومة نجد أن الشعور بالتضامن و الوعي الوطني كانت جذوره ممتدة نحو الجنوب الغربي بمشاركة جزولة، و الجنوب الشرقي بتطوع رجال تافيلالت، فضلا عما توصل به الميدان من مشاركة أقاليم مملكة فاس المرينية.

وبفضل هذا الشعور والوعي الوطني الذي حملته مختلف الوفود الواردة على ناحية مجكسة توالت على سبتة عدة حملات، لم يكن أصحابها يرجون الحصول على أكثر من نيل حظوة المشاركة في ساحة الجهاد، وصيانة حرمة البلاد من الاعتداء

155- Azurara , C.do D.Pedro,2/chap.2, p486.

الأجانب.
تركزت تلك الحملات في ربيع سنة 1416/819، خاصة خلال شهري ربيع الأول و الثاني ، أبريل وماي. و الجدير بالملاحظة ، هو ما طرأ على القوة الجهادية من التحسن، من حيث عدد المشاركين. فعدد الفرسان قفز من لا شيء الى أن تراوح بين 1.500 و 2.000 بينما تصاعد عدد الرجالة من 2.000 الى بين 15.000 و 25.000..
و بالطبع تقدر أهمية تلك الأعداد و فعاليتها من خلال مدة بقائها بالميدان، ونوعية المشاركين.
فمن المعلوم أن هؤلاء المشاركين كانوا من المتطوعين، مما يدخل في سلك ما نطلق عليه بالمقاومة الشعبية. فغياب السلطة المركزية الرسمية كان تاما لأسباب داخلية. ولذلك فان البقاء بالميدان كانت مدته جد محدودة، لا تتجاوز اليومين حسبما أمكن استخلاصه، يحدده عادة انتهاء المناوشات باستشهاد قائد الحملة[156].
نجد أهم الأمثلة في الحملة التي قادها سبعة مقدمين من بني مرين وبرفقتهم أحد الفقهاء. فنحن نعلم من خلال تمحيص ألفاظ بعض العبارات ، أن رجال الحملة جاءوا من أقاليم مملكة فاس، إذ أن أزورارا استعمل عبارة مملكة الغرب. ونعرف كذلك أن الرؤساء السبعة ليسوا قوادا من الجيش المريني، بالرغم من أنهم مرينيون. فأزورارا ذكرهم بصفتهم مقدمين (Juizes)، وهذا تنظيم حربي شعبي راد به رئيس الجماعة الممثلة لمحاربي القبيلة.
وبناء على ذلك فان عدد القبائل الممثلة في ميدان سبتة هو سبع قبائل على الأقل . غير أن عدد المحاربين المذكورين من طرف أزورارا كان كبيرا جدا، يفوق طاقات عدد القبائل المذكورة. وبناء على ذلك فان عدد 2.000 فارس و 25.000 من الراجلين، يمثل أيضا عددا آخر انضاف الى ما ساهمت به القبائل السبع[157]
وعرف شهر ربيع الثاني ، (ماي) حركة مماثلة، تمت خلاله غارتان. الأولى

[156] - Azurara , C.do D.Pedro,chap.35, p.129; chap.27.pp.100.
[157] - Azurara , C.do D.Pedro,chap.35, p.130.

نظمتها قبائل اقليم سبتة، حينما لبت دعوة عبد الله (عب) الى الجهاد، ومنها قبيلة بني حزمار (luzmara)، المستقرة آنذاك بين أنجرة وطنجة، ثم بني عروس (benaros) ضمن قبائل الاقليم التسع، المعروفة في بداية القرن الخامس عشر، فتم جمع 16.500، وضمن هذا العدد يدخل الفرسان البالغ عددهم 1.500 فارس.

و تعرضت سبتة لهجوم آخر ف يوم 11 ربيع الأول علم 819 ، 9 ماي 1416 ، ترأسه قائد من المشاة. قدم القائد، حسب تدير بحارة سبتة ، بعدد يساوي 2.000 فارس وعدد لا يحصى من المشاة. الا أنه لم يقتحم الميدان سوى 450 أو 500 فارس. وحسمت المناوشة خلال نصف يوم باستشهاد زعيم المحاربين. وربما الى أحد تلك الهجومات أشار صاحب التقييد الذي نقله أحمد الشراط[158].

هناك حملة أخرى تعرفنا عليها لأول مرة ، بعثت بها مدينتنا طنجة و أصيلا و أحوازهما، وهاتان المدينتان كانتا تحت تصرف صالح بن صالح آخر حكام سبتة المغربية . وهناك ما يجعلنا نميل الى أن الحملة كانت بايعاز منه ، اذ أننا وجدناه قبل هذا التاريخ شديد الاهتمام بايقاظ همم المتنازعين على الملك من بني مرين، بدعوتهم الى الألفة وخلع عار الوجود الأجنبي عن سبتة . وبفضل ما انضاف الى رجال طنجة و أصيلا من أهل جبال مصمودة (أنجرة) بلغ العدد الظاهر أمام سبتة 300 فارس و 15.000 من الراجلين[159].

و النتيجة العامة لهذه التعبئات الأولى على الصعيدين الاقليمي و الوطني ، أن رجال المقاومة استطاعوا لأول مرة اختراق حاجز طلائع جزيرة الرملة، بل الوصول الى حفير السهاج، ومحاولة عبور قناته بما أعدوه من السلالم. كما أن المناورات الحربية قد أعطت ثمارها في هذه المرة، اذ أنها أرغمت حاكم سبتة على عدم التفكير في الخروج الى حدود ما بعد الجزيرة خلال أربعة أشهر متتالية.

ويمكن أن نعد هذه الفترة الثانية مرحلة تجربة جديدة مرت بها حركة المقاومة لتنضاف الى ما اكتسبته قبل نوفمبر 1415. لقد كان التردد على الميدان بقوة

---

[158]- محمد بن عزوز حكيم ، لماذا نطالب باسترجاع مدينتي بسبتة و مليلية .ص.29.

[159]- Azurara , C.do D.Pedro,chap.44, p.177.

طيلة سنة 1416 كافيا لتقييم النتائج المحدودة المتوصل اليها. لمسنا تفهم رجال المقاومة لهذه المرحلة التي أريد لها أن تكون خطوة انتقالية الى مرحلة حاسمة، وقع التلميح اليها في اجتماع نوفمبر المذكور. تعلق الأمر أنئذ بالبحث عن التضامن المغربي الأندلسي، قصد استغلال الميدان الحربي من جهتي البر و البحر، مما سنراه في فقرة موالية لتفقد بعض الجهود البحرية المبذولة في الاتجاه الذي سبق رسمه.

جهاد سيدي طلحة الدريج السبتي للمقاومة في سياق الوعي الوطني :

بطرح رئاسة طلحة بن عبد الله الدريج للجهاد ضد سبتة المحتلة يتحقق ما سبق أن تساءلنا عنه من مشاركة العلماء و المرابطين و أهل الصلاح في الحركة الجهادية منذ احتلال المدينة، اذ أنه كان أهم شخصية بالمنطقة، بفضل ما تتمتع به من منزلة دينية و أضاف اليها تصدره حركة المقاومة.

وصلت الينا أخبار سيدي طلحة الأولى على لسان أزورارا ثم رددت الحديث عنه مصادرنا الوطنية و المصادر الأجنبية مركزة على دوره الجهادي و مكانته العلمية و الدينية.

و أسرة المجاهد سيدي طلحة من أصل أندلسي، كان يقال لهم بنو الدراج ثم تحول الى الدريج بعد التصغير. استقرت بغرناطة، ومنها نزحت الى مدينة سبتة في مستهل القرن السابع الهجري (13م) على ما يظهر. كان من أفراد الأسرة بسبتة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري قاضيها و خطيبها العلامة الشهير محمد أبو عبد الله الدراج، المولود بسبتة و المتوفي بها سنة 693هـ/1293. وهو رأس الأسرة التي استقرت بسبتة نحو القرنين ونصل من كل ذلك الى أن سيدي طلحة الانصاري المرابط من مواليد مدينة سبتة. واذا صدقنا أزورارا في خبره عن تقدير سنه على أساس أنه في سنة 834هـ/1428 كان ابن الستين أو ما يقرب من ذلك، فانه يكون من مواليد سبعينات القرن الثامن الهجري (ستينات 14م).

وهناك رأيان يخصان تاريخ خروجه من سبتة و تحديد مكان استقراره :

فأقدم الرأيين يرى أنه أحد الناجين من المدينة المحتلة ومن المذبحة الرهيبة التي أعقبت سقوطها في يد الصليبيين سنة 1415/818،أدى به الحال الى الاستقرار بأنجرة الغربية بمقربة من طنجة التي آوى اليها صالح بن صالح وقواته. ولا نستبعد

أن يكون مستقره بموضع ملوسة، وخلوة سيدي طلحة مازالت موجودة و معروفة بملوسة بين مدينتي تطوان و طنجة الى يومنا هذا ، حيث بقي الى أن أعلن أزورارا عن تنظيم سيدي طلحة حملته الجهادية ضد سبتة ، لملء فراغ الساحة الجهادية[160].

أما الرأي الثاني فهو الذي يقدمه سليمان الحوات، المتوفى عام 1815/1231 ، مفاده أن سيدي طلحة بن عبد الله الدريج خرج قبل احتلال سبتة بيسير إلى تطوان، على عهد آخر حكام سبتة وهو صالح بن صالح و استقر بالمكان المعروف بخندق الفرجة (حي سيدي طلحة حاليا) لينفع أناس تلك الجهة بعلمه وعمله[161].

وكانت مدينة تطوان سنة نزول سيدي طلحة الدريج بها، مركزا عمرانيا هاما بعد تكوين نواتها بالعيون وما أضافه عالمها الأندلسي الشهير عبد القادر التبين وصنوه عبد الله الفخار السبتي في منتصف القرن السادس الهجري (12م) و تجديد بناءاتها على يد المرينيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (13م) ، ولكنها كانت مازالت متأثرة بالغزو الاسباني الذي داهم في بداية القرن منشآتها الملاحية بمصب وادها [162].

وإذا كان نزول سيدي طلحة الدريج بتطوان أولا فان ظهوره على رأس المجاهدين سنة 1427/831 لن يحدث لنا أي اضطراب في الفهم، إذ يكون قد انتقل بعد ذلك من مقامه بتطوان إلى جهة طنجة بأنجرة للقيام بتعبئة رجال أنجرة وغيرهم من اللاجئين السبتيين إليها بعد سقوط سبتة.

وهناك ما يحملنا على الميل إلى الرأي الثاني، خاصة إذا تأملنا عبارة أزورارا التي

---

[160]- Azurara , C.do D.Pedro,2/581 ; C . do . D.Duarte, p.69.

[161]- ذكر ذلك كل من : أبو الربيع سليمان الحوات، في المسك الأريج في أخبار أولاد الدريج، مخطوط. ومحمد بن جعفر الكتاني في " سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس" ، (الطبيعة الحجرية بفاس الجزء الثاني) ، ومحمد بن الطيب القادري ، في كتابه نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني" الجزء الثالث، تحقيق د. محمد حجي ود. أحمد توفيق (الرباط 1986 ص 217) . 217/3 و أحمد الرهوني ، في عمدة الرواين ومحمد داود، في تاريخ تطوان 77/1

[162]- كان ذلك حوالي سنة 1400/803 بواسطة قراصنة هينريك الثالث القشتالي الذين أحرقوا السفن الراسية بمرسى بني معدن التطواني. ولسنا متأكدين من أنهم وصلوا الى المدينة لتخريب عمرانها و السطو على كنوزها مثلما شاع بعد ذلك انظر حسن الفكيكي، " مقاومة الوجود الايبيري بالثغور المغربية الشمالية المحتلة " 174/1

نصت على أن سيدي طلحة كان على جانب من الثراء. فمسألة تكوين الثروة بالناحية بعد ثلاث عشرة سنة فقط مضت على الخروج القسري من سبتة، مما يصعب تصوره، بل الأرجح أن نرد ذلك الى خروجه بثروته من سبتة بعد وفاة والده قبل الاحتلال أو في بداية الحصار على أكثر تقدير، مثلما فعل صالح بن صالح وغيره، ضمن الخمسة آلاف الناجية من القتل و الأسر[163] .

ولا شك أن طلحة الدريج السبتي التطواني كان معاصرا لعبد الرحمن الجزولي وشارك إلى جانبه في عدد من الغارات الجهادية ما بين 1420 و 1423 مثلما يفهم من قول أزورارا. كما كان معاصرا أيضا لمرابطي الناحية المشار إلى بعضهم قبل هذا و لرفيقه في الجهاد أحمد بن سلام بن مرزوق المجسكي. ولكننا نعلم أنه الوحيد الذي ترأس الحركة و اقتحم ميدان سبتة ابتداء من سنة 1427/831.

ترتبط الحملة الجهادية التي قادها سدي طلحة بأصله السبتي و بانتمائه الى الجماعة المنتشرة بالشمال الغربي المغربي و النازحة عن سبتة، كما ارتبطت مقاومته للغزو الصليبي المعادي للاسلام ببدء انتشار الوعي الوطني المغربي و بمناهضة الوجود الاجنبي ورفض الاحتلال البغيض الذي مازال جاثما على بعض ثغورنا في الشمال.

وما نعلمه عن دور الأولياء و المرابطين في الحركة الجهادية أنهم كانوا يحاولون حينما تخلو الساحة من زعمائها الحربيين، ملء الفراغ وذلك ما حدث في الفترة الممتدة بين 1427 و 1430 ، فقد وجد سيدي طلحة نفسه وحيدا بالميدان مما حثه على قيادة الحمات الثلاث المعروفة.

فحسب كناشة قديمة نقل عنها أحمد الشراط كتابه "كشف الحجاب" بين أنه وجد بتقييد مجهول ما يفيد مواصلة أهل القرى القريبة من سبتة ،الجهاد طيلة سنة 1424/822 ، وأنه ف سنة 1425/823 تزعم هذا الحصار صالح بن صالح الياباني المريني و استمر الحصار الى سنة 1426/829.

ذلك هو الظرف الذي عبأ فيه سيدي طلحة رجاله وقادهم إلى ميدان سبتة. ولن نجد أحسن من أزورارا للتعرف على دقائق الحملة و نتائجها.ولا ريب أن

---

[163]- Azurara , C.do D.Pedro,2/581 ; C . do . D.Duarte, p.69

الحملة كانت لها مقدماتها الإعدادية بالشمال الغربي المغربي على مستوى إقليم سبتة. فهناك من أشار إلى أن نواة قواته تكونت من خمسين مجاهدا. و نعتقد أن هذه القوة المشكلة أساسا من أتباعه و مريديه، هي التي كان يشارك بها في الحملات السابقة ضمن قوات الجزوليين ومن جاء بعدهم.

أما أزورارا فيذكر أنه اعتمد على أتباعه العديدين، ممن كانوا من أنصاره و مريديه، مما يدل على القيام بالتعبئة الحربة لهذه المرحلة التي تخص رئاسته للمقاومة.

و النتيجة أن سيدي طلحة استطاع في نطاق الدعوة و التعبئة بالناحية الواقعة بين سبتة وتطوان و طنجة وجبل حبيب جمع نحو أربعمائة من الفرسان وعددا من المشاة الذين بلغوا نحو الألف أو ما زاد عليه ، وبتلك القوة خاض المعارك الثلاثة التي نعرفها*

وعن الحملة الأولى التي تمت بقيادة سيدي طلحة تحدث محمد بن أحمد الشراط في مخطوطته " كشف الحجاب عن الأخبار الخاصة بحروب المجاهدين الأبرار من أجل استرداد المدن و الأمصار من يد أعداء الله النصارى الكفار"، معلنا أن الولي الصالح سيدي طلحة الدريج، صاحب الضريح المشهور بتيطاون، تزعم الرباط على سبتة، قائلا إن الرباط ابتدأ في ربيع الأول سنة 830/ يناير 1427 بعدد من المرابطين فاق الأربعمائة مجاهد. وبذلك علمنا أن هناك حملة سابقة للتاريخ المقدم من طرف أزورارا، غير أنها مقتصرة على تعيين التاريخ فقط.

وقد التقى صاحب الكناشة مع أزورارا في الإشارة إلى الحملة الثانية بكونها العملية الهامة التي قام بها سيدي طلحة. كما يتفق سردهما في شأنها على أنها كانت في ذي القعدة سنة 831/ شتمبر 1428. و بالمقارنة بين التقويمين نحصر تاريخ المعركة بين 21 و 30 ذي القعدة من جهة، وبين 1 و 10 شتمبر سنة 1428 من جهة أخرى [164] . وهذه خطوات المعركة مثلما سردها أزورارا و نقلها عنه خيرونمو ماسكاريناس.[165]

* يعلق محمد ابن عزوز حكيم على هذا العدد الذي أورده الشراط بقوله : تقول المصادر الأجنبية أن عدد المسلمين المرابطين على سبتة بقيادة الشريف سيدي طلحة ، كان يفوق 4000 رجلا (لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة و مليلية – الجزء الأول ، تطوان ، 1979 ، ص .30)

[164] - Azurara , C , do .D Duarte , p.69.

[165] - Jeronimo Mascarinhas , Historia de la ciudad de Ceuta,p.168-170

علم حاكم سبتة بتدبير الحملة ، فأمر ألا يتجاوز الجنود موضع طلائع الجزيرة الموضوعة على أرضية قصر أفراك المريني [166] ، تخوفا من الوقوع في الكمائن المغربية التي اعتاد المغاربة نصبها في المواقع الموجودة بين الجزيرة [167] وواد أويات [168].

كانت الطلائع موزعة على السفح الشرقي من كتلة شبه جزيرة قصر أفراك، ويمكن أن نعد منها حسب رسم يعود إلى مستهل القرن العاشر الهجري (16 م) سبعة طلائع ، منها ما سنتعرف عليه لاحقا.

وبظهور المجاهدين تراجع البرتغاليون إلى الأسوار الواقعة بين حفير السهاج و الربض البراني المعروف لديهم بالمدينة القديمة [169] ، بينما وصلت جموع المجاهدين إلى موضع الميرة (porto lameria) ، أو طالع قالة الوحل التي كانت في مستوى طالع شجر الحور Alemos على ساحل بحر البسول [170] ، فهجم المجاهدون إلى درجة اشتداد الحال على البرتغاليين الذين كانوا بقيادة حاكم المدينة ضون بيدرو دي منيسيس برفقة ابنه ضون ضوارتي . ووصل الزحف الى برج المشنوقين (torre dos enforcados) حيث التحموا مع البرتغاليين بجوار البرج المنعزل الذي شكل سابقا إحدى زوايا سور قصر أفراك ، بجوار قالة الوح المشار إليها [171].

---

[166] – لسنا متأكدين من بقاء مبانيه سليمة مثلما تركها أبو الحسن المريني . وما نعلمه أن البرتغاليين تمكنوا منه مساء يوم الاحتلال نفسه، طمعا في الموقع الذي تشتغله المبان القائمة على كدية تمثل أعلى نقطة مرتفعة بجزيرة الرملة . و نعتقد أن مجمل أسواره كانت سليمة يوم الاحتلال ، بدليل ما ظهر من سلامة برج آخر واقع بالجنوبي الغربي . وما يزال جزء من برج باب فاس ماثلا للعيان بحارة فيا خوبيتا Villa Jovita أما امتداد الأسوار فيمكن الاطلاع عليه من خلال خريطة تعود الى بداية القرن العاشر و أخرى تعود الى مستهل التالي له.

[167] – Aljazira ، الكدية التي تحمل مباني قصر أفراك المريني مما يلي غرب المدينة . أنظر حسن الفكيكي ، مقاومة الوجود الايبيري بالثغور الشمالية المحتلة ، الرباط 1991 ، مرقون ص. 81 .

[168] – حسن الفكيكي، مقاومة ، ص ، 153

[169] – أطلق البرتغاليون المدينة القديمة على الخرائب التي كانت فيما مضى موضع مباني الربض البراني الواقع بالشمال الغربي من الجزيرة. وقد تم تمييزها بالمدينة القديمة نسبة الى ما تجدد من مبان سبتة المحتلة، والى ما تعرض له الربض من التخريب اثر الاحتلال المدينة. كلنت مبانيه قائمة سنة الحتلال. فالأسوار كانت محيطة بالربض ممتدة على طول الحفير الكبير من مضرب الشبكة شمالا الى حافة الغدير جنوبا. بدأت عملية تخريب الربض البراني منذ مستهل شهر شتمبر سنة الاحتلال.

[170] – Azuraran, C do, D. Duarte , p.57 .meyro Porto do La

[171] – حسن الفكيكي، مقاومة (...) ص، 81

وسرعان ما تلا ذلك تراجع المغاربة الى موقع lizeron المجاور لبرج المشنوقين من جهة الغرب، تبعا لطريقة الكر و الفر. ونتيجة للنداء بالعودة إلى الهجوم المنطلق من شجعانهم قصدوا البرتغاليين و التحموا بهم ثم تراجعوا إلى موضع وادي القصب أو المقصبة (Canaveral) الواقع على شاطئ مضرب الشبكة، حيث مست الخسائر قوات المشاة خاصة.

كان واد القصب مناسبا للكمائن المغربة ، بفضل وجود نبات القصب المنتشر على ضفتيه. وقد اتخذ البرتغاليون بمصبه طالعا عرفت حوليات أزورارا بأهميته ، إذ أن جميع الغارات المغربية مرتبطة بهذا الطالع ، و خطورته على جنود سبتة كان مما يحسب له حسابه، فقد كان من الصعب على المجموعة الأولى التأكد من سلامة الموقع لتواريه عن الأنظار بسبب وجود خانق مصب الواد، علاوة على كثافة نبات القصب به. ونعلم من أزورارا أن الموضع كان عامرا قبل احتلال سبتة ومعدا من أرباضها وبه عدد من الأرحى.

وفي هذا الموقع لاحظ البرتغاليون أن التعب قد ظهر على خيل المغاربة فتابعوهم الى موقع طالع أليم ، وهو قريب من جهة الغرب بواد القصب أو المقصبة، المكان المعروف حاليا بواد الأمير ألفونصو، و يجاوره من جهة الغرب واد أويات ، مما يمكن تحديده حسب رسم مستهل القرن العاشر الهجري [172] .

وحسب أزورارا فان زعيم الحملة سيدي طلحة وقع في الأسر ، و تجاوز ذلك إلى ملاحظة أنه كان رجلا مسنا ولكن مظهره الجسماني مازال حسنا.

حل في اليوم الموالي بالمدينة الفقيه المعروف بالفكاك المكلف بافتداء الأسرى الذين بلغ عددهم خمسين أسيرا ، مثلما جرت به العادة بين الجانبين ، حسب أزورارا الذي لم يذكر شيئا عن مسألة افتداء سيدي طلحة [173] من الأسر.

وهناك حملة ثالثة قادها سيدي طلحة، مما ذكره صاحب التقييد المجهول الذي أورده أحمد الشراط ولم يشر إليه أزورارا ، جرت في شوال سنة 832/ يوليوز 1429 ، ونقرب تحديد تاريخها بالمقارنة بين التقويمين. إذا يبدو أنها وقعت بين 1

---

[172]- Lyam,Lean حسب أزورارا .Azurara , C , do .D Pedro , p.25.93

[173]- أزورارا المعلومات أخذها ماسكاريناس عن أزورارا باعترافه (تاريخ مدينة سبتة، ص 170)

و 28 شوال من جهة ، وبين 4 و 31 يوليوز.
إن هذه الحملة الثالثة التي تمت بقادة سيدي طلحة لا تفند بالتمام وقوعه بد البرتغاليين أسيرا سنة 1428 ، إذ أنه يمكن افتداؤه اثر ذلك كما أسلفنا.
فواقع الأمر أن سيدي طلحة تمكن من العودة إلى ميدان سبتة وبقائه حرا بتطوان و التي اعتمرت به سنوات بعد ذلك التاريخ ليعقب بها و يعيش بها آخر أيام الشيخوخة، إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمحلة التي اختار النزول بها المكان المعروفة بخندق الفرجة، خارج باب النوادر، على تل بارز بسفح جبل درسة.[174]
وحسب المستخلص من أزورارا فان رفيق سيد طلحة في الجهاد الغازي أحمد بن سلام بن مرزوق انتقد تدبير حملات سدي طلحة و أسلوب رئيسها، قائلا انه كان مسلحا بالحماس واثقا في شجاعته، أكثر مما كان متبصرا بتدبير الحملات[175]. وهو يعني بذلك أن إعداد الحملات كان خاليا من الاستعداد الملائم للوضعية و للقوة العسكرية التي كانت عليها الحامية البرتغالية لسبتة المدربة والمسلحة وراء اسوار جد محصنة .

[174]- يوجد الى يومنا هذا ضريح الولي الصالح سيدي طلحة فوق هضبة على سفح جبل درسة خارج باب النوادر ومطل من أعلى على غرب مدينة تطوان بمكان يسمى بحي سيدي طلحة. ويتحدث عنه الفقيه محمد داود في كتابه تاريخ تطوان (القسم الأول من المجلد الأول-1959 ص ، .79) بقوله : وما تزال قبة الشيخ سيدي طلحة رحمه الله قائمة مشهورة ، وبها ضريحه وهو محفوظ مصون مقصود للزيارة. وقد كانت ذريته قد انقرضت من تطوان الا أن أفرادا منها عادوا من فاس الى هذه المدينة في أواسط هذا القرن وبعضهم يسكن قرب ضريحه موصوفين بالخير و الدين مع مروءة وعبادة...وهم المتولون الآن بشؤون الضريح المذكور، وقد تكلمت على عائلة الدريج بتطوان وفاس بتوسع و تحقيق في كتابي عائلات تطوان.

[175]- حسن الفكيكي، المقاومة المغربية للوجود الايبيري بالثغور الشمالية المحتلة، 159/1 ، مرقون . الرباط 1991.

أعلام مدينة تطوان :

من الدفاع عن مغربية سبتة إلى الإشعاع الوطني في مختلف المجالات

ذ. بلال الداهية/ باحث في التاريخ
cerkesarabturk692@gmail.com

في عام 818 هـ/ 1415م سقطت مدينة سبتة في يد البرتغاليين، وفقد المغرب أكبر بوابة متوسطية له خلال العصر الوسيط، وصلة وصله الأولى بالأندلس والمشرق والبلدان الأوروبية، وموطن نهضة علمية وثقافية قل نظيرها. في الوقت الذي كانت فيه مدينة تطوان الحالية حصنا مندثرا تتابعت عمليات تخريبه عبر القرون.

وبعد عقود من سقوط سبتة سيجدد أبو الحسن علي المنظري الغرناطي بناء تطوان في شكلها النهائي، لتصبح هذه المدينة مهاجر أهل الأندلس، ووريثة لثقافتهم وتقاليدهم، وبوابة لانفتاح المغرب على أوروبا وعلى المشرق، ومركزا ثقافيا وعلميا ورث شيئا – ولو بسيطا – من إرث سبتة، وثغرا مهما من ثغور الجهاد ومحاولات استرجاع المدينة المغربية المحتلة لعدة قرون.

سنحاول في هذه الورقة التعريف بعلاقة مدينة تطوان بجارتها السليبة، ودور بعض أعلام مدينة تطوان في ساحة الجهاد لأجل استرجاع المدينة المغربية المحتلة، والتعريف ببعض الأعلام والأسر التطوانية ذات الأصل السبتي، ثم ننتقل إلى التعريف ببعض الأعلام التطوانيين الذين كان لهم السبق في إشعاع هذه المدينة

على المستوى الوطني والدولي خلال القرون الأخيرة.

مدينة تطوان الإسلامية وجارتها سبتة

عرفت ناحية تطوان استقرارا بشريا قديما تدل عليه عدة مواضع أثرية مجاورة للمدينة المعاصرة ك"تمودة" و"كيتان" و"كهف تحت الغار" وغيرها، بل إن ظهور هذه المدينة كحصن صغير شبه بدوي خلال العصر الوسيط تم ربطه بالجانب الأسطوري إذ نسب اسم "تطاوين" القديم الأمازيغي إلى أميرة عوراء، وكلمة تطاوين تعني "العيون"، كانت تحكم المدينة لصالح القوط الغربيين قبل مجيء الإسلام، وكانت تدعى "شمسة"، وبها سميت قرية من حوز المدينة وراء جبل درسة.[176]

وإلى جانب البعد الأسطوري، فقد حضر حصن تطاوين في العصر الوسيط في إشارات مختصرة جدا منها ما ورد عند الجغرافي الأندلسي أبي عبيد البكري الذي وصف الحصن كمركز لقبيلتي بني سكين ومجكسة الغماريتين ولحركة دينية هي حركة حاميم المتنبي المجكسي قضت عليها هي الأخرى جيوش الخليفة الناصر الأموي سنة 315 هـ[177]، وتكرر ذكر الحصن عند الجغرافي السبتي الشريف الإدريسي الذي وصفه بأنه حصن في بسيط من الأرض تسكنه قبيلة مجكسة الغمارية[178]، وعند جغرافي سبتي آخر هو عبد المنعم الحميري الذي اعتبره حصنا "قديما" ومدح مياهه وهواءه ومنتجاته الفلاحية[179]، ولم يختلف الوضع عند المجهول صاحب "الاستبصار في عجائب الأمصار".[180] أما مؤرخ الدولة الموحدية البيذق، فأشار إلى مذبحة رهيبة ارتكبها الموحدون عند دخولهم إلى

---

[176] ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان)، "**وصف إفريقيا**"، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، ج1، ص: 318.

[177] حول حركة حاميم المتنبي انظر: الداهية (بلال)، "**تطوان وباديتها: نبذة تاريخية عن حوز تطوان وبني حزمار**"، تطوان، 2017، صص: 47 – 50.

[178] الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني الشريف)، "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**"، بيروت، 1989، ج2، ص: 531.

[179] الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم السبتي)، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، 1980، ص: 145.

[180] مجهول، "**الاستبصار في عجائب الأمصار**"، نشر: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985، ص: 137.

تطاون ذهب ضحيتها ثلاثمئة من سكانها[181]، وانقطع ذكر المدينة بعد ذلك من المصادر إلى أن أشار إليها ابن خلدون في نهاية القرن الثامن للهجرة كمركز لقبيلة مجكسة الغمارية التي كانت لا تزال حسب تعبيره تدين بمعتقدات سحرية.[182]

تعرضت تطاون في نهاية العهد المريني إلى عمليتي تخريب تشير إليهما المصادر المتأخرة من طرف أسطول قشتالة سنة 1399، وهو تخريب شككت فيه الكثير من الدراسات المعاصرة، ثم من طرف أسطول ملك البرتغال سنة 1437، نظرا لكونها مركزا للقرصنة البحرية الموجهة ضد الأساطيل المسيحية في المتوسط، وهي قرصنة كانت تهدد مصالح البرتغاليين حديثي العهد باحتلال مدينة سبتة سنة 1415.

وعند زوال دولة بني الأحمر في غرناطة، لجأ قسم من أهل آخر معاقل المسلمين بالأندلس إلى الموضع الذي كانت به مدينة تطاون المخربة، ليجددوا بناءها بقيادة أبي الحسن علي المنظري الغرناطي، وهو بناء حاولت بعض القبائل المجاورة للمدينة منعه، ولا نعلم تاريخه على وجه الدقة، إن كان قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام وبالضبط عام 1483، أو بعد سقوطها مباشرة سنة 1492.[183]

لقد كانت "تطاوين" حصنا شبه بدوي لقبيلة غمارية في قلب منطقة وصفها ابن عذاري ب"ريف سبتة"[184]، فتطاوين القديمة إذن كانت واقعة ضمن نطاق تأثير سبتة، وحينما حاول الأمراء الأدارسة من بني محمد بن القاسم تجديد بناء تطوان في القرن الرابع للهجرة، اشتكى أهل سبتة من هذا البناء لأنه يضر بمصالحهم[185]، واضطر الخليفة الأموي في قرطبة إلى إرسال حملة عسكرية خربت ما كان بنو محمد الأدارسة قد شرعوا في بنائه، وقبضت على أميرهم أبي العيش

---

[181] البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، "**أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**"، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971، ص: 54.

[182] ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد)، "**تاريخ ابن خلدون**"، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، 2000، ج6، ص: 288.

[183] حول مسألة تاريخ بناء تطوان راجع: داود (محمد)، "**تاريخ تطوان**"، الرباط، 2013، ج1، صص: 91 – 93.

[184] ابن عذاري (أبو العباس أحمد المراكشي)، "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**"، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثالثة، بيروت، 1983، صص: 74 – 75.

[185] البكري (أبو عبيد بن عبد العزيز الأندلسي)، "**المسالك والممالك**"، تحقيق: فير وفان لوفين، بيروت، 1992، ج2، ص: 814.

بن القاسم كنون، وتم نقله إلى الأندلس.

وحينما عرفت سبتة أوج نهضتها العلمية والثقافية كانت تطوان موطنا للكثير من المهاجرين منها، وإذا كانت النصوص لا تحدثنا إطلاقا عن أسباب هجرة عبد القادر التبين وأبي عبد الله الفخار من مدينة كبيرة مزدهرة هي سبتة إلى مدينة أصغر نسبيا هي تطاوين، سوى رغبتهم في العزلة والتفرغ للعبادة، فيمكننا أن نتساءل عما إذا كان نزولهما بغرض خلق حركة دينية قوية تواجه المعتقدات شبه الوثنية السائدة لدى سكان قبيلة مجكسة، وهي القبيلة التي أشار ابن خلدون قرنين بعد التبين والفخار، إلى كونها لا تزال تتميز بتقاليد سحرية وثنية.[186]

عبد القادر التبين[187]

ينتمي الشيخ عبد القادر التبين إلى أسرة أندلسية عريقة من بني أمية من ذرية سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، سكنت قرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل، إذ دخلها الجد الأعلى للأسرة مع من دخل الأندلس من بني أمية. ثم إنها انتقلت بعد ذلك من قرطبة إلى غرناطة، ومنها خرج الشيخ عبد القادر نحو سبتة في عام 540 هـ.

وفي سبتة اتصل الشيخ التبين بأبي عبد الله الفخار السبتي، واتفقا معا على الخروج من سبتة واستيطان تطوان، فنزل التبين بموضع يرجح أنه موضع حي "المنجرة" قرب "السويقة"، حيث بنى داره مستعينا ببنائين جلبهم من سبتة، ولما عرفه الناس وعلموا بصلاحه وتقواه بدؤوا يتجمعون حوله، فبنى لهم مسجدا وسوقا ورحى لطحن الحبوب سنة 542 هـ.

وقد توفي الشيخ سنة 566 هـ، ودفن بضريحه المشهور ب"العوينة" وهي عين ماء تنسب إليه بالتصغير تمييزا لها عن عين ماء أكبر منها كانت تسمى عين "أكرار" طمست الآن، وكانت بموضع "شارع المسيرة" الحالي. والقبة التي توجد فوق الضريح هي من بناء السلطان اليزيد بن محمد بن عبد الله.

---

[186] نظر مناقشتنا لهذه المسألة في: الداهية، مرجع سابق، صص: 55 – 57.

[187] راجع حول ترجمة التبين: مجهول، "**مختصر نزهة الأفكار وحلة الأبرار في مناقب سيدي عبد القادر وشيخه الفخار**"، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، تطوان، 1996، صص: 37 – 56. داود، مصدر سابق، ج1، صص: 72 – 74.

وتذهب بعض الروايات إلى أن التبين كان عالما مشاركا في عدة علوم، وتلميذا لأبي الوليد بن رشد، وزميلا في الدراسة للقاضي عياض بن موسى، وأنه ترك مؤلفات من جملتها "منهاج السلوك فيمن حل بالدنيا من الملوك"، و"درة الأحساب فيمن حل بالأندلس من الأنساب".

وقد روت بعض المصادر الكثير من الكرامات والنبوءات عن الشيخ عبد القادر التبين، وأشهرها أنه تنبأ باحتلال النصارى لسبتة، وأنهم سيبقون بها مدة ثم يسترجعها منهم شخص من قريش اسمه محمد.

وأشهر عمل ترجم للشيخ هو "نزهة الأفكار وحلة الأبرار"، إلا أن نصه مفقود، والذي وصل إلينا منه هو مختصره مجهول المؤلف، الذي طبع مع دراسة وتحقيق د. جعفر ابن الحاج السلمي، ضمن منشورات جمعية تطاون – أسمير سنة 1996.

أبو عبد الله الفخار[188]

هو أبو عبد الله محمد الفخار السبتي، من أصحاب الشيخ التبين، ولا نعرف عنه الكثير من المعلومات سوى أنه كان وليا من جملة كبار الصلحاء وأنه أقام بتطوان مع الشيخ التبين، وتوفي على الأرجح سنة 586 هـ، ودفن بموضع قبره الآن بحي "المحنش الثاني" قرب وادي مرتين، والضريح والقبة التي عليه يقال إنهما من بناء الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الحمامي الريفي.

أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج[189]

حسب ما ورد في تقييد "المسك الأريج" لأبي الربيع سليمان الحوات، أن سيدي طلحة كان من أهل سبتة، وأنه خرج منها بعد سقوطها بيد البرتغاليين سنة 818 هـ/ 1415م، ونزل بموضع دفنه حاليا الذي كان يعرف آنذاك ب"خندق الفرجة". والمؤكد لدينا أنه نظم حركة جهادية كبيرة ضد المحتل البرتغالي بين سبتة وتطوان، إذ أشار أحد الباحثين إلى شيخ كان يحارب البرتغاليين سمته بعض

---

[188] انظر: نفسه، ج1، صص: 74 – 75.

[189] انظر: نفسه، ج1، صص: 75 – 77. الحوات (أبو الربيع سليمان الشفشاوني)، "**تقييد في أولاد الدريج**"، مخطوط بالخزانة الداودية بتطوان، رقم 107.03.

المصادر الأجنبية بCideTalpa وأنه وقع أسيرا في أيديهم بعد إحدى المعارك ثم افتدي بعد ذلك.

دفن المجاهد سيدي طلحة بموضع قبره الشهير الآن بالحي الذي أصبح يحمل اسمه وبجواره عين ماء جارية عذبة المياه.

دور مدينة تطوان في عملية الجهاد في مدينة سبتة ومحيطها خلال العصر الحديث.

لقد كانت مدينة تطوان بأعلامها الكثر، منذ تجديد بنائها، مركزا هاما للوعي الوطني والكفاح ضد الغزو الإيبيري لشمال المغرب، والدفاع عن مغربية سبتة وانتمائها إلى حوزة الوطن. فإذا كان المحتل الغاشم قد انتزع هذا الجزء الذي لا يتجزأ من تراب المغرب، وظلم وأهان سكان المناطق المجاورة له، عن طريق فرض الغرامات وعمليات السلب والنهب للمحاصيل الزراعية والمواشي، فإن مدينة تطوان وباديتها ومناطقها المجاورة ،في عهد المجاهدين الأوائل أمثال عبد الله المحكسي والشيخ عبد الرحمن الجزولي والشيخ سيدي طلحة الدريج والشيخ احمد بن مرزوق... وبعدهم على عهد المنظريين وآل النقسيس وغيرهم كثير ممن عمر المدينة وباديتها ،نقول إن تطوان اضطلعت بدور وطني رائد في التصدي للمحتل في سبتة، وقض مضجعه بالغارات المتكررة وعمليات الجهاد سواء البري أو البحري التي قادها بحارة تطوانيون أغلبهم من أصل أندلسي، وساندهم في الكثير من الأحيان –كما تشير بعض القرائن – بحارة عثمانيون من الجزائر.

لقد استمرت مقاومة تطوان للوجود الإيبيري في سبتة مع مجدد بناء المدينة أبي الحسن علي المنظري، فقد عرف عنه أنه حصن المدينة وجند بها الجنود من الأندلسيين الذين جاؤوا معه ومن الجبليين المغاربة، بلغ عددهم في المجموع ثلاثمئة[190]، كانوا يغيرون باستمرار على سبتة وقصر المجاز، ويعودون بالأسرى مستعينين بهم على إكمال بناء أسوار المدينة، وذكر الوزان أنه رأى منهم ثلاثة آلاف ينامون في مطامير تطوان مقيدين بالسلاسل، يلبسون "سترات

[190] داود، مصدر سابق، ج1، ص: 112.

صوفية".[191]

أما كاربخال فقد ذكر أن عدد الأندلسيين الذين كانوا مع المنظري أربعمئة ،مع من انضم إليهم من أهل الجبال المغاربة، وأنه كان يملك بعض المراكب الصغيرة التي يغير بها على سبتة بحرا[192]. وأكد محمد العربي الفاسي الفهري أن قصبة تطوان بناها الأسرى النصارى لدى المنظري وأن أهل البلد لم يبنوا منها شيئا.[193]

ولم تكن الحروب بين المنظري وبرتغاليي سبتة تنقطع نهائيا كما كانت بين أهل أزمور والبرتغاليين المحتلين آنذاك لمدينة الجديدة.

وبسبب التنسيق الذي كان بين الأسرة المنظرية في تطوان ونظيرتها الراشدية العلمية في شفشاون في عمليات الجهاد البري والبحري ضد المحتلين، والمصاهرة التي تمت بين العائلتين، فإن حكم تطوان آل بعد المنظري الثالث إلى الحرة بنت علي بن موسى ابن راشد العلمي، فواصلت سياسة الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي في سبتة، وضد الأساطيل الإسبانية في شاطئ تطوان، وقد جاء في دوحة الناشر في ترجمة الشيخ الجاسوس أحد الأولياء الذين كان أهل تطوان يعتقدون في ولايته وصلاحه، أن سرية من طرف الست الحرة أغارت على مدينة سبتة فوجدوا هذا الشيخ في شاطئ بحرها، فظنوه جاسوسا وكلمهم بلغة لم يفهموها، فحملوه إلى تطوان.[194]

ويبدو أن الست الحرة استعانت في عملياتها الجهادية بالأساطيل العثمانية في الجزائر، وتطابق فترة خير الدين باشا بالجزائر فترة حكم الحرة بنت علي بن موسى بن راشد بتطوان، منذ زواجها بالقائد المنظري الثالث سنة 1510 إلى حين انتزاع محمد بن الحسن المنظري الحكم منها سنة 1542.

وتؤكد الكثير من الدراسات أن الحرة كانت ترحب بالمراكب التركية القادمة من الجزائر، وأنها سلمت للأتراك قاعدة نهر مرتين منذ قيام الحرب بينها وبين حاكم

---

[191] ليون الإفريقي، مصدر سابق، ج1، ص: 319.

[192] كاربخال (لويس ديل مارمول)، "**إفريقيا**"، ترجمة مجموعة من الأساتذة، الرباط، 1988/ 89، ج2، ص: 222.

[193] داود، مصدر سابق، ج1، ص: 113.

[194] ابن عسكر (محمد بن علي الشفشاوني الحسني)، "**دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**"، تحقيق: محمد حجي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 2015، صص: 44 – 45.

سبتة ألفونسو دي نورانيا (Alfonso de Noranha) فأضحت المراكب التركية مصدر إزعاج دائم لحكام سبتة، وكانت تأتي محملة بالمئات من الأسرى البرتغاليين والإسبان، فتشتريهم الحرة[195].

وتربط الدراسات سواء القديمة أو المحدثة بين اسمي السيدة الحرة وبين خير الدين باشا بربروس، وتؤكد أن علاقة متينة جدا ربطتهما ببعضهما البعض، وحتى حينما عقد إبراهيم بن علي بن راشد أخو الحرة وحاكم الشاون معاهدة عدم اعتداء مع الملك البرتغالي جواو الثالث، فإن الست الحرة بقيت بمنأى عن هذه المعاهدة ولم تعترف بها[196]، وفي عام 1531 حينما كان أسطول بربروسا بقيادة آيدين رايس يستعد للهجوم مرة أخرى على السواحل الإسبانية، أقام هذا الأسطول قاعدة جهادية على تلة مشرفة على وادي مرتين وعلى مزارع بني معدان، وضمت القاعدة 26 سفينة حربية، وتولت الحرة تزويد هذه القاعدة بالمؤونة، وخصوصا من "البقسماط" (البجماط باللهجة التطوانية). كما أقام الأتراك بعض المدافع عند مصب الوادي في "دار مرتين".

وفي سنة 997 هـ/ 1589م حقق أهل تطوان بقيادة المقدم أحمد بن عيسى النقسيس نصرا ساحقا على حامية سبتة، وهو نصر وصلت أصداؤه إلى مراكش وسر به السلطان أحمد المنصور الذهبي وأنشده محمد بن علي الفشتالي بيتين نصهما:

هذه سبـــــــــتة تزف عروسا... نحو ناديك في شباب فشيب
وهي بشرى وأنت كفء اللواتي... كافـــأت بعلها بفتح قريب[197]

وفي عهد أسرة النقسيس تحدثت المصادر عن قوة كبيرة من الأتراك أقامتها هذه العائلة في تطوان بزعامة "مراد برتقيش" الملقب ب"حارس البحر"[198]، وكان هذا

---

[195] العافية (عبد القادر)، "**أميرة الجبل الحرة بنت علي بن راشد**"، تطوان، 1989، ص: 20.

[196] نفسه، ص: 21.

[197] الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، "**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**"، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1997، ج5، ص: 119.

[198] داود، مصدر سابق، ج1، ص: 184.

الشخص معروفا لدى أهل تطوان بشجاعته وصلاحه وأخلاقه المتميزة، ويبدو من خلال الروايات أنه كان يقيم داخل أسوار تطوان[199]، ورغم أن المصادر تجمع على كونه "تركيا" إلا أن لقبه يوحي بأنه كان علجا في الأصل، حيث يرجح أن كلمة "برتقيش" هي تحريف لPortuges أي "برتغالي".

ذاعت شهرة الرايس مراد برتقيش بسبب تدويخه للأساطيل الإسبانية في سبتة وعرض مضيق جبل طارق، والأعداد المهولة من السفن التي تمكن من الاستيلاء عليها، والأسرى الإسبان الذين تمكن من إلقاء القبض عليهم في عرض البحر، وكان يغزو سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية أربع أو خمس مرات في كل شهر[200]، وكثيرا ما هاجمته الأساطيل الإسبانية بغية التخلص منه، ولكنها لم تتمكن من ذلك، وتسجل بعض التقارير أن الرايس مراد قاد غارة بحرية على سبتة، ورد الإسبان عليه بإرسال حملة بحرية من الجزيرة الخضراء تعرضت لهزيمة فادحة عند رأس الطرف سنة 1605.[201]

كاتب إسبان سبتة وجبل طارق المأمون السعدي في شأن الرايس مراد بعد أن ضاقوا ذرعا بأعماله، فما كان منه إلا أن أوعز إلى عامله على تطوان "حمو بودبيرة" أن يرسل في إحدى الليالي من يغتاله غدرا ثم يخفي جثته، ونتيجة لذلك تلقى المأمون من الإسبان هدية ثمينة جدا على خدمته الجليلة لهم[202].

عند قيام الدولة العلوية ساهمت تطوان وحكامها من آل الريفي الحماميين في الحصار الشديد الذي ضربه السلطان إسماعيل على سبتة مدة تزيد عن الثلاثين سنة، ولم يتوقف هذا الحصار إلا في عهد القائد أبي حفص عمر لوقش سنة 1728 الذي اضطر إلى مهادنة الكوندي دي شاريني حاكم سبتة بسبب

---

[199] مجهول، "**تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية**"، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة، مراكش، 1994، ص: 90.

[200] نفسه.

[201] COTUGNO (Guillermo Daniel), "**Cronica inglesa del inicio del siglo XVII**", Archivos, T. 17, 1941, p. 22.

[202] داود، مصدر سابق، ج1، ص: 184. وكانت تصرفات الشيخ المأمون هذه سببا في نقمة العامة من أهل تطوان وقبائل جبالة عليه، مما أدى إلى مقتله في موقعة "فج الفرس" سنة 1613، أما قتله على تطوان حمو بودبيرة فقد تولت القضاء عليه فرقة عسكرية مكونة من القائد عبد الله النقسيس ومعه ثلة من أنصار مراد برتقيش السابقين من القراصنة الأتراك والأندلسيين. فتمت مداهمته وهو يدافع عن قصبة تطوان.

الأوضاع الداخلية في تطوان خاصة وفي المغرب عامة.[203]

عائلات سبتية الأصل تسكن تطوان منذ أزيد من خمسة قرون:

تحدد بعض النصوص التاريخية أماكن هجرة سكان سبتة بعد سقوطها في قبيلة أنجرة، خاصة بنيونش ووادي الرمل، وقبائل الحوز وبني حزمار وبني حسان، ولما كانت مدينة تطوان قد خربت قبيل وبعيد سقوط سبتة، فإن حظها من المهاجرين السبتيين سيأتيها من البوادي القريبة طيلة القرون اللاحقة من تاريخها، وإننا هنا لا نزعم أننا نقدم لائحة نهائية للأسر ذات الأصل السبتي أو التي عاشت جزءا من تاريخها في سبتة قبل أن تستقر في تطوان، بل هي لائحة أولية لا زالت بحاجة إلى مزيد من التعمق والبحث:

- **أسرة الدريج:**

تقدمت ترجمة الجد الأعلى لهذه الأسرة، وكانت هذه العائلة قد انقرضت من المدينة، وعاد منها جزء من الفرع الفاسي، ليستقر في تطوان فتجددت به العائلة من جديد.

- **أسرة العزيفي:**

أسرة تطوانية قديمة يرجح الرهوني أنها من بقايا العزفيين اللخميين الذين كانوا أمراء سبتة في جزء كبير من الفترة المرينية، والأرجح أن بقاياهم غادرت سبتة بعد سقوطها نحو القرية التي ينحدرون منها وهي قرية "عزفة" القريبة من المدينة المحتلة، والتابعة لقبيلة أنجرة، كما سكن فرع منهم مدشر "سمسة" في قبيلة الحوز. وكانت هذه الأسرة قطعا في تطوان عام[204] 1215 هـ/ 1800م وورد منها اسم "محمد العزيفي" في لائحة بحرية المدينة سنة 1246 هـ/ 1830م.[205]

- **أسرة فزاكة:**

يذكر الرهوني[206] وتؤكد الكثير من الوثائق والرسوم أن هذه العائلة من ولد الخليفة

---

[203] السعود (عبد العزيز)، "**تطوان في القرن الثامن عشر: السلطة – المجتمع – الدين**"، تطوان، 2007، صص: 124 – 125.

[204] وثائق الخزانة الداودية، قسم الوثائق العدلية، مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، و: 571. سيشار إليها منذ الآن ب"و.خ.د.".

[205] داود، مصدر سابق، ج8، ص: 182.

[206] الرهوني (أبو العباس أحمد بن محمد)، "**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**"، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، ج3، تطوان، 2003، ص: 208.

الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، أي أنها من الأسرة الأموية التي كانت تحكم الأندلس، وأنها سكنت سبتة، ثم انتقلت منها إلى قبيلة بني سعيد الجبلية وبالضبط في مدشر "إكمارن"، قد احتفظ بعضهم بلقب "فزاكة" والبعض الآخر اتخذوا لقب "مغناي". ومن الجدير بالذكر أن هذه العائلة تزعم أن "سيدي فزاكة" جدها الأعلى هو نفسه "سيدي السعيدي" دفين باب الصعيدة في تطوان، وهو ما جعل العائلة تدخل في نزاع تاريخي شهير مع عائلة "الحاج" التطوانية حول هبات وخدمات الضريح المذكور، وهو نزاع كسبته عائلة الحاج لعجز أولاد فزاكة عن الإدلاء بدليل يثبت أن الولي المذكور منهم.[207]

- **أسرة ابن صبيح:**

أسرة شريفة النسب كانت تقطن مدينة سبتة كما ورد في تقييد عبد الرحمن الحايك، وجدها الأعلى كان يعرف ب"سيدي عمر الطنجي"[208]، ثم انتقلت بعد سقوط سبتة إلى مدشر "بني عاصم" في قبيلة بني سعيد الجبلية، ومنه انتقل فرع منهم إلى تطوان قديما وكانوا بالمدينة قطعا في مطلع القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد، ربما قبل ذلك. بدليل وجود شخص منهم زاول خطة العدالة بتطوان يدعى عبد المجيد بن أحمد سنة 1120 هـ/ 1708م.

- **أسرة العلوي/ مريبطو:**[209]

أسرة شريفة النسب تنسب إلى الحموديين الأدارسة حكام مالقة والجزيرة الخضراء في عهد دول الطوائف بالأندلس، وقد هاجرت الأسرة من جبال غمارة إلى الأندلس في عهد المنصور بن أبي عامر، ثم طمعت في الخلافة بعد تمزق الدولة الأموية، إلا أن إمارتيها في مالقة والجزيرة الخضراء سقطتا في يد بني زيري الغرناطيين وبني عباد الإشبيليين على التوالي، فهاجر فرع من الأسرة إلى سبتة

---

[207] حوصل النزاع الكبير بين أولاد فزاكة وأولاد الحاج التطوانيين راجع: داود (محمد)، "**عائلات تطوان**"، مراجعة وتحقيق: حسناء محمد داود، ج2، تطوان، 2017، صص: 10 – 13. وانظر أيضا: اللهيوي (الطاهر بن عبد السلام)، "**كتاب الحصن المتين للشرفاء أولاد مولاي عبد السلام مع أبناء عمهم العلميين**"، الطبعة الثانية، 1993، ج2، صص: 164 – 165.

[208] الرهوني، مصدر سابق، ج5، 2009، ص: 177.

[209] حول تفاصيل نسب هذه الأسرة وتاريخها راجع: العلوي مريبطو (أحمد)، "**المآثر الجلية في رجوع نسب أولاد العلوي للشعبة الحمودية الإدريسية الحسنية**"، تطوان، د.ت.

وبقي بها، ثم هاجر فرد منهم من سبتة يدعى "عبد الله العلوي" ليسكن جبل الحوز الصديني المطل على تطوان، ويؤسس به مدشر "العلوية" ومنه تنحدر هذه الأسرة، وقد كانت موجودة بتطوان قطعا سنة 1208 هـ/ 1793م.[210]

- **أسرة الزوجال:**

فرع من الأشراف الصقليين الحسينيين السبتيين، خرج من سبتة بعد سقوطها واستوطن مدشر "ازجلوة" في قبيلة وادي راس الجبلية، والعائلة ليست بالقديمة جدا في تطوان، وأقدم ما وقفت عليه من آثارها بالمدينة يعود إلى عام 1326 هـ/ 1908م.[211]

- **أسرة ابن عجيبة:**

أسرة شهيرة وغنية عن التعريف تنسب إلى الشرف أيضا، والأكيد أنها هاجرت من سبتة لتستوطن أول مرة مدشر "الكدان" الحوزي، ومنه تفرقت في "اعجيبش" و"أكلا" بالحوز أيضا، وفي "الزميج" بأنجرة، وفي الكثير من قرى هذه الأخيرة، وفي "بني بغداد" بقبيلة بني سعيد الجبلية. وقد سكنوا تطوان في القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد، ومنهم العلامة الصوفي الكبير أحمد ابن عجيبة.

- **أسرة الطنيبار:**

أسرة ذكر الرهوني[212] أنها هاجرت من سبتة إلى شاطئ أمسا في قبيلة بني سعيد الجبلية، وأنها كانت من أسر الأعيان المدينة قبل سقوطها. ثم سكن فرع منها تطوان قادما من بني سعيد، وكانت هذه الأسرة بالمدينة قطعا سنة 1308 هـ/ 1891م.[213]

- **أسرة العياط:**

أسرة سبتية الأصل استوطنت مدشر "سمسة" الحوزي، ورجح الرهوني[214] أنها قد تكون نفس عائلة القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، لعادة اللهجة

---

[210] و.خ.د.، و. 460.

[211] نفسه، و. 1758.

[212] الرهوني، مصدر سابق، ج3، ص: 208.

[213] و.خ.د.، و. 1302.

[214] الرهوني، مصدر سابق، ج3، ص: 261.

التطوانية والجبلية في قلب الضاد إلى طاء. وانتقلت الأسرة إلى تطوان مبكرا وكانت بها قطعا سنة 1200 هـ/ 1786م.[215]

- **أسرة الشاط:**

أسرة أنصارية شهيرة كانت بالأندلس ثم سبتة وسكنت بعد سقوطها قبيلة أنجرة المحيطة بها، وسكنت فروع متلاحقة منها تطوان بعد ذلك.

- **أسرة الجيار:**

أسرة سبتية نبيهة ربما هاجر فرع منها بعد سقوط سبتة إلى بني معدان من قبيلة بني حزمار الجبلية المحيطة بتطوان، ثم سكنت تطوان أيضا، وكانت بها قطعا سنة 1148 هـ/ 1735م، إذ ورد اسم أحد أفرادها ضمن المشتكين على قائد المدينة محمد بن عمر لوقش الأموي.[216]

بعض أعلام تطوان في مختلف الميادين وأدوارهم في إشعاعها :

لم يتوقف إشعاع مدينة تطوان عند مجال الجهاد والدفاع عن مغربية سبتة، بل شمل مجموعة من الميادين، وامتد الوعي الوطني لدى النخبة التطوانية إلى مرحلة القرن العشرين ليناهض الاستعمار الإسباني بشمال المغرب، ولهذا ارتأينا أن نختم بحثنا هذا بتراجم جملة من أعلام مدينة تطوان على مر القرون في مختلف المجالات الدينية والسياسية والثقافية والفكرية:

- **القائد عمر بن عبد السلام بن علي لوقش الأموي**[217]

ينحدر من أسرة أندلسية من بقايا ملوك بني أمية بالأندلس، وهي من الأسر التي نزلت في تطوان عقب الطرد الأخير للأندلسيين سنة 1018 هـ/ 1609م، وقد ولد المترجم في منتصف نفس القرن، وكان والده تاجرا من أعيان المدينة، وأمه أم ولد شركسية الأصل. ولا نعرف الكثير عن مساره العلمي، سوى أنه كان أديبا بارعا وفقيها وقاضيا، ولاه السلطان إسماعيل وظيفة الكتابة في ديوانه، ثم انفصل

---

[215] و.خ.د. و. 56.

[216] نفسه، و. 1707.

[217] تفاصيل ترجمته في: الرهوني، مصدر سابق، ج6، 2006، صص: 43 – 51. السكيرج (عبد السلام بن أحمد)، "**نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم بها أو تقرر من الأعيان**"، تحقيق: يوسف احنانة، تطوان، 2005، صص: 63 – 68.

عن هذه الوظيفة بعد تقدمه في السن وعاد إلى تطوان.
وفي مسقط رأسه ظهرت مواهبه وطموحه الشديد، فدخل في عداوة سافرة مع الباشا أبي العباس أحمد الريفي، وكان من أشد المحرضين على الثورة ضده، وانتهى المطاف بالوقعة الشهيرة بين أهل تطوان وعسكر الباشا أحمد المسماة ب"عيطة السبت" سنة 1727 والتي كان الظفر فيها من نصيب أهل تطوان، وقد أنشد المترجم بعد هذه المعركة قصيدته الشهيرة التي مطلعها:
بلغت من العلياء ما كنت أرتجي... وأيامنا طابت وغنى بها الطير
وحكم المترجم تطوان لسبعة أعوام خصص معظم جهده فيها لتقوية دفاعات المدينة العسكرية، وضبط القبائل المجاورة لها، وأدت ظروف المغرب آنذاك والمتميزة بالصراع بين أبناء السلطان إسماعيل المتوفى، إلى ميل القائد عمر إلى الاستقلالية، فعزله السلطان عبد الله بن إسماعيل، وولى على تطوان الباشا أحمدا الريفي من جديد، ونقل لوقش إلى تارودانت في وضع شبيه بالإقامة الجبرية حيث توفي ودفن سنة 1156 هـ/ 1743م وهي نفس السنة التي قتل فيها خصمه الباشا أحمد.
وللقائد عمر لوقش مجموعة من القصائد والأشعار المحفوظة الآن ضمن مجموع بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان. كما خلف مجموعة من التعليقات والشروح على بعض كتب التفسير.

- **الشيخ علي بركة الأندلسي**[218]

أبو الحسن علي بن محمد بركة الأندلسي، أصل عائلته من الأندلس، وهي غير عائلة بركة من قبيلة بني عروس. لا نعرف تاريخ ميلاده على وجه الدقة، كان من كبار صلحاء تطوان، درس بفاس على عدة مشايخ منهم عبد القادر الفاسي، وأبو علي الحسن اليوسي، وتلقى أصول الطريقة الناصرية بنفس المدينة، ثم عاد إلى تطوان واشتغل فيها بالتعليم في مجال التفسير والحديث والفقه في جامعه المعروف ب"السوق الفوقي". وتروى له كرامات كثيرة، وكانت له عنايات بالأشعار وخاصة بالأمداح النبوية. وله عدة تآليف منها "حاشية" على

[218] راجع: الرهوني، مصدر سابق، ج4، 2003، صص: 110 – 114.

المكودي، و"شرح" للآجرومية، وتأليف في مناسك الحج، وعدة حواس وتعليقات على بعض الكتب، وله أيضا "الدرر الحسان فيما يخاطب به الإنسان من الإسلام والإيمان والإحسان"، وهو كتاب كبير الحجم في شرح الحديث النبوي الشهير المروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في معنى الإسلام والإيمان والإحسان. توفي الشيخ علي بركة سنة 1120 هـ/ وضريحه مشهور بالمسجد المذكور ب"السوق الفوقي".

- **الشيخ محمد الحراق**[219]

هو الشاعر الصوفي والفقيه المتمكن سيدي محمد بن محمد بن عبد الواحد الحراق العلمي، من أسرة تطوانية منحدرة من الشرفاء العلميين الموسويين أبناء موسى بن مشيش، انتقلت من بني عروس أولا إلى شفشاون ثم منها إلى تطوان. ولد بها المترجم سنة 1186 هـ/ 1772م، سافر إلى فاس بقصد الدراسة، ثم عاد إلى تطوان فأقام بها وتعاطى بها الإمامة والخطابة والفتوى والتدريس بمسجد حومة العيون، ولكن بعض سكان الحي المذكور حسدوه فدبروا له مكيدة انتهت بعزله عن جميع الوظائف، مما أثر على صحته فعانى من مرض شديد كاد يهلك بسببه، وبعد شفائه منه غادر تطوان إلى قبيلة بني زروال حيث لقي الشيخ العربي الدرقاوي، وأخذ عنه طريقته الصوفية وأذن له في نشرها بتطوان، فعاد إليها وتولى مجددا التدريس والخطابة والتلقين، واشتهر بولعه بالموسيقى الأندلسية، وله أشعار كثيرة جمعت في ديوان من طرف محمد بن العربي الدلائي وطبعت ضمن منشورات جمعية تطاون – أسمير بتحقيق د. جعفر ابن الحاج السلمي سنة 1996 أولا ثم 2003 ثانيا. وله مجموعة من الرسائل والأشعار جمعها عبد القادر بن عبد الكريم الورديغي الشفشاوني تحت عنوان: "بغية المشتاق لأصول المعارف والديانة والأذواق" طبعت في بولاق بمصر سنة 1298 هـ/ 1882م. كما أن العلامة التطواني محمد التهامي الوزاني قد أسهب في الحديث عن كرامات الشيخ العلامة والصوفي الزاهد سيدي محمد الحراق وتاريخ الزاوية الحراقية بتطوان قرب باب المقابر في مؤلفه "الزاوية" الذي طبع من طرف جمعية تطاون – أسمير سنة

[219] راجع: بوخبزة (محمد)، "**محمد الحراق**"، معلمة المغرب، ج10، ص: 3363.

1999. وقد توفي المترجم في شعبان 1261 هـ/ 1845م.

- **عبد السلام بن أحمد السكيرج**[220]

من أسرة تطوانية عريقة أصلها من الأندلس ونسبها ينتهي إلى الصحابي سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه، قدمت إلى تطوان غالبا ضمن الأفواج الأخيرة التي طردت من الأندلس، ومنها فرع آخر بفاس.

ولد المترجم في تطوان سنة 1145 هـ/ 1732م وقرأ القرآن بها وتتلمذ على عدة شيوخ، ثم رحل لاستكمال دراسته بفاس، وتخرج من القرويين ثم عاد إلى تطوان، فزاول خطة العدالة حيث كان يجلس في حانوت بسماط العدول يتلقى الشهادات ممن يرغب في تدوينها، ثم اشتغل أيضا مؤقتا ومؤذنا بالجامع الأعظم، حيث أن مؤذنه أحمدا الكطاطي سكر ذات يوم وصعد المئذنة ليؤذن قبل الوقت، فعزله قاضي تطوان وعين السكيرج مكانه، إلى أن تاب الكطاطي وأقلع عن شرب الخمر فتنازل له المترجم عن مهنة التوقيت ورجع إلى مزاولة العدالة.

توفي المترجم سنة 1250 هـ/ 1834م واشتهر بأنه كان كثير الطرائف والنوادر، وأما مؤلفاته فاشتهر منها اثنان: أحدهما منظومة في حكم لعب الكرطة وبيان أسماء أوراقها وكيفية لعبها، والثاني هو كتاب "نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها أو تقرر من الأعيان".

ويعد كتاب نزهة الإخوان أقدم مصدر تاريخي مستقل كتب عن تاريخ مدينة تطوان وحوادثها منذ تجديد بنائها على يد القائد المنظري إلى عصر المؤلف. وتختلط فيه الروايات التاريخية بالأساطير في الكثير من الأحيان، وقد قسمه المؤلف إلى ثلاثة فصول: الأول في "بناء البلدة التطوانية وما والاها من الأخبار"، والثاني في "ذكر العلماء الذين لقيهم المؤلف"، والثالث "في صلحاء تطوان ومن لهم أضرحة بها"، وأضاف فذلكة في النهاية في ذكر حكام تطوان وصفتها.

- **علي بن علي مدينة**[221]

من العلماء القلة في تطوان الذين برزوا قديما في مجال العلوم العقلية، ذكر عبد

---

[220] راجع: الرهوني، مصدر سابق، ج6، صص: 56 – 62.

[221] نفسه، ج6، ص: 28.

السلام السكيرج أنه كان من شيوخه. وعائلته عائلة أندلسية نبيهة أصلها من جنوب الأندلس، وكانت تعرف ب"بني قزمان" ونسبتهم إلى بني زهرة بن كلاب من قبيلة قريش.

لا نعرف تاريخ ازدياد المترجم ولا تاريخ وفاته، إلا أنه كان بالتأكيد من أهل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، والنصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وكان يلقب ب"الحاج" و"التاجر" مما يدل على أنه كان من أعيان المدينة.

تخصص علي مدينة في علم الرياضيات والنجوم والفلك، قرأ السكيرج عليه ""تأليف" القلصادي في الحساب، و"أرجوزة" محمد بن سليمان الروداني السوسي دفين دمشق في أحكام النجوم، وله شرح عليها، و"أرجوزة" الدادسي، و"روضة الأزهار"، وغيرها من الكتب.

- **محمد بن عبد الله الصفار**[222]

من عائلة عريقة منسوبة إلى حصن الصفرة من ضواحي مدينة جيان الأندلسية، ولد على الأرجح في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر للميلاد، ودرس بتطوان أولا، ثم انتقل إلى فاس مع صديقه محمد عزيمان الذي أصبح قاضيا لتطوان لاحقا، ودرس بها الفقه وأصوله والنحو والحديث، ثم عاد إلى تطوان سنة 1836 واشتغل بها في خطة العدالة، ودرس في بعض مساجد تطوان الفقه والحديث.

ثم دخل المترجم في خدمة قائد تطوان محمد أشعاش بأمر من السلطان عبد الرحمن بن هشام الذي ألزم ولاته على المدن باستكتاب الفقهاء المتقنين للغة العربية عوض الاعتماد على طلبة البادية الذين لا يحسنون النحو والصرف، ثم عين مرافقا لعبد القادر أشعاش في سفارته إلى فرنسا سنة 1845 فحرر بها ملاحظاته ومشاهداته وقدم نص الرحلة كتقرير رسمي للسلطان عبد الرحمن. واستمر المترجم في خدمة المخزن رغم تعرض الباشا عبد القادر أشعاش للنكبة

[222] راجع المصدر نفسه، ج6، صص: 164 – 168. وراجع أيضا: الصفار (محمد بن عبد الله التطواني)، "**رحلة الصفار إلى فرنسا**"، تحقيق: سوزان ميلر، أبو ظبي، 2007.

على يد السلطان، بل إنه بقي يرتقي في المناصب حتى بلغ مرتبة الصدارة العظمى، وهي أسمى مطامح موظفي الدولة آنذاك، وحينما توفي السلطان سنة 1859 قام الصفار بدور كبير في تولية ابنه محمد بن عبد الرحمن، وكان أحد أعمدة السياسة الإصلاحية للسلطان الجديد، فأنشآ معا وزارة الشكايات للنيابة عن السلطان في رد المظالم، وتولاها الصفار بنفسه طيلة عهد محمد الرابع ثم صدرا من دولة الحسن الأول، فكان التطواني الوحيد الذي تولى الوزارة في عهد ثلاثة من السلاطين المغاربة بالتتابع، توفي سنة 1298 هـ/ 1881م ودفن في مدينة مراكش.

- **محمد بن علي الرافعي**[223]

أديب تطواني من أسرة أندلسية الأصل منقرضة الآن، هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي، لا نعلم بالضبط تاريخ مولده، غير أنه درس بتطوان وكان من تلاميذ الشيخ علي بركة الأندلسي، والقاضي محمد ابن قريش. انتقل نحو فاس وأخذ بها عن اليوسي والمحمد بن ناصر الدرعي وغيرهما.

واشتهر الرافعي بأشعاره الكثيرة، وأغلبها أمداح نبوية أو توسلات وأمداح لبعض الأولياء وصلحاء تطوان، كما اشتهر بمدحه للباشا علي بن عبد الله الريفي وابنه الباشا أحمد، غير أنه يستفاد من ترجمة الرهوني له أنه تعرض أحيانا لسخطهما.

واشتهر أيضا برحلته "المعارج المرقية في الرحلة المشرقية"، وهي رحلة إلى الديار المقدسة، تمت عبر الطريق البحري، وهو طريق نادرا ما كان يسلكه المسافرون نحو الديار المقدسة لكثرة مخاطره وأهواله، وقد انطلقت الرحلة سنة 1096 هـ/ 1684م من تطوان وبالفعل فقد تعرضت للقرصنة من طرف الأسطول الإسباني في وهران، ثم من طرف قراصنة مالطيين، ولم ينج منها إلا عشرون حاجا من بينهم المترجم، أنقذتهم سفينة تركية ليتم إنزالهم بميناء أبي قير المصري قبالة الاسكندرية، وبعدها التحقوا بالركب المغربي في القاهرة.

---

[223] الرهوني، مصدر سابق، ج7، 2007، صص: 77 – 90. وانظر نص الرحلة: الرافعي (أبو عبد الله التطواني)، "**المعارج المرقية في الرحلة المشرقية**"، مخطوط الخزانة الداودية بتطوان، رقم 134 (ضمن مجموع)، وتوجد في نفس الخزانة نسختان مرقونتان على الآلة الكاتبة تعودان لسنة 1943، تحت رقم 246.00، و 247.00.

كما ترك الرافعي كتابا في صناعة الإنشاء سماه "غرر المقاصد والمطالب ودرر الرسائل لكل طالب". ولا نعلم على وجه الدقة تاريخ وفاة الرافعي، غير أنه كان حيا بالتأكيد سنة 1125 هـ/ 1713م.

- **محمد بن الحسين الحايك**[224]

من إحدى العائلات الكثيرة التي تحمل هذا اللقب في تطوان، إحداها شريفة النسب أصلها من قبائل مصمودة وبني سعيد وبني حزمار، والأخرى من قبائل أنجرة والحوز، والثالثة – وهي عائلة المترجم – أندلسية الأصل.

لا نعرف إلا القليل جدا عن حياة المترجم غير أنه كان شاعرا وله ولع كبير بالموسيقى، فيقال إن السلطان محمد بن عبد الله الذي كان مولعا بآلة الطرب كان يبحث عن شخص لديه ولع ودراية بالموسيقى ليجمع له ما كان متداولا من نوبات موسيقية، فكان المترجم هو المكلف بهذه المهمة، فكتب "كناش الحايك" الذي صار بعد ذلك مرجعا في بابه.

قدم المؤلف عمله بفصل أول في جواز وإباحة السماع، وأتبعه بثان في فوائد الغناء للصحة، ثم شرع في موضوعه الحقيقي بالحديث عن علم الألحان عند العرب، وظهور العود، ثم طبوع الموسيقى الأندلسية البالغة خمسة وعشرين، ونوباتها الإحدى عشر، ثم الطبوع المناسبة لكل نوبة، والميازين الأربعة المرافقة لها، وأخيرا الأزجال الأشعار المستعملة في الموسيقى الأندلسية. ولا نعرف تاريخ وفاة المترجم، إلا أنه فرغ من تأليف كناشه في عام 1214 هـ/ 1799م.

- **أحمد بن محمد الرهوني**[225]

هو المؤرخ الكبير والعالم المتمكن أبو العباس أحمد بن محمد الرهوني النجار نسبا، أصل عائلته من مدشر "غيروزيم" من قبيلة الأخماس الجبلية قرب مدينة الشاون، ولقب "الرهوني" لا ينطبق على نسب العائلة، فهو مجرد لقب دعي به أحد أفرادها لإقامته في قبيلة "رهونة" قرب وازان، أما نسب العائلة الحقيقي فهو

---

[224] ابن جلون التومي (إدريس)، "**التراث العربي المغربي في الموسيقى**"، الدار البيضاء، د.ت.، ص: 6 وما بعدها. ابن عبد الجليل (عبد العزيز)، "**محمد بن الحسين الحايك**"، معلمة المغرب، ج 10، ص: 3294.

[225] ترجمته المفصلة لنفسه في: الرهوني، مصدر سابق، ج8، 2011، ص: 129 وما بعدها، وانظر أيضا مقدمة المحقق في الجزء الأول وفيها ترجمته المفصلة أيضا.

"النجار".

والرهوني علامة مشارك ومؤرخ كبير نشأ بتطوان وتتلمذ بها على يد علماء من أمثال أحمد الزواقي ومحمد بن علي عزيمان ومحمد بن محمد ابن الأبار والتهامي أفيلال وأحمد داود ومحمد برهون محمد البقالي وعبد الله لوقش. كما درس بفاس على يد نخبة من العلماء منهم محمد بن جعفر الكتاني وأحمد ابن الخياط الزكاري وهو عمدته في معظم العلوم.

وكان الرهوني صوفيا تيجانيا شديد التعصب للطريقة منافحا عنها بكل ما أوتي من قوة، تولى مناصب سامية في تطوان في فترة الحماية الإسبانية منها وزارة العدل والقضاء ومشيخة العلوم ورئاسة المجلس الأعلي للتعليم... إلا أنه نكب في آخر حياته بسبب بعض الفتاوى التي صدرت عنه فعزل عن مناصبه، وانزوى في جنانه ب"حومة الطوابل"، وانتهى به المطاف فقيرا معدما لا يجد حتى قوت يومه، إلى أن توفي سنة 1373 هـ/ 1953م. تاركا مجموعة من الآثار والأعمال منها: "تحفة الإخوان بسيرة سيد الأكوان"، و"الحلة السندسية في الرحلة الإسبانية"، و"الرحلة المكية"، و"اللؤلؤ الحطيب من كتاب نفح الطيب"، و"تسهيل الفهوم لمقدمة ابن آجروم"... وأشهرها على الإطلاق "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين" الذي طبع من طرف جمعية تطاون – أسمير بتحقيق أ. د. جعفر ابن الحاج السلمي في عشرة أجزاء يليها الجزء الحادي عشر المخصص للفهارس، طبعت بين سنتي 2001 و2015. وهو ثاني تاريخ متخصص لمدينة تطوان بعد تاريخ السكيرج، وأول تاريخ مفصل ومنظم ومبوب للمدينة.

- **عبد السلام بنونة**[226]

من عائلة تطوانية نبيلة أصلها القديم من فاس ثم من تلمسان، ثم يقع خلاف كبير بعد ذلك هل هي من الأندلس قبل تلمسان أم من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والكلام في ذلك يطول.

ولد المترجم عبد السلام بن العربي بنونة في تطوان عام 1205 هـ/ 1888م،

[226] راجع ترجمته المفصلة في: ابن عزوز حكيم (محمد)، "**أب الحركة الوطنية المغربية: الحاج عبد السلام بنونة: حياته ونضاله**"، الرباط، 1987/ 1995، في أربعة أجزاء.

ودرس بها القرآن وعلوم اللغة وكان رفيقا في الدراسة لثلة من أعظم علماء تطوان منهم محمد المرير ومحمد بن التهامي أفيلال، وكان من الوطنيين المخضرمين الذين شهدوا الهيمنة الأوربية تنتقل من طور الاجتياح الاقتصادى والدبلوماسي إلى طور التغلغل العسكرى والسياسي، فتنبه إلى أن النقلة تستوجب أكثر من مجرد التصدى اللفظي. وتكمن نباهته، من جهة، فى اعتقاده فى عقم مواجهة الاستعمار مواجهة عسكرية مفتوحة بالنظر لاختلال موازين القوى، ومن جهة أخرى فى إيمانه بأن العدو الأكبر يتمثل فى انحطاط المجتمع وعجزه التام على رفع تحديات الحداثة. وتأسيسا على هذا التقييم الواقعي، خلص فى وقت مبكر إلى أن الكفاح يستوجب أن يأخذ السبل الأكثر صعوبة، وتتجلى فى الرفع من المستوى الفكرى والثقافى والتعامل إيجابيا مع المستجدات الاقتصادية والحضارية. وكان الرجل من الأوائل الذين انتبهوا إلى أن وجوب التشبث بمرتكزات الأصالة، لا يعني بتاتا الرفض المطلق للطرق العصرية الحديثة وللصالح من عوائد أوربا. ففي رسالة بعث بها إلى ابنه الطيب بنونة فى صيف 1930، أفصح الحاج عبد السلام عن فلسفته فى المقاومة البناءة: "الاستقلال والحرية شيء يؤخذ ولا يعطى، وأخذه بقوة السلاح مع الجهل لا يدوم... ومحصل هذا كله أن الأمة المغربية تتوقف على رجال ذوى مقدرة فى المعارف بأنواعها ليكونوا قادة للشعب يسيرونه حسب إرادتهم لمصلحة الدين والوطن ويجب إيجاد هؤلاء الرجال عاجلا أم أجلا". ولهذا انخرط المترجم فى صلب الإدارة الاستعمارية فى تطوان، وشغل وظيفة أمين الأملاك المخزنية سنة 1915 ثم الحسبة سنة 1916 وبعدها وزارة المالية ابتداء من 1922 وغيرها من الوظائف العديدة.

كما كان المترجم صاحب فكرة إنشاء المجمع العلمي المغربى بتطوان سنة 1916 على غرار المجمعات العلمية المشرقية، ومطبعة الإصلاح العربى، وجريدة الإصلاح، ومدرسة الصنائع التقليدية، ثم المدرسة الأهلية التي رأت النور عام 1924 والمطبعة المهدية سنة 1928. كما تقدم بعدة طلبات لإنشاء جرائد عربية فى المنطقة الخليفية، واستضاف الأمير شكيب أرسلان فى زيارته الشهيرة إلى تطوان فى غشت 1930، وقدم أول وثيقة لمطالب الأمة المغربية إلى الحكومة الإسبانية بعد قيام الجمهورية، وذلك في فاتح ماي 1931. وبقي يزاول نشاطه

الوطني بوتيرة سريعة إلى أن وافته المنية سنة 1353 هـ/ 1935م.

- **عبد الخالق الطريس**[227]

زعيم سياسي ذائع الصيت ،من أسرة تطوانية نبيلة كانت خلال نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين تحتل مكانة مرموقة كأسرة مخزنية تولى أفرادها عدة مناصب رسمية، وأصلها أندلسي كانت تعرف قديما ب"البولو" ثم غيرت لقبها لوجود عائلة أخرى أقدم منها تعرف بنفس اللقب إلى Polo de Torres نسبة إلى الحصن الذي جاءت منه في نواحي جيان، ثم غلب عليها لقب "الطريس" Torres ومعناه الأبراج.

ولد المترجم سنة 1910 ودرس تعليمه الأولي بالكتاب، ثم التحق بالمدرسة الأهلية حيث تشبع بالمبادئ الوطنية والقومية، ثم قصد مدينة فاس واستكمل تعليمه بالقرويين إلى جانب نخبة من المثقفين من الرعيل الوطني الأول، وانتقل إلى القاهرة بعد ذلك فدرس بالجامعة المصرية، ثم إلى باريس. وبسبب هذا التكوين العلمي المتميز والرصين، فإن مواهب المترجم بدأت تظهر في المهرجانات الخطابية والأدبية، وخصوصا في زيارة الأمير شكيب أرسلان إلى تطوان سنة 1930. والتي أوحت إليه بفكرة تأسيس جمعية الطالب المغربي سنة 1932، فكانت تلك هي النواة الأولى لتشكيل أول حزب سياسي وطني بالمنطقة الشمالية هو حزب الإصلاح الوطني سنة 1936. وأصدر قبله جريدة "الحياة" سنة 1934. وأقنع السلطات الإسبانية بالسماح بالاحتفال بعيد العرش لأول مرة في المغرب في نفس السنة. وشارك في أول مؤتمر عربي لنصرة القضية الفلسطينية في القاهرة سنة 1938. كما أعاد بناء مدرسة لوقش الشهيرة وأسس بها مكتبة جلب معظم كتبها من مصر عام 1935.

وبسبب ظروف الحرب العالمية الثانية كان الطريس ومعه الشيخ محمد المكي الناصري قد قدما أول وثيقة للمطالبة باستقلال المغرب في 14 فبراير 1943، وواصل نشاطه النضالي إلى أن حقق المغرب استقلاله سنة 1956، فعين سفيرا للمغرب في إسبانيا ثم في مصر ولبنان وسوريا، وكان أول من رفع علم المغرب في

[227] ابن عزوز حكيم (محمد)، "**عبد الخالق الطريس**"، معلمة المغرب، ج 17، ص: 5733.

جامعة الدول العربية سنة 1958.
وعين الطريس بعد ذلك وزيرا للعدل، ثم استقال من منصبه لأسباب صحية ليعين من جديد سفيرا للمغرب في مصر، وعاد بعدها إلى المغرب ليصبح عضوا في البرلمان المغربي إلى حين إعلان حالة الاستثناء في عهد الحسن الثاني سنة 1965، وعاد بعد ذلك إلى تطوان حيث وافته المنية سنة 1970، ودفن بها.
ويشغل نجله محمد بن عبد الخالق الطريس الخبير الاقتصادي الآن رئاسة جمعية تطاون – أسمير التي خدمت ولا زالت تخدم المشهد الثقافي بمدينة تطوان خلال العقدين الأخيرين.

- **امحمد أحمد بن عبود**

ولد الشهيد امحمد أحمد بن عبود في تطوان يوم الجمعة 16 ربيع النبوي عام 1329هـ / موافق 17 مارس 1911م، واستشهد يوم الثلاثاء 20 صفر 1369هـ. موافق 12 دجنبر 1949 في حادثة الطائرة التي سقطت بباكستان والتي كانت تقل من بين ركابها وفد المغرب العربي في أول مؤتمر اقتصادي للدول الإسلامية المتكون من الشهيد امحمد أحمد ابن عبود والشهيد علي الحمامي من الجزائر والحبيب ثامر من تونس.
درس بتطوان والدار البيضاء وفاس (القرويين) والقاهرة (الأزهر) وحصل من جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) على الإجازة في الحقوق سنة 1943. وبعد رجوعه إلى وطنه عينه سمو خليفة السلطان في شمال المغرب مولاي الحسن بن المهدي في سنة 1946 رئيسا لوفد المغرب في اللجان الثقافية بجامعة الدول العربية. وشمل هذا الوفد زيادة على رئيسه السيد محمد الفاسي الحلفاوي والسيد امحمد عبد السلام بن عبود. وقد كان من مؤسسي مكتب المغرب العربي بالقاهرة، كما عمل به مديرا من سنة 1948 إلى وفاته. وقد كان وطيد الصلة بالأوساط السياسية المصرية واندمج فيها اندماجا كليا. ونشر عددا من المقالات في أبرز الصحف القاهرية منها جريدة الأهرام موضحا ومدافعا فيها عن القضية المغربية. ولم يكتف بالكتابة في الصحف بل كانت تذاع له كذلك أحاديث في الإذاعة المصرية.

وقد مثل المغرب في عدة مؤتمرات دولية منها مؤتمر المغرب العربي الذي عقد بالقاهرة سنة 1947، والمؤتمر الثقافي العربي الأول الذي عقد بلبنان سنة 1947، وأول مؤتمر اقتصادي للدول الإسلامية الذي عقد بكراتشي في سنة 1949. ومن أهم أنشطته المشاركة والإشراف على عملية إنقاذ الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي من باخرة كاتومبا وهي في طريقها نحو مارسيليا بعد أن قرر الفرنسيون نقل منفاه من جزيرة لاريونيون إلى جنوب فرنسا في سنة 1947. وهناك إشارة إلى دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود في عملية تحرير زعيم الثورة الريفية في كتيب صدر ضمن منشورات مكتب المغرب العربي بالقاهرة بمناسبة مرور أربعين يوما على استشهاد وفد المغرب العربي في المؤتمر الاقتصادي للدول الإسلامية:

« لقد سيطر نشاطه الوطني على حياته كلها، فلم يقلع عن العمل والتفكير لأجل تحقيق مصالح بلاده، وقد عاش بقية حياته لشيء واحد هو المغرب العربي، فكانت الوطنية جزء من طبيعته.

وقد كان أكبر عمل قام به الإشراف على حركة تحرير سمو الأمير عبد الكريم الخطابي والتجائه إلى جلالة الفاروق، فقد كان نصيبه نصيب الأسد».

وفيما يخص اتصالات السيد امحمد أحمد بن عبود بالأوساط السياسية المصرية بصفة عامة، فلقد وصفه السيد علال الفاسي في كلمته التأبينية بقوله: « لقد قام في ميدان العمل الوطني بما يجب أن يذكر له بلسان التقدير من كل المواطنين... كما كان رحمه الله مثال القوة في التنفيذ والجرأة في العمل، فلم أعرف في حياتي أحدا مثله في التجرؤ على كبار الشخصيات وإبلاغ صوت المغرب إلى أسماعهم وهذه خصلة يسرت له كثيرا من الميادين التي كانت تغلق في وجه العديدين ممن ليست لهم شجاعته النادرة. ومن عاش في المشرق وعرف طبيعة الاتصال بالناس فيه يقدر هذه الخصلة قدرها ويفهم مغازيها».

أما التأثير فقد بلغ منتهاه في المشرق كله وفي فرنسا نزل نزول الصاعقة. وأعتقد أن الوطنية المغربية في الشرق قد أسدت للبلاد خدمة من أجل الخدمات إذ سلبت من يد فرنسا ذلك السلاح التي كانت تريد تركه مشهرا ضد السلطان والحركة الوطنية وأصبحت هي التي تهدد به فرنسا. إننا أنقذنا زعيما وأرحنا ملكا

وسفهنا مناورة وكسبنا دعاية وكل ذلك لا يدعو إلى الفخر وإنما يشجعنا على المضي في السبيل المرسوم إلى النهاية.

نلاحظ أن الطريس الذي وصف السيد امحمد بن عبود بالبطل يقول إنه فعل في هذه القضية ما لم يفعله أحد وتحمل من الأتعاب ما يكل عنه جمع من الأقوياء. بالنسبة لابن جلون في سنة 1950 كان أكبر عمل قام به الإشراف على حركة تحرير سمو الأمير عبد الكريم الخطابي وقد كان نصيبه في ذلك نصيب الأسد. ومن جهة أخرى، ختم امحمد بن عبود حياته بتمثيله المغرب في أول مؤتمر اقتصادي للدول الإسلامية بباكستان. كان حضوره في المؤتمر الاقتصادي الإسلامي بصفته ممثلا للمغرب موضع خلاف بين الفرنسيين والإسبان من جهة والباكستانيين من جهة أخرى. وأخذ الشهيد ابن عبود موقفا حازما أدى إلى قبوله من طرف المؤتمر.

وربما برز مركز الشهيد امحمد بن عبود كوطني ضحى بحياته من أجل تحرير وطنه بعد وفاته أكثر مما كان عليه وهو على قيد الحياة، فبعد حادثة الطائرة في كراتشي التي ذهب ضحيتها وبعد صلاة الجنازة على شهداء الحادثة يوم 15 دجنبر أعلنت الحكومة الباكستانية يوم حداد على وفاتهم، ثم نقلت جثته من كراتشي إلى القاهرة حيث استقبلت استقبالا رسميا من طرف السلطات المصرية والوفود الدبلوماسية الإسلامية. وتلقى أعضاء مكتب المغرب العربي وعلى رأسهم شقيقه الدكتور أحمد بن عبود والمجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي تعازي هذه الوفود بالمكتب. ثم نقل جثمانه إلى طنجة حيث استقبلته وفود تمثل مختلف الأحزاب الوطنية في منطقتي الحماية في شمال المغرب وجنوبه ووفد يمثل سمو الخليفة، فشيعت الجنازة في تجمع شعبي عظيم قدرت الصحف عددهم بخمسة وثلاثين ألف.

ولإبراز حقد السلطات الاستعمارية الإسبانية على عمل الشهيد امحمد بن عبود كوطني، منعت جثته من الدخول إلى مسقط رأسه مدينة تطوان. ورغم تدخل الدكتور أحمد بن عبود شقيق المرحوم لدى المندوب الإسباني بالقاهرة ومساعي الأستاذ عبد الخالق الطريس ونفس سمو الخليفة مولاي الحسن بن المهدي لدى الجنرال فاريلا، المقيم العام الإسباني بتطوان، أصر الاستعمار الإسباني على منع

جثته من دفنها بمسقط رأسه. فدفن رحمه الله بزاوية سيدي محمد الحاج بوعراقية بمدينة طنجة الدولية آنذاك في فاتح يناير 1950
وللتذكير فقد أصدرت «مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود» الطبعة الثانية من كتاب «النضال الوطني للشهيد امحمد أحمد بن عبود في المشرق، شهادات ووثائق»، لمؤلفه الدكتور امحمد بن عبود، وهو الكتاب الثاني الذي تصدره المؤسسة منذ تأسيسها بتاريخ 30 يناير 2016 في أفق إصدار عدد من الكتب الأخرى في الأشهر القليلة المقبلة.
يضم الكتاب بين دفتيه عددا من الشهادات التي قدمتها شخصيات سياسية وثقافية عاصرت الشهيد امحمد أحمد بن عبود وواكبت نضاله الوطني بالقاهرة، حين كما يضمّ تقارير مخفية ومقالات ووثائق تاريخية تنشر لأول مرة، وهي عبارة عن مجموعة من الرسائل السياسية والعائلية، تبرز جوانب من نشاط الحركة الوطنية المغربية في القاهرة في إطار «مكتب المغرب العربي»، مما يوفر للباحثين والدارسين مادة مصدرية مهمة تساعدهم على البحث في تاريخ الحركة الوطنية المغربية والتأريخ لها وللوطنيين الذين كانوا يدافعون عن قضية استقلال المغرب في المشرق العربي مثل الزعيم عبد الخالق الطريس، والزعيم علال الفاسي والمجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي.

- **محمد داود**[228]

ولد مؤرخ تطوان العلامة محمد بن الحاج أحمد داود بتطوان يوم 11 ذى الحجة عام 1318 هـ الموافق لفاتح ابريل سنة 1901م. فى أسرة أندلسية الأصل قديمة الاستقرار بتطوان أصلها فى الغالب غرناطى، علا شأنها داخل المدينة منذ نهاية القرن التاسع عشر، وامتهن أكثر أفرادها التجارة، وحتى حينما دخل الحاج أحمد داود سلك الوظيفة، لم يستطع تحمله والتقيد به والابتعاد عن مسقط رأسه، فانسحب وعاد إلى تطوان ليتخصص فى تجارة القطن.
حفظ محمد داود القرآن الكريم و مجموع المتون اللغوية و العلمية على يد فقهاء

[228] ترجمته المفصلة في عمله: "عائلات تطوان"، مرجع سابق، ج2، صص: 115 – 123. مع الهوامش.

تطوان، ثم شرع في قراءة العلوم العربية و الأدبية و الشرعية على يد أكبر علمائها. وسافر بعد ذلك إلى فاس و بها تابع دروسه بجامع القرويين. و قد عاد منها إلى تطوان في سنة 1922 حيث أسندت إليه خطة العدالة، كما شرع في إعطاء الدروس للشباب. وقد أولى أيضا اهتماماً للكتابة في الصحف العربية المشرقية والمغربية حيث اشتغل كمراسل خاص لجريدة "الأهرام" المصرية في عهد حرب الريف ضد الإحتلال الأجنبي بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي. وكان من جملة المؤسسين للمدرسة الأهلية أواخر سنة 1924، فتولى إدارتها والتدريس بها نحو اثنتي عشرة سنة. كما ساهم في تأسيس شركة المطبعة المهدية سنة 1928 بالاشتراك مع عبد السلام بنونة، وانتخب رئيساً لمجلس إدارتها، فكانت أول مطبعة عربية وطنية كبرى ساهمت في نشر الثقافة وعملت في حقل النضال الوطني في شمال المغرب. وفي سنة 1929 تزوج بالسيدة رقية ابنة الحاج عبد السلام بنونة، وهي والدة جميع أبنائه: حسن و إحسان و لسان الدين و مصطفى و حسناء. انتخب عضواً سكرتيراً في لجنة إصلاح التعليم الإسلامي بشمال المغرب سنة 1930 كما انتخب عضواً في المجلس البلدي بتطوان عندما أجريت الانتخابات الحرة في عهد الجمهورية الإسبانية سنة 1931 وعند تأسيس هيئة العمل الوطني بشمال المغرب في سنة 1933 كان محمد داود أحد قادتها. وفي السنة ذاتها انتخب عضواً و مقرراً في اللجنة العلمية المكونة لدرس قانون تنظيم محاكم العدلية المخزنية. وفي نفس السنة أنشأ مجلة "السلام"، وفي سنة 1935 حج بيت الله الحرام، حيث قام برحلة استغرقت ستة أشهر زار فيها من بلاد الشرق كلا من مصر و الحجاز و نجد و العراق و شرق الأردن و فلسطين، وقد منعته السلطة الفرنسية من زيارة سوريا و لبنان، و كانتا إذ ذاك تحت انتدابها. تم تعيينه مفتشاً عاماً للتعليم الإسلامي بالمنطقة الخليفية من المغرب، وهو أول وظيف حكومي تولاه في حياته سنة 1937 كما عين عضواً في المجلس الأعلى للأوقاف الإسلامية في شمال المغرب عام 1939 . وحينما نال المغرب إستقلاله و استرجع سيادته، عينه محمد الخامس سنة 1956 عضواً رسمياً في الوفد الحجازي الذي يمثله. كما عينه الملك في نفس السنة عضواً من بين أربعة أعضاء يمثلون علماء المغرب في المجلس الوطني الاستشاري، وانتخب مستشاراً في

مجلسه الإداري و عضواً في مكتبه الرئيسي. وفي عهد الحسن الثاني، تم تعيينه مديرا للخزانة الملكية بالرباط سنة 1969، و لم يتخل عن هذه المهمة إلا في سنة 1974، و ذلك لأسباب صحية جعلته يرجع إلى مسقط رأسه تطوان، حيث اشتغل بأبحاثه و مؤلفاته إلى أن توفي سنة 1984.

ويعد داود أحد أبرز أعلام الثقافة والفكر في تاريخ تطوان كله تدل على ذلك أعماله الجبارة:

1. **تاريخ تطوان**، وهو أضخم مؤلفاته. طبع على مراحل في 12 جزءا، منذ سنة 1959 إلى سنة 2001. ثم أعيدت طباعته من طرف "مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة" في نفس عدد المجلدات، بدعم من المبادرة الوطنية للتنمية البشرية.
2. **مختصر تاريخ تطوان**، وقد حصل به على جائزة معهد مولاي الحسن للأبحاث سنة 1373 هـ/ 1953م.
3. **الأمثال العامية في تطوان والبلاد العربية**، في أربعة أجزاء طبع منها الجزء الأول فقط من طرف جمعية تطاون أسمير سنة 1999، وهو عبارة عن مقدمات عامة.
4. **على رأس الأربعين**، عبارة عن مذكرات شخصية، طبعت من طرف جمعية تطاون أسمير بعناية ابنته الأستاذة حسناء داود سنة 2001، وقد أكملت جمع ما تركه والدها من أوراق ومسودات مبعثرة، لتخرج منها جزءا ثانيا لهذه المذكرات طبع سنة 2011 تحت اسم "**على رأس الثمانين**".
5. **التكملة**، وهو عبارة عن ذيل لتاريخ تطوان، يبحث في بعض الجوانب التي تم إغفالها في المؤلف الأول، خاصة "خطط المدينة" أي تاريخها العمراني وحدود توسعها، ثم عادات أهلها وأخلاقهم وطباعهم وأنشطتهم واحتفالاتهم، ومعاني الأسماء الشخصية الشائعة بكثرة في تطوان، وثقافة التسلية في المدينة، ومؤسساتها المدنية والدينية... طبع هذا الكتاب في شتنبر 2016 من طرف جمعية تطاون – أسمير. وكان المؤلف قد توفي قبل إكماله، فسدت ابنته حسناء ما به من نقص من خلال التقاييد والمسودات والأوراق التي تركها والدها.
6. **عائلات تطوان**، وهو في الأصل فصل من فصول كتاب التكملة، إلا أن المؤلف بلغ فيه من التوسع والإفاضة ما جعله يحوله إلى كتاب مستقل، إلا أنه لم يكمله،

فتولت ابنته حسناء جمع ما كتبه في أصل الكتاب، وما كان ينوي إلحاقه به من مسودات وتقاييد وتراجم، وقد طبع منه الجزء الأول سنة 2016، ويشمل المقدمات العامة والعائلات حسب الترتيب الأبجدي من حرف الألف إلى حرف الحاء، ثم الثاني سنة 2017، ولا زال الجزء الثالث قيد الطبع.

7. **الرحلة الشرقية**، قامت الأستاذة حسناء داود بجمعها من بعض الأوراق التي كان يدون بها محمد داود أحداث رحلته التي دامت ستة أشهر في مصر والحجاز والعراق والأردن وفلسطين، أما سوريا ولبنان فقد منع من دخولهما من طرف السلطات الفرنسية، وقد تمت هذه الرحلة سنة 1935.
8. **النقود المغربية في مئة عام**، وهو عبارة عن بحث صغير يتناول تطور العملة المغربية خلال القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للميلاد.

وختاما نقول :

إن هذه التراجم التي قدمناها لثلة من أعلام تطوان قديما وحديثا تثبت مدى إشعاع هذه المدينة ليس وطنيا فقط، بل على المستوى العربي والدولي، وتبين كيف أن الدور الريادي الذي لعبته في الدفاع عن مغربية سبتة، تطور نحو دور ثقافي وعلمي متميز، ثم كفاح مضن من أجل القضايا الوطنية العامة بما فيها قضية سبتة نفسها.

المصادر والمراجع:

- وثائق الخزانة الداودية بتطوان، قسم الوثائق العدلية، وقد أثبتنا أرقامها في الهوامش.
- ابن جلون التويمي (إدريس)، "**التراث العربي المغربي في الموسيقى**"، الدار البيضاء، د.ت.
- ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد)، "**تاريخ ابن خلدون**"، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، 2000.
- ابن عبد الجليل (عبد العزيز)، "**محمد بن الحسين الحايك**"، معلمة المغرب، ج 10، ص: 3294.
- ابن عذاري (أبو العباس أحمد المراكشي)، "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**"، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثالثة، بيروت، 1983.

- ابن عزوز حكيم (محمد)، "**أب الحركة الوطنية المغربية: الحاج عبد السلام بنونة: حياته ونضاله**"، الرباط، 1987/ 1995، في أربعة أجزاء.
- ابن عزوز حكيم (محمد)، "**عبد الخالق الطريس**"، معلمة المغرب، ج 17، ص: 5733.
- ابن عسكر (محمد بن علي الشفشاوني الحسني)، "**دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**"، تحقيق: محمد حجي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 2015.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني الشريف)، "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**"، بيروت، 1989.
- البكري (أبو عبيد بن عبد العزيز الأندلسي)، **"المسالك والممالك"**، تحقيق: فير وفان لوفين، بيروت، 1992.
- بوخبزة (محمد)، **"محمد الحراق"**، معلمة المغرب، ج10، ص: 3363.
- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، "**أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**"، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971.
- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم السبتي)، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، 1980.
- الحوات (أبو الربيع سليمان الشفشاوني)، **"تقييد في أولاد الدريج"**، مخطوط بالخزانة الداودية بتطوان، رقم 107.03.
- الداهية (بلال)، **"تطوان وباديتها: نبذة تاريخية عن حوز تطوان وبني حزمار"**، تطوان، 2017.
- داود (محمد)، "**تاريخ تطوان**"، الرباط، 2013.
- داود (محمد)، **"عائلات تطوان"**، مراجعة وتحقيق: حسناء محمد داود، ج2، تطوان، 2017.
- الرافعي (أبو عبد الله التطواني)، **"المعارج المرقية في الرحلة المشرقية"**، مخطوط الخزانة الداودية بتطوان، رقم 134 (ضمن مجموع).
- الرهوني (أبو العباس أحمد بن محمد التطواني)، **"عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"**، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون – أسمير، تطوان: ج1، ط2، 2012/ ج2، ط2، 2012/ ج3، 2003/ ج4، 2003/ ج5، 2006/ ج6، 2006/ ج7، 2007/ ج8، 2011.

- السعود (عبد العزيز)، **"تطوان في القرن الثامن عشر: السلطة – المجتمع – الدين"**، تطوان، 2007.
- السكيرج (عبد السلام بن أحمد)، **"نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم بها أو تقرر من الأعيان"**، تحقيق: يوسف احنانة، تطوان، 2005.
- الصفار (محمد بن عبد الله التطواني)، **"رحلة الصفار إلى فرنسا"**، تحقيق: سوزان ميلر، أبو ظبي، 2007.
- العافية (عبد القادر)، **"أميرة الجبل الحرة بنت علي بن راشد"**، تطوان، 1989.
- العلوي مريبطو (أحمد)، **"المآثر الجلية في رجوع نسب أولاد العلوي للشعبة الحمودية الإدريسية الحسنية"**، تطوان، د.ت.
- كاربخال (لويس ديل مارمول)، **"إفريقيا"**، ترجمة مجموعة من الأساتذة، الرباط، 1988/ 89.
- اللهيوي (الطاهر بن عبد السلام)، **"كتاب الحصن المتين للشرفاء أولاد مولاي عبد السلام مع أبناء عمهم العلميين"**، الطبعة الثانية، 1993.
- ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان)، **"وصف إفريقيا"**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.
- مجهول، "**الاستبصار في عجائب الأمصار**"، نشر: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985.
- مجهول، **"تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية"**، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة، مراكش، 1994.
- مجهول، **"مختصر نزهة الأفكار وحلة الأبرار في مناقب سيدي عبد القادر وشيخه الفخار"**، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، تطوان، 1996.
- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، **"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1997.
- COTUGNO (Guillermo Daniel), "**Cronica inglesa del inicio del siglo XVII**", *Archivos*, T. 17, 1941.

إفادة
عن اسم تطوان وعيونها

سنقدم فيما يلي إشارات لتوضيح اسم تطوان مقتبسة من دراسة هامة للاستاذ محمد العربي الشاوش تحت عنوان "إشارات حول الإشعاع الفكري والحَضاري لمدينة تطوان"، نشرت في موقع منتديات جبالة بتاريخ 16ديسمبر 2012.
"لقد ذكرها المؤرخون بعدة أسماء منها اسم تطَاوُن (بتاء مكسورة وطاء مشددة ممدودة مع الفتح، وواو مضمومة ونون في آخر الكلمة) ذكرت بهذا اللفظ في كتاب "نزهة المشتاق" للشريف الإدريسي السبتي المتوفى سنة 1252 م وفي "نزهة الحادي" للأفراني المراكشي المتوفى سنة 1727 وهذه الصيغة هي المشهورة والمعتمدة عند سكان المدينة القدماء .

وذكرت باسم تطاوين (بتاء مكسورة وطاء مشددة مفتوحة مع المد وواو مكسورة ونون في الآخر) وردت بهذا اللفظ في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوازن الفاسي المعروف بليون الإفريقي المتوفى سنة 1552 وفي كتاب "الاستقصاء" لأبي العباس الناصري المتوفى سنة 1897 واعتمده الفقيه المؤرخ أحمد الرهوني التطواني المتوفى سنة 1953 في كتابه الذي سماه "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين".

وذكرت باسم تطوان (بتاء مكسورة وطاء ساكنة. وواو مفتوحة مع المد ونون في الآخر) كما في بعض المصادر منها "الترجمانة الكبرى" لأبي القاسم الزياني المتوفى سنة 1833 وفي أقدم مؤلف في تاريخ تطوان لأبي محمد عبد السلام السكيرج المتوفى سنة 1834 الذي سماه "نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان" وهذا هو الاسم الذي اعتمده الأستاذ محمد داود مؤرخ تطوان لموسوعته التطوانية التي سماها "تاريخ تطوان" وهو الاسم الذي عرفت به المدينة نطقا ورسما في العصر الحاضر.

وقال بعض المؤرخين إن هذه الكلمة أمازيغية معناها (العيون الجارية) سميت

بذلك لكثرة عيونها المائية الجارية وهذا شيء معلوم عند التطوانيين الأصليين. فالمدينة القديمة زاخرة بالعيون المائية التي تجري في قنوات فخارية وضعت لهذه الغاية لتصل إلى المساجد والبيوت القديمة. وهذه المياه ثقيلة في الجملة وإن كانت عذبة صافية وكانت تسمى بماء (السكوندو) ولعل هذا الاسم أطلق عليها بعد الحماية الإسبانية لأن كلمة (سكوندو) بالإسبانية يراد بها الثاني، فعرف هذا الماء بالماء الثاني بعد عثور الإسبانيين على عيون أخرى في ضاحية (سيدي طلحة) نسبة إلى الشيخ الصالح أبي يعلى سيدي طلحة الدريج الذي يوجد ضريحه بالضاحية المذكورة وقد عدت مياه سيدي طلحة في الدرجة الأولى لخفتها ومدت أنابيبها إلى بيوت الإسبانيين بالمدينة الجديدة قبل تزويد المدينة بقسميها القديم والجديد بالمياه المنحدرة من ضاحية (طوريطا) منذ سنة 1915. ومع ذلك احتفظت المساجد وكثير من البيوت الكلاسيكية بمياه (السكوندو) الأصلية.

هذه العيون النضاحة وما يوازيها من أنهار جارية كنهر كيتان، و المحنش، ويوجداد، ومنابع أخرى كمنبع بوعنان ومنبع الزرقاء. كل ذلك جعل من المدينة جنة خضراء أوحت للشعراء بالكثير مما جادت به قرائحهم في وصف تطوان. ومن ذلك ما أنشده أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي سنة 1709 قال:

تطوان ما أدراك ما تطوان * سالت بها الأنهار والخلجان
قل إن لحاك مكابر في حبها * هي جنة فردوسها الكيتان

وذهب بعض المؤرخين أيضا إلى أن المقصود بكلمة تطوان هو (العيون الساحرة) أي العيون الباصرة الجميلة ولعلهم أرادوا بذلك الكناية عن جمال المدينة ومفاتنها الطبيعية بالعيون الجميلة الجذابة التي تستهوي النفوس وتسحر الآليات.

والواقع أن كلمة العيون جمع عين من الألفاظ المشتركة الدالة على معنيين مختلفين أو أكثر كما حققه علماء اللغة والبلاغة والأصول. وهكذا نجد لفظ العين يستعمل حقيقة كما يستعمل مجازا وكناية عن كثير من الأشياء والمعاني.

فالعين حقيقة هي العين الباصرة التي ينظر بها الإنسان وكل ذي بصر. وهذا شئ معروف لا يحتاج إلى مثال يقرب المعنى.

أما العين مجازا وكناية فتستعمل لعدة معان منها (العين الجارية) كقوله تعالى في وصفه الجنة دار الثواب والنعيم الخالد "**فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ**" (الغاشية ،12) وليس المراد بها عينا واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات ،كما قال عز وجل " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ *وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ *نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (الحجر: 45، 50).

"سيدي طلحة الدريج، الشيخ المجاهد"
للدكتورة حسناء داود

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه الهادين المهتدين. السيد رئيس الجماعة الحضرية بتطوان، السيد المندوب السامي للمقاومة وجيش التحرير، السيد سفير جمهورية إندونيسيا، السيد رئيس المجلس العلمي بتطوان، السيد عميد كلية الحقوق بالرباط.
السادة والسيدات أعضاء جمعية سيدي طلحة للمحافظة على البيئة والتراث ومنظمي هذه التظاهرة الثقافية القيمة ، سيداتي سادتي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،
بداية يسعدني أن أساهم في فعاليات هذا الموسم، الذي أبت جمعية سيدي طلحة للمحافظة على البيئة والتراث بتطوان، إلا أن تجعل منه هذه السنة موسما ثقافيا هادفا إلى التعريف بأحد الجوانب الهامة من صفحات تاريخنا الوطني العريق، ألا وهو جانب المواقف الجهادية للأبطال المغاربة عبر التاريخ، وخاصة منهم هؤلاء الذين عُرفوا برسوخ القدم في العلوم والمعارف، وبعلو المقام في ميدان الزهد والورع، وبالاهتمام بملازمة الرباط على الثغور والموانئ، رغبة منهم في حماية الوطن من الأطماع الخارجية، وفي تحرير أطرافه من التدخلات الأجنبية، وفي تأكيد الروح الوطنية لدى المغاربة الأحرار، المدافعين عن دينهم، وعن أرضهم، وعن كيانهم، في وجه كل طامع أو مغتصب.
ورجوعا إلى الكتب التي تؤرخ للحركات الجهادية في شمال المغرب بوجه خاص، فإننا نجد اسما من ألمع الأسماء التي سَجلت مواقف مشرفةً في هذا المجال، ذلك هو اسم المجاهد المكافح، والولي الصالح، والقطبِ الواضح، الشيخ سيدي أبي يعلى طلحةَ بنِ عبد الله الدريج الأنصاري، الذي نخلد اليوم ذكراه، ونحتفل بموسمه، حيث نتواجد في مقام ضريحه الأطهر، ونغتنم هذه الفرصة للترحم عليه،

بوصفه أحدَ العلماء العاملين، وأحد الرجال المتقين، وأحدَ الأبطال المجدين، الذين يستحقون كل الإكبار والتبجيل.

فماذا نعرف عن هذا الشيخ الجليل؟ وماذا سجل لنا التاريخ عنه، حتى أصبح من الأعلام المشهودِ لهم بالعلم والولاية والجهاد؟ الحقيقة أن المعلومات المفصَّلةَ عن كل ذلك، إنما هي قليلة ومقتضبة، وإنما يمكن استخلاص بعضها، بل أبرزِها وأكثرِها دلالة على الموضوع، مما قد نقف عليه عند المهتمين بتدوين سِيَر بعض الأسر المغربية، من أمثال الشاعر المبدع، أبي الربيع سليمانَ بنِ محمد بنِ عبد الله الحوات الحسني العلمي الشفشاوني، وهو من رجال القرن 12 و13 الهجري = 18 و19 الميلادي([229]).

ففي تأليف لسيدي سليمان الحوات المذكور، حول بني الدريج الأنصاريين بالخصوص، وهو تأليف مخطوط توجد نسخة منه بخزانتنا الداودية بتطوان، نقف على إشارات قوية، تثبت أن الشيخ الجليل سيدي طلحة بنَ عبد الله الدريج الأنصاري، كان من العلماء الكبار، ومن الشيوخ ذوي الاعتبار، ومن المجاهدين الأبرار؛ وهذا التأليف في أولاد الدريج، هو الذي اعتمده والدي الأستاذ محمد داود رحمه الله عند كلامه في المجلد الأول من كتابه "تاريخ تطوان"، على الشيخ سيدي طلحة، بوصفه أحد الرجال المرموقين بهذه المنطقة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، بل هو العَلَم الوحيد الذي استطاع أن يثبت اسمه وترجمته من بين الأعلام المعروفين بها في ذلك القرن بالذات.

---

[229] – هو أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله الحوات الحسني العلمي الشفشاوني 1159 –1232 هـ= 1747–1816 م .

ملحوظة : نظرا لتعذر حضورها أشغال الندوة فقد وافتنا مشكورة ، الدكتورة حسناء داود محافظة خزانة والدها مؤرخ تطوان محمد داود ، بهذه المداخلة القيمة التي سبق أن ألقتها في المهرجان الثقافي الذي نظمته الجمعية، يوم السبت 15 شتمبر 2012 بمقر ضريح سيدي طلحة الدريج بتطوان.

وسأحاول في هذه العجالة، أن أقف عند هذه الإشارات الواردة عند سيدي سليمان الحوات في تأليفه المذكور، وخاصة منها ما يتعلق بالمواقف أو المعاني الدالةِ على عناية سيدي طلحة الدريج بمسألة الجهاد والرباط على الثغور:

يقول الحوات: إنه – أي سيدي طلحة الدريج– "كان جبلا راسخا في العلوم والمعارف، مقطوعا بولايته، مشهورا بالزهد والورع والسلوك في طريق السلف، دائمَ الصيام والقيام، كثيرَ التهجد والناس نيام، ملازمَ الرباط للجهاد في الثغور، مقصودا للزيارة في مهمات الأمور، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ناشرا للشريعة والحقيقة بكل محضر، تخاف صولته في الحق ملوك العُدوتين، وترجع إلى رأيه فيما يعرو بين الفئتين، وتقدمه أمامها لقتال الكفار، تيمنا بطلعته في طلب الانتصار، فيحمدون حركته، ويجدون بركته ...". ونحن إذا ما تمعنا في هذا الكلام، نجده كلاما يحمل أكثر من معنى، خاصة وأنه يتضمن الإشارة إلى كون سيدي طلحة رحمه الله، كان ذا مكانة واعتبار خاص لدى ملوك العدوتين كما يقول المؤلف، بدليل أنهم كانوا يقدمونه أمامهم لقتال الكفار، فيحمدون حركته، ويجدون بركته كما يقول.

وبعد التطرق إلى موضوع استيطان بني الدريج أولا بمدينة غرناطة الأندلسية، ثم انتقالِ بعضهم إلى مدينة سبتة، وهي المدينة التي نشأ بها سيدي طلحة، وبها ظهر أمره وانتشر سره، تعرض الحوات إلى موضوع انتقال سيدي طلحة المذكور إلى بادية سبتة القريبةِ منها، وبالضبط إلى النواحي التي ستصبح فيما بعد ضاحية من ضواحي مدينة تطوان، بعد بناء الأندلسيين لها في نهاية القرن التاسع الهجري.

ومعلوم في تاريخ تطوان، بل وحتى قبل بناء هذه المدينة، أن سكان هذه الناحية – بوصفها مركزَ رباط وجهاد ومواجهة للغزو الأجنبي والأطماع الخارجية – كانوا دائما يرغبون في استقطاب واستقبال الشخصيات الجليلة، التي تحظى بكرم العلم، وبنور الورع، وبفضل الهداية، وذلك للاهتداء بهديها، والاستجارة بحماها، والسير على خطاها، والاقتداء بها في مسألة الجهاد والذود عن الحمى، ولا أدل على ذلك مما سبق في تاريخ هذه المدينة، من احتضان للشيخ سيدي عبد القادر التبّين، والشيخ سيدي أبي عبد الله الفخار في هذه الأنحاء أيضا، وذلك في

غضون القرن السادس الهجري = الثاني عشر للميلاد.
من هنا كان قدوم سيدي طلحة الدريج إلى هذه النواحي أمرا مرغوبا فيه، حيث إنه بعدما ظهر أمره، وانتشر سره، واعتقده الناس بكل فاضلة وفضيلة، وانحشروا إليه من كل ناحية وقبيلة –كما يقول الحوات –، طلبه أهلها من العزفيين حكامِ سبتة آنذاك، فأجاب طلبهم، رغبة منه في إصلاح حالهم بالعلم والدين، وإعلاء كلمة الله بالاستعداد إلى قوة الرباط في ثغور الجهاد، فنزل فيهم عند ما كان يعرف بخندق الفرجة، وهو مكان قريب من المركز الذي بنيت فيه تطوان فيما بعد، ثم أقام بينهم، ليهتدوا بهداه ويستجيروا بحماه.
ثم إن سيدي سليمان الحوات قد أتى عند الكلام على سيدي طلحة الدريج، بعبارات قويةٍ دالةٍ على أنه لم يكن من الموجهين للقوم فقط، مكتفيا بحث الناس على الجهاد، دون مشاركة منه أو مبادرة، بل إنه كان من المساهمين فعلا في العمليات الجهادية، حيث قال: إنه كان " له فرس يركبه للجهاد، ويقتحم به أعداء الله في كل واد"، وللتحقق من أن دور سيدي طلحة كان إلى جانب ذلك دورا قياديا في هذا المجال، نجد صاحب هذا المخطوط يؤكد أن أهل هذه المنطقة إنما كانوا يتخذونه قدوة وقائدا مطاعا، يتبعونه في خطاه، ويسيرون على نهجه، حيث يقول: وقد "تخلق أهل المنزل بأخلاقه، من النجدة والبأس ورباط الخيل لإرهاب عدو الله وعدوهم، فكانوا يركبون معه في خمسين فرسا، كل واحد منهم في الحرب أسد هصور".
هذا في الحقيقة هو الدور الذي كان منوطا بالعلماء والشيوخ من أولياء الله العارفين بقيمة إعلاء كلمة الله، وحفظ الكرامة الدينية والوطنية عبر التاريخ المغربي، وهذه هي المهام التي كان هؤلاء الأعلام من رجال الله الصالحين، وأرباب الزوايا المصلحين، يولونها أكبر اعتبار في حياتهم، عملا منهم على إرساء الإيمان في قلوب القوم أولا، ثم الحفاظ على أرض الإسلام من الغزو الأجنبي ثانيا.
وهذا هو الشيخ المجاهد أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج، وهذا ما سجله عنه التاريخ من مواقف مشرفة، ليبقى علما يستحق الذكر على مر الزمان، فرحم الله هذا البطل المجاهد، وبارك في ذريته من آل الدريج الأندلسيي الأصل، والذين تواصلوا وتناسلوا في كل من تطوان وفاس بالمغرب، كما ورد الحديث عنهم عند

الأستاذ محمد داود في كتابه "عائلات تطوان"، هذا الكتاب الذي نعمل على إخراجه قريبا بعون الله، والسلام .

أبعاد احتلال البرتغال سبتة المغربية

الدكتور أمين توفيق الطيبي
أستاذ جامعي في اكسفورد

أبعاد احتلال البرتغال سبتة المغربية 818هـ 1415م : السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط والتحكم بتجارة الذهب في السودان

(عن جريدة الحياة اللندنية - :رقم العدد :13654- 30/7/2000)

يتفق الباحثون على أن العامل الديني كان في مقدم الدوافع للحملة التي جهّزها البرتغاليون ضد مدينة سبتة، ويتضح ذلك جلياً من الخطاب الذي وجهه البابا الى رجال الحملة مباركاً إياها ومعلناً عن "غفران ذنوب من يسقط في محاربة الكفار في هذه الحملة."

إن حملة سبتة كانت استجابة للروح الصليبية التي عمّت شبه جزيرة ايبرية مع تقدم ما عرف بحركة "الاسترداد" ونجاحها. ولعل ما أوحى بالهجوم على سبته في المقام الأول الحماسة الصليبية لضرب المسلمين في المغرب ضربة قاضية.

عمل ملك البرتغال جون الأول وزوجته الإنكليزية فليبا لانكستر وأبناؤهما الخمسة جاهدين على استمرار حروب الفرنجة التي بدا وكأن جذوتها أخذت تخبو بعد أن

تم إجلاء المسلمين عن أراضي البرتغال ذاتها، فشرع في حملة سبتة – أولى حملات البرتغال في الخارج – وهي دليل على أن حرب "الاسترداد" والفتوح التوسعية كانا في أساسهما حرباً مقدسة. وينسب الى الأمير هنري قوله لوالده وهو يحاول إقناعة بالموافقة على حملة سبتة إنه لا وجه للمقارنة بين عداء قشتالة المسيحية للبرتغال وبين عدائها "للكفار الذين هم أعداء طبيعيون لنا". ولما استشار الملك جون الأول أحد كبار مستشاريه بشأن الحملة المقترحة ضد سبته أجابه قائلاً: "يبدو لي أن هذه الخطة ليست من بنات أفكارك، وإنما هي بوحي من الله."

كان الأمير هنري – بوصفه رئيساً لنظام المسيح الديْري العسكري – وريثاً لتقليد صليبي طويل. ولما لم يكن بقي ما يمكن تحقيقه في هذا المجال في البرتغال ذاتها بعد أن أُجلي المسلمون عن أراضيها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فإن هنري أراد مواصلة هذا التقليد في ديار الإسلام في المغرب، لمحاربتهم بل والعمل على تنصيرهم. وقبيل إقلاع سفن الأسطول البرتغالي صوب سبتة، ماتت الملكة فليبا، وكان لها دور كبير في إذكاء هذه الروح في نفوس أبنائها وفي صفوف المحاربين. وكان البرتغاليون يحسبون أن ثمة الى الجنوب من المغرب شعوباً وثنية يمكنهم تنصيرها والتحالف معها ضد المسلمين في المغرب.

ويرى المؤرخ المغربي عبدالله العروي أن الدافع الديني يبدو أنه كان الدافع الحاسم في سياسة دول شبه جزيرة ايبرية تجاه شمال افريقيا، وأنه ينبغي النظر الى الهجوم الإيبري على المغرب على أنه في أساسه حملة صليبية ورد فعل على إخفاق الحملات الصليبية في المشرق، وعلى الخطر العثماني الجديد الذي كان يهدد شرق أوروبا.

وبتجديد حملات الفرنجة القديمة ضد المسلمين، كان ملك البرتغال جون الأول يأمل في أن يحوز رضا البابوية وأوروبا وتأييدهما. إن مجمع كونستانس الذي دعي الى الانعقاد في شهر تشرين الثاني نوفمبر 1414م كان يُنتظر أن يضع حداً للانقسام البابوي وينهيه، ورأى البرتغاليون أنهم إذا شنّوا حملة صليبية أمكنهم أن يتوقعوا رضا البابا الجديد والتوصُّل الى سلم مع مملكة قشتالة .وقد جاء الاقتراح بالقيام بحملة ضد مدينة سبته من جانب رئيس أساقفة لشبونة وممثل الملك جون الأول في المفاوضات مع قشتالة في كونستانس. ويذكر أن البابا أصدر مراسيم

عدة يأذن فيها لملك البرتغال بمهاجمة المسلمين وإخضاعهم لحكمه، وبأخذ أموالهم وأراضيهم، وباسترقاقهم، وبأن تؤول أموالهم وأراضيهم لملك البرتغال وذريته من بعده.

-دوافع اقتصادية

لا تقل عن الدوافع الدينية، الدوافع الاقتصادية، كالظفر بالأسلاب والغنائم، وتلبية رغبات الطبقة البورجوازية النامية في مدن البرتغال، والحصول على ذهب السودان الغربي عن طريق سبته، فضلاً عن ثروات المغرب ذاته، وتعزيز تجارة البرتغال في منطقة البحر الأبيض المتوسط حيث كانت التجارة وقفاً على تجار المدن الإيطالية، وحكراً لهم.

إن بعض المؤرخين المحدثين لم يعودوا يكتفون بالتفسير التقليدي لأخذ مدينة سبته بأنه أوحت به الحماسة الدينية والرغبة في تحقيق الأمجاد والبطولات الحربية، ويرى هؤلاء المؤرخون أن الدوافع الاقتصادية والاستراتيجية لا بد من أن كان لها دور كبير في أذهان مخططي الحملة. فسبتة - كما يصفها الأنصاري - كانت مدينة تجارية مزدهرة، وهي منفذ رئيسي لصادرات المغرب وأحد المراكز التي تنتهي إليها تجارة ذهب السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى. إن الدافع للحصول على الذهب كان دافعاً مهماً، إذ كان على الذهب إقبال كبير خلال القرنين الأخيرين من القرون الوسطى في غرب أوروبا .فخلال هذه الفترة ضُربت العملة الذهبية في بلد تلو آخر على غرار الفلورين الذهبي بفلورنسة الذي ضرب سنة 1252م، والدوقة الذهبية التي ضربت في البندقية في حدود سنة 1280م. ولم يكن للبرتغال عملة ذهبية خاصة بها منذ سنة 1383م، فكانت البرتغال من بين الممالك الأوروبية القليلة في هذا الوضع.

إن أسرة أفيس جاءت الى الحكم في البرتغال سنة 1385م بفضل مساندة الطبقة البورجوازية من تجار المدن، وهي طبقة احتلت مصالحها التجارية المقام الأول في سياسة المملكة. وكان تجار لشبونة وأبورتو يطمعون في تجارة البحر المتوسط المجزية التي كانت تحتكرها جمهوريتا البندقية وجنوى وتجار المسلمين، بمن فيهم تجار مدينة سبتة.

وكان البرتغاليون يطمعون كذلك في ثروات سبتة والمغرب الاقتصادية، كمصائد

الأسماك في مياه سبتة وقبالة سواحل المغرب. وكانت تحاك في مدينة فاس أقمشة تصدّر عن طريق سبته، وكان على هذه الأقمشة إقبال في بلدان جنوب أوروبا . وكانت سبته منفذاً رئيسياً لصادرات المغرب من الحبوب، التي كانت البرتغال كثيراً ما تفتقر إليها.

إن الداعي الرئيسي لحملة سبتة هو خوان أفونسو المشرف الملكي على المالية، والممثل الرئيس للطبقة البورجوازية في الحكومة. إن الأزمة الطويلة التي كانت تعاني منها البرتغال قبيل حملة سبتة نتيجة لحروبها مع قشتالة أدت الى نقصان كبير في موارد الدولة، مما حدا بالملك جون الأول الى العبث بالعملة وتخفيض قيمتها لتسديد ديونه.

لم يكن الهدف الرئيسي للتوسع البرتغالي في القرن الخامس عشر الميلادي الرغبة في السيطرة على أراض عبر المحيط، بل السيطرة على ساحل المغرب. ففي المغرب ذاته كان يتوافر الكثير من السلع المطلوبة كالقمح والماشية في الشمال، والسكر وبعض المنسوجات، وكذلك الأسماك والجلود والشمع والعسل .فجنوب المغرب من شأنه أن يساعد على سد ما كانت تعانيه البرتغال من نقص في إنتاج الحبوب، فضلاً عن جاذبية تجارة ذهب السودان الغربي.

ويرى الباحث البريطاني نيفل باربر أن ما دفع الى القيام بحملة سبتة الطموح من جهة، والرغبة من جهة أخرى في إيجاد منفذ للمغامرين الذين أصبحوا عاطلين من العمل بعد أن تم إبرام السلم مع مملكة قشتالة.

الرواية البرتغالية :

إن تواريخ جويس ايانيش دي ازورارا Azurara وبخاصة تاريخه عن الملك جون – خوان الأول– تروي قصة أخذ البرتغاليين مدينة سبتة، وبعد عشر سنوات من سقوط المدينة، بأسلوب حكايات الفروسية، فتقول: حاول ابنا الملك جون الأول إقناع والدهما بالمشاركة في حملة باهرة لكي يتسنى لهما أن يرسَّما فارسين، إلا أن الملك عارض مشروع الحملة بحجة بُعد سبتة، وتكاليف الحملة والتجهيز لها . كما أن الملك تردد في تجريد مملكته من الجند طالما بقي السلم مع مملكة قشتالة غير ثابت. كما أشار الملك الى أن المغاربة سيذكرون دوماً بكل مرارة "هزيمتهم على أيدينا، وسيأخذون في مهاجمة سفننا قرب ساحل إقليم الغرب في جنوب

البرتغال". وقال الملك كذلك إن البرتغاليين سوف يفقدون كل أمل في إرسال مراكبهم وبضائعهم الى مدن حوض البحر المتوسط، وذكّر بالمصير الذي سيؤول إليه أسراهم على أيدي المغاربة.

وفي آخر الأمر، تمكّن هنري من إقناع والده بأنه يقلل من شأن القوات البرتغالية، وبأنه لا وجه للمقارنة بين قشتالة المسيحية وبين "الكفّار أعدائنا الطبيعيين"، مضيفاً أن تسهيل استيلاء قشتالة على غرناطة من شأنه أن يعود بالفائدة على البرتغال، إذ سوف ينشغل القشتاليون بمشكلات غرناطة، مما سيجعل البرتغال تنعم بالسلام زمناً طويلاً.

وكما هي الحال في الحروب "الجيدة" كافة، بدأت حملة سبتة بإيفاد رسل للاستطلاع وجمع المعلومات عن المدينة وتحصيناتها. وجالت في خاطر الملك خطة أشار إليها المؤرخون بأنها "حيلة بارعة". فقد جهّز سفينة لإرسالها الى ملكة صقلية ليعرض عليها الزواج من ابنه بدرو. ولما كانت الملكة أعربت عن ميلها للزواج من دوارتي/ ادوارد وارث العرش، فإن ملك البرتغال كان لا يشك في أنها سترفض عرضه. وهكذا أتيحت لرسله فرصة التجوال بمدينة سبتة ومعاينة ما يريدون.

وتبريراً للاستعدادات الحربية الجارية وحشد الأسطول، قرر ملك البرتغال "أن يتحدى دوق هولندا ويهدده بالحرب إن هو لم يوقف الأضرار والسرقات التي كان رعاياه يوقعونها بالتجار البرتغاليين المارّين بمضائق بلاده". وبالطبع فإن الدوق – وكان على علم مسبق بكل ذلك – تظاهر بتصديق التهديد. ثم بعث الملك جون برسله لاستئجار السفن من غليسية جليقية وبسكاي، وحتى من انكلترا وألمانيا. كما أن الفرسان الإنكليز والفرنسيين عرضوا عليه خدماتهم.

لم يُكشَف للجند عن هدف الحملة إلا بعد إبحار الأسطول، حينما أعلن أحد الرهبان أنه يقصد مدينة سبتة، وتلا عليهم "خطاب البابا، وفيه يغفر ذنوب كل من يسقط في قتال الكفار في هذه الحملة الصليبية."

توقف الأسطول – وقوامه 200 سفينة وخمسون ألف رجل – في مرسى الجزيرة الخضراء قرب جبل طارق بعد أن قدم الملك جون الضمانات كافة لملك قشتالة. وفي البداية صادفتْ الحملة بعض التعثر، إذ هبت ضبابة كثيفة جعلت الأسطول

يتحول الى ناحية مالقة بسبب التيارات، ووقعت بعض الاشتباكات مع مسلمي غرناطة الذين حسبوا أن الهجوم سوف يقع على أراضيهم. كما أن الطاعون الوافد من لشبونة تفشّى بين الجند في سفن عدة. ومع ذلك، فإن الأسطول توجه آخر الأمر الى سبتة. ونزل الجنود الى البر ودارت معارك عنيفة، وكان يقود الجند الأميران ادوارد وهنري. وقد أبدى المدافعون عن المدينة، قبيل نزول الغزاة الى البر، نشاطاً كبيراً في تعزيز دفاعهم، وكان بالإمكان مشاهدتهم وهم يجْرون فوق أسوار المدينة، مما يدل – على حد قول أزورارا – أن الخوف كان أبعد ما يكون عن قلوبهم.

وكما يذكر أزورارا في تاريخه، فإن "صاحب سبته صالح بن صالح" خاطب البرتغاليين بالعبارات الآتية: "إننا لا نخشى هجوم النصارى علينا، فهم ليسوا كثيرين عدداً، وبوسعنا قتالهم، ومن يدري؟ فلعلّهم يتيحون لنا الفرصة لإحراز نصر كبير... ومن الممكن أن يقع أسطولهم في أيدينا. وقد نستعمل أوانيهم الذهبية والفضية في أعراس أبنائنا... إن الأسطول قسمان، ونعتقد أنهم سينزلون اليوم الى البر، وسوف نذبحهم على الشواطئ، إذ إن أكثرهم مثقلون بالدروع لا يقوون على الحركة إلا ببطء وصعوبة، بينما نحن خفاف ونستطيع التحرك بسرعة ومهاجمتهم. وإذا سقطوا على الأرض تعذّر عليهم النهوض .وأنى لهم ذلك، وهم كجلاميد الصخر وزناً."

ولم يكن بالأمر الهيّن الهجوم على أسوار مدينة سبتة الثلاثة المتتالية والقتال في أزقة المدينة وشوارعها الضيقة التي يسهل الدفاع عنها. دامت المعركة خمس ساعات من دون توقف. وقام المغاربة – وهم أكثر عدداً وأقل سلاحاً – بالهجوم من دون سلاح على الغزاة. ويشيد أزورارا ببلاء محارب مسلم خارج باب المدينة فيقول: "كان رجلاً طويل القامة، أسود اللون كالغراب، وكان عاري البدن، يثير منظره الفزع والرعب. ولم يستعمل سلاحاً سوى الحجارة .وكان الحجر الذي يقذف به يبدو وكأنه قذف من منجنيق أو مدفع بفضل قوة ذراعه .وقد أصاب بحجر قذف به خوذة ضابط برتغالي فأطارها عن رأسه، ولكن الضابط رماه برمحه فأرداه قتيلاً. ويذكر أزورارا أن السبتيين قاتلوا دفاعاً عن منازلهم حتى النهاية، مؤثرين الموت على الفرار. وكانوا – وهم عزّل من السلاح – يرمون بأنفسهم

على الجند المسلّحين مستميتين في القتال، ولم يستسلموا حتى أمام الكثرة من الجند. وكان من يسقط منهم جريحاً يواصل القتال ويلوّح بيده على أعدائه."
كان سقوط سبتة في أيدي المغيرين البرتغاليين في 1415/8/21. وفي اليوم الثالث والعشرين من آب اغسطس قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع في المدينة الى كنيسة كاثوليكية. وأقيمت فيها حفلة كبيرة، وتليت صلاة شكر وامتنان في يوم الأحد التالي 1415/8/25، وجرى في الحفلة ترسيم أبناء الملك الثلاثة – بحسب رغبتهم – فرساناً، وولّي على المدينة الكونت بدرو دي منزيس وتُركت معه حامية قوامها 2700 رجل وسفينتان لحراسة المضيق.
وبعد سقوط المدينة بثلاث سنوات، قام "أهل فاس وأهل غرناطة وملك مراكش وملك تونس وملك بجاية ومعهم الأسلحة والمدافع الكثيرة" بمحاصرة مدينة سبتة براً وبحراً. وقد قدَّرت كتب التاريخ البرتغالية عددهم بمئة ألف رجل، بمبالغة تتفق مع الأسلوب الملحمي الذي دُونت به تلك التواريخ. وهرع الأمير هنري الى نجدة المدينة بأسطول جديد، وبعد أن "أوقع مذابح بالمسلمين، حرّر المدينة وعاد ظافراً الى البرتغال"، وكان غاضباً لأن "الظروف لم تسمح له بأخذ مدينة جبل طارق كما كان قد خطط."

رواية صاحب "نشر المثاني"

لا تتوافر في المصادر العربية تفاصيل كافية عن حملة سبته، باستثناء نتف أوردها صاحب "كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" الذي ذكر أن استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة كان بعد حصار طويل للمدينة، وأنه كان على أثر خديعة لجأوا إليها. فقد نقل عن صاحب "نشر المثاني" قوله: "إن النصارى جاؤوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً، وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة 818. وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد... وسمعتُ من بعضهم أن الذي جرّأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبته على أن يفوض إليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلّتها، وأن يبذلوا له خراجاً معلوماً في كل سنة. فكان حكمُ المرسى حينئذ لهم دون المسلمين. ولو كان المسلمون هم الذين

يلُون حكم المرسى ما تركوهم يُنزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها". ويضيف صاحب "نشر المثاني" أن أهل سبتة جاؤوا الى سلطان فاس مستصرخين "وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالاً ونساء وولدانا. إلا أن السلطان ردهم الى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم، حتى تفرّقوا في البلاد". وما إن تم للبرتغاليين الاستيلاء على سبتة حتى قاموا بتحصينها. وينقل الناصري السلاوي عن مؤرخ برتغالي اسمه مَنويل ما مفاده أن عبدالله بن أحمد – المعروف بسيدي عبد – اغتصب الملك من أخيه السلطان المريني أبي سعيد عثمان، ولكنه "تكدّر عيشه بذهاب سبتة... وتكدّر المسلمون لفوات هذه المدينة العظيمة منهم."

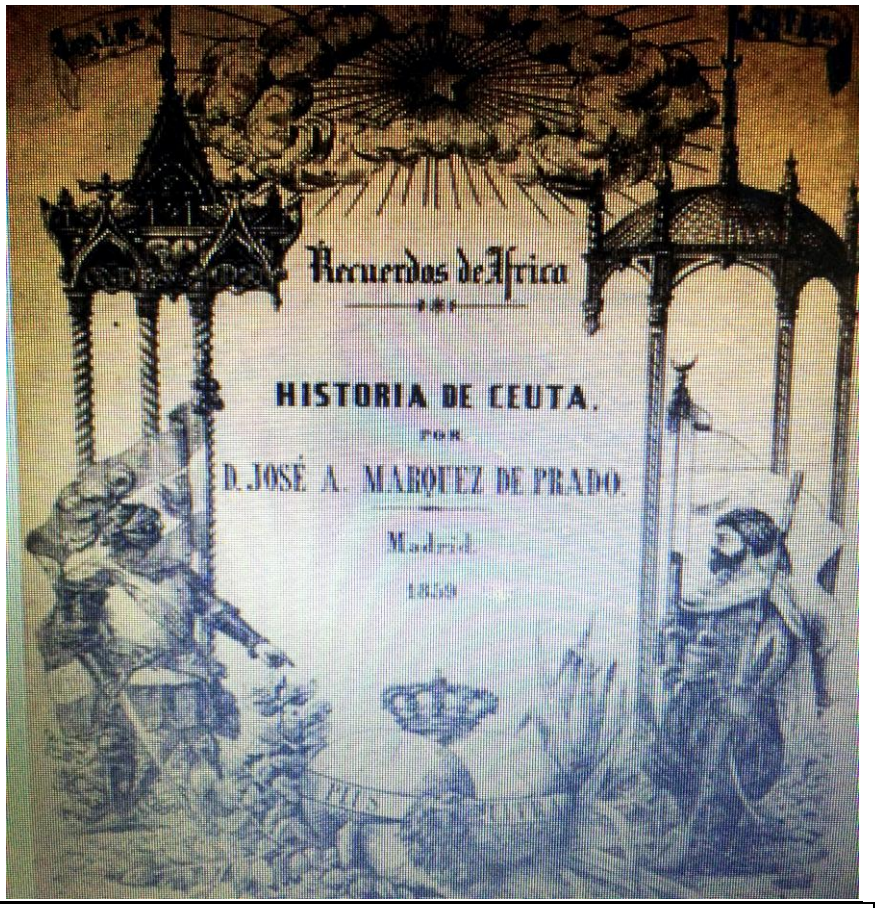

كتاب " تاريخ سبتة " للاسباني خوصي ماركيس دي برادو (طبعة ثانية سنة 1859) و تقدم صورة الغلاف المواجهة الشرسة بين المجاهدين المغاربة في تصديهم للصليبيين والذين سعوا بعد انكسارهم في الشرق ، إلى التعويض باحتلال الثغور المغربية ومنها سبتة ومليلية وغيرها.وقد خص فيه دي برادو المجاهد سيدي طلحة الدريج وتزعمه الغارات على المحتل البرتغالي (وكان يسميه **SidiTalpa**) بصفحات كاملة واصفا إياه "المحارب و العالم" **guerrero y sabio** انظر صفحة **69** وما بعدها من الكتاب :

Historia de la plaza de Ceuta, obra original, escrita, corregida y aumentada en esta segunda edicion . por José A. Marquez de Prado . Recuerdos de Africa،1859.

ويُذكر أن أهل سبتة توجهوا الى مدينة فاس ملتمسين مساعدة السلطان عبدالحق لدحْر المغيرين البرتغاليين، وصرح السلطان بعجزه عن نصرتهم.

لم يهدأ للبرتغاليين بال ولا طاب لهم مقام منذ أن وطأت أقدامهم أرض سبتة، إذ تعرّضوا لهجمات مستمرة من جانب القبائل من المناطق المجاورة لسبتة والمتطوعين المجاهدين من أنحاء المغرب، وبخاصة مدينة فاس. وتقول الرواية البرتغالية إن بدرو دي منزيس، أول ولاة البرتغال على سبتة، كان يرتدي درعه باستمرار على مدى 16 عاماً لكي يكون على أهبة في حال وقوع هجوم مرتقب من جانب المسلمين الذين كانت هجماتهم لا تنقطع طوال فترة ولايته 1415- 1437م.

إن حملة سبتة احتاجت الى المال والسفن والرجال والأسلحة، أما المال فقد تم الحصول عليه من أصحاب المصارف وعن طريق العبث بالعملة. وأما السفن فقد جُمعت من موانئ كنتبرية ومنطقة خليج بسكاي كافة. وفي خطاب لملك إنكلترا هنري الخامس بتاريخ 26 أيلول سبتمبر 1414م، يأذن الملك لممثل البرتغال بشراء 400 رمح، كما يأذن في خطاب آخر بتاريخ 26 كانون الثاني يناير 1415 بشراء 300 رمح وبتجنيد عدد من الرجال المسلحين.

لم تُجدِ تحصينات سبتة كما لم يجد الرماة والمدافعون عنها في وجه القوات البرتغالية الغازية، فمع أن أعدادهم كانت كبيرة إلا أن أساس نجاح الحملة كان يكمن في عامل المباغتة الذي هيأه تخطيط المغيرين الدقيق لها.

ولما وافق ملك البرتغال على قيام الحملة، أصر على أن يشارك فيها بنفسه آملاً – على حد قوله – في أن يكفّر سفكه دماء "الكفار" عما كان قد سفكه من دماء النصارى.

إن الثغر الجديد للبرتغال لم يواجه سوى هجوم واحد ذي بال شنّه المغاربة والغرناطيون معاً سنة 1419م، ولكن الهجوم فشل نتيجة للخلافات في صفوف بني مرين. وفي العام التالي، اغتيل السلطان المريني أبو سعيد عثمان، وتفاقمت بمقتله الحرب الأهلية في المغرب.

نتائج السقوط

ترتبت نتائج مباشرة على استيلاء البرتغاليين على سبته، وهي المدينة التي آلت

إلى إسبانيا منذ سنة 1580 حينما ضم ملك إسبانيا فيليب الثاني بلاد البرتغال الى مملكته، وما زالت سبته في أيدي الإسبان الى اليوم.

إن النتائج المادية لأخذ البرتغاليين سبته كانت مخيبة لآمالهم، ولم تبدُ للعيان فوائد مباشرة نتيجة استيلائهم عليها. إن أخذ سبته لم يكن له سوى أهمية رمزية، ولم تُبذل محاولة من قبل البرتغاليين لاستغلال احتلالهم قبل سنة 1437م حينما جهزوا حملة للاستيلاء على مدينة طنجة باءت بالفشل.

إن المدينة – وبخاصة مخازن التجار ومتاجرهم ومنازلهم – تعرّضت لأعمال النهب والسلب من قبل الغزاة، وذهبت وقوداً للنيران محتويات المتاجر والمخازن من التوابل والثياب الرفيعة والسجاجيد الشرقية. أما سكان المدينة فقد قتل الكثير منهم، واستُرقّ بعضهم، ونزح عن المدينة المنكوبة من استطاع من ساكنيها. وبعد يومين من سقوط المدينة، بادر ملك البرتغال الى تحويل مسجدها الجامع الى كنيسة، هي اليوم كاتدرائية سبتة.

إن معظم التجارة التي كانت تمر بمدينة سبتة لما كانت في أيدي المسلمين توقفت وتحولت عنها الى موانئ شمال افريقيا الأخرى. وفي حين أن بعض أفراد الحامية البرتغالية كانوا يقومون بنهب المزارع والبساتين في أحواز سبتة، أو بممارسة القرصنة في مضيق جبل طارق، فإن الملك لم يجن من انتصاره مكسباً مادياً يذكر، فهو لم يزد من إيراداته بل أصبح لزاماً عليه الإنفاق على حامية المدينة وقوامها نحو ثلاثة آلاف رجل. إن سبتة وقد خلت من سكانها وأصبحت في عزلة عن المنطقة المحيطة بها أصبحت – بعد أن كانت ذات يوم ميناء مزدهراً – عبئاً ثقيلاً على الخزانة البرتغالية.

وقد مكّن احتلال سبتة البرتغاليين من الحصول على بعض المعلومات حول بلاد السودان في أعالي حوضي نهري السنغال والنيجر، وهي مصدر الذهب بالنسبة للمغرب. وكان البرتغاليون يصْبون الى الاتصال المباشر بمصادر الذهب في السودان الغربي، إذ لم تكن للبرتغال عملة ذهبية خاصة بها منذ سنة 1383م، فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في مثل هذا الوضع.

إن استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة قوبل بالترحيب في أوروبا وأثار حماسة كبيرة لأنه كان بمثابة حملة ناجحة، وكان من شأنه تعزيز هيبة البرتغال وملكها في

أوروبا. كان الأتراك العثمانيون يتوغلون آنذاك في شرق أوروبا بعد انتصارهم الكبير في معركة نيقوبوليس سنة 1396م على تحالف باركه البابا، ولذلك فإن أوروبا نظرت إليه كأول هجوم مضاد ناجح ضد المسلمين. أضف الى ذلك أنه تمّ بسقوط سبتة الاستحواذ على موقع حيوي على ساحل البحر المتوسط، إذ لا ينكر – كما يقول المؤرخ البرتغالي أزورارا – أن سبتة هي مفتاح البحر المتوسط بأسره. وحرص ملك البرتغال على تأكيد أن استيلاءه على سبتة لم يكن باسم البرتغال فحسب بل باسم أوروبا بأسرها.

وبعد الاستيلاء، بدأ البرتغاليون في مزاولة القرصنة في مياه غرب البحر المتوسط. فأنشأ حاكم سبتة البرتغالي سفناً كانت تكمن لمراكب المسلمين التي تتردد على ميناءي جبل طارق ومالقة، وأصبح قراصنة البحر البرتغاليون يفرضون شروطهم على المراكب في البحر المتوسط، ويأسرون من فيها من المغاربة ويسترقونهم ما لم يقوموا بفداء أنفسهم.

إن احتلال سبتة من قبل البرتغاليين يمثل أول استيطان أوروبي ثابت على ساحل المغرب الأقصى، كما كان بداية لتوسع استعماري أدى خلال القرن الخامس عشر الميلادي الى احتلال الكثير من موانئ المغرب من قبل الإسبان والبرتغاليين وفاتحة سيطرة أوروبا على قارتي افريقيا وآسيا واستعمار أراضي القارتين.

سبتة قبيل الاحتلال:

تتحكَّم مدينة سبتة بالملاحة في مضيق جبل طارق بحر الزقاق، وظلت – بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالاندلس – أندلسية الطابع. وغصت بالنازحين من الأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، حينما أخذت قواعد المسلمين في الأندلس – كقرطبة واشبيلية – تتهاوى.

اشتهرت سبتة بالتجارة براً وبحراً. وكان يقصدها تجار المدن الايطالية – وبخاصة تجار جنوة – وكانت لهم فنادق فيها. كما كانت بدايةً لطرق القوافل المؤدية الى غانا والسودان الغربي. كما اشتهر أهل سبتة بركوب البحر وانشاء المراكب. وكانت فيها دار صناعةٍ لإنشاء السفن، وكانت القاعدة الرئيسية لأسطول الموحدين، وكان لرماتها شهرة رماة الغُزّ من التركمان في المشرق.

كان من بين النازحين عن سبتة بعد سقوطها في أيدي البرتغاليين 818 هـ

1415م الفقيه محمد بن القاسم بن عبدالملك الانصاري، السبتي الدار والنشأة والمولد.
وصنَّف كتاباً بعد سبع سنوات من سقوطها، سماه "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيِّ الآثار"، استعرض فيه معالمها قبيل سقوطها، فذكر مقابرها ومساجدها وخزائنها العلمية ومحارسها وأزقتها وحماماتها وحوانتيها وفنادقها وديار الاشراف فيها ومطاميرها وطواحينها وأرباضها وأبوابها ومقاصرها ومراسيها ومصايدها. كما تحدث عن احواز سبتة، فذكر وفرة مياهها وغلاتها وفواكهها على مدار فصول السنة. ويتبين من هذا الثبت المفصل ان مدينة سبتة كانت – الى أوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي – مدينة تنعم بالرخاء والازدهار والعمران وان سقوطها كان كارثةً، اذ تعرضت المدينة وأهلها لأعمال النهب والسلب والتقتيل، ونزح عنها معظم سكانها.
يذكر الانصاري انه كان بسبتة ألفُ مسجد، وأن عدد الخزائن العلمية المكتبات بها 62 خزانة، وأن عدد الروابط والزوايا 47، أما محارسُ المدينة فعددها 18 محرساً تمتدُّ الى 12 ميلاً من خارجها من ناحيتيْ البحرين.
وكان بسبتة 22 حمَّاماً، و174 سوقاً. أما المنجراتُ المعَّدةُ لعمل القسيّ فعددُها 40 منجرة. ولما كانت سبته ميناءً تجارياً يقصده التجار الاغراب، فأنها احتوت على 350 فندقاً لخزن الحبوب وايواء المسافرين .
أما ديارُ الاشراف الجمارك حيث يقيم المشرفون الماليون – فعددها أربعة :دار الاشراف على عمال الديوان أمام فندق النصارى – وفنادقهم سبعة، ودار الاشراف لشدِّ الأمتعة وحلِّها، ودار الاشراف على البناء والنجارة، ودار الاشراف على سكَّة المسلمين.
وكان بسبتة من المطامير لخزن الحبوب أربعون الفاً يمكث الزرع القمح فيها "الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحق تغير لطيب البقعة واعتدال الهواء، ولكونها جبلية. فسبتة في ذلك شبيهة بقاعدة طليطلة من بر الأندلس."
ولما عُني أهل سبتة بالرمي لأغراض الدفاع عن ثغرهم، فقد كان بسبتة من المرامي المعبّر عنها بالجلسات – أربعة وأربعون مَرْمى للرماة "إذ الرمي طبعٌ لأهل سبتة طبعوا عليه، فلا تلفي منهم شريفاً ولا مشروفاً، ولا كبيراً ولا صغيراً، الا وله بصر

بالرمي وتقدم فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقارة، وهو من حجة الأشياء التي تميزوا بها ."

وكان الشريفُ الادريسي – وهو من أبناء سبتة – قد نوَّه بمصائد الحوت في سبتة، فذكر ان يصاد بها من السمك نحو من مئة نوع، ويصاد بها السمك المسمَّى الثُن الكثير، كما يصاد ببحرها المرجان. وبسبتة – كما يقول الأدريسي –"سوق لتفصيل المرجان وحكه وصُنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهز به الى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان غرب افريقيا لأنه في تلك البلاد يُستعمل كثيراً. وبعد الادريسي بنحو ثلاثة قرون، يذكر الانصاري ان بسبتة من المصايد 299 مصيداً مفترقة.

واشتهرت أحواز سبتة بوفرة مياهها وغلاتها، وخصوصاً في قرية بليونش الى الجنوب من سبتة. ويذكر الانصاري بليونش – ويرسمها بينونش – فيتحدث عن كثرة وتعدد فواكهها الصيفية والشتوية والخريفية، بحيث توسق منها الأجفان وتسير الى المغرب وبلاد الأندلس. كما تكثر في منطقة سبتة الغابات، وبها ضروب الشجر كالأرز والبلوط، مما يعود نفعه على ثغر سبتة ويُستعان به على انشاء المراكب وما يرجع الى الأمور الجهادية .

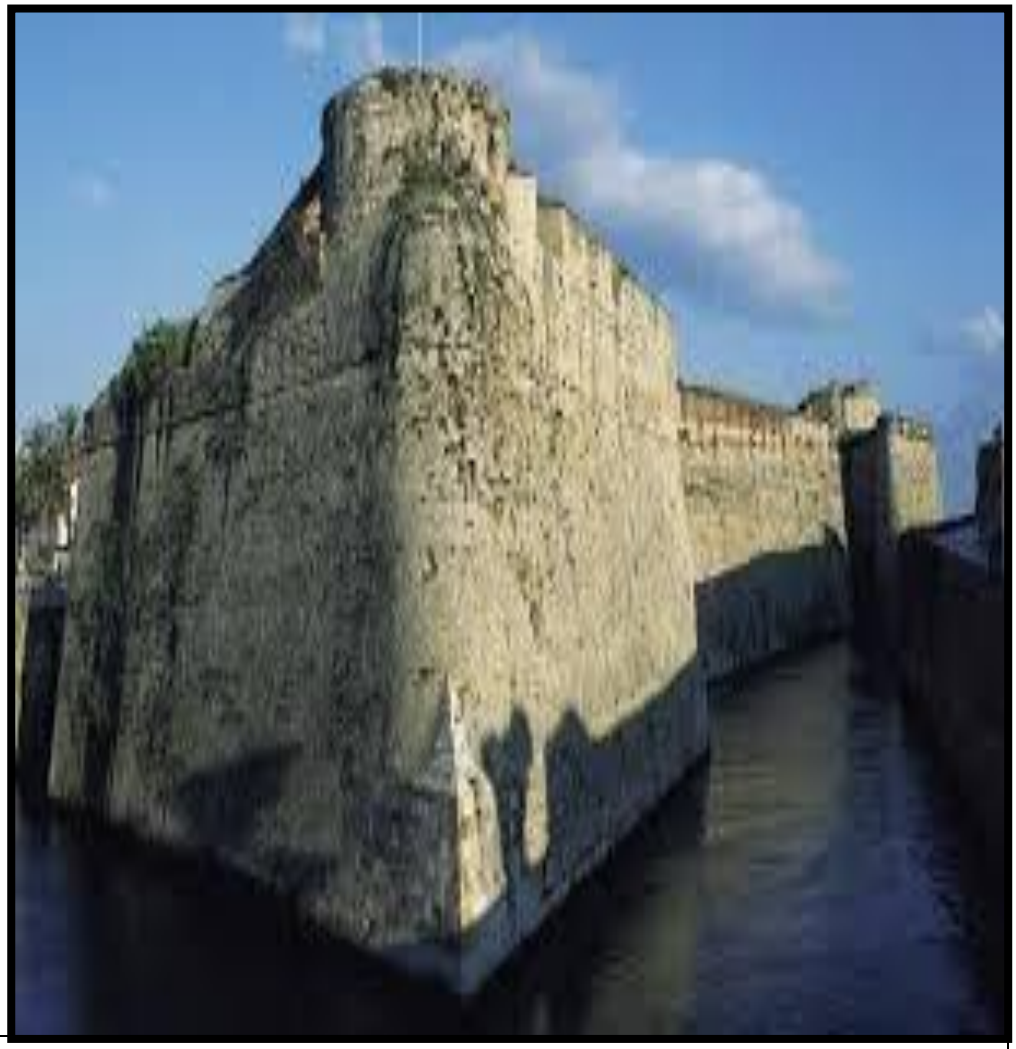

التحصينات الضخمة والهائلة المحيطة بمدينة سبتة والتي بناها المحتل البرتغالي في البداية ثم زاد في تحصينها من بعدهم الاسبان والتي كانت دائما تصد هجمات المجاهدين والسلاطين المغاربة في حروبهم المستمرة لتحرير المدينة و إعادتها إلى حضن الوطن.

نسخة من الصفحة الاولى من كتاب "المسك الأريج لأخبار الشاميين وبني الدريج " وهو في حوزة أسرة الشامي بمدينة فاس ويبدو أن الكتاب وصل إليهم ناقصا ، لذا فإن ما نملكه عنه من معلومات جد ضعيف ، ويبدو من العنوان أن علاقات المصاهرة قد تكون جمعت بين الاسرتين الكريمتين ، وفقنا الله للحصول عليه وتحقيقه ونشره ، كما تم ذلك مع كتاب سليمان الحوات الاول :"المسك الأريج في أخبار اولاد الدريج"، على يد الدكتور رشيد العفاقي.

سيدي طلحة الدريج يخلد فى "معلمة المغرب"

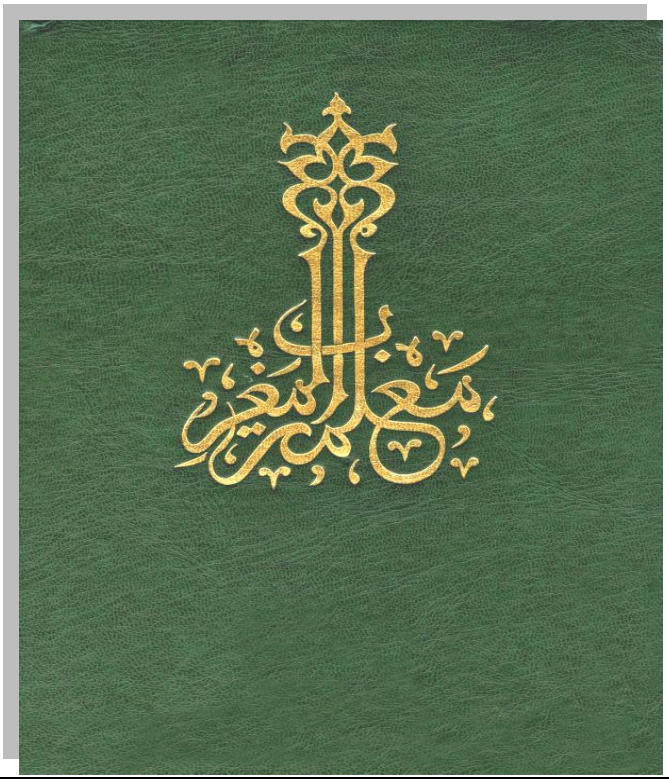

"معلمة المغرب " (27 مجلدا)
فكرة وإشراف أستاذ الأجيال المؤرخ المرحوم د. محمد حجي

معلمة المغرب

قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى.

1

من إنتاج
الجمعية المغربية
للتأليف والترجمة والنشر

نشر
مطابع سلا

1989 / 1410

Arts et coutumes des Maures, H.T., fasc. 3, 1968 ; E. Westermarck, *Histoire du mariage*, vol. IV, Trad. A.V. Gennep, Paris, (sans date).

أحمد جوماني

الدرّاق، أسرة تطوانية أصلها من قبيلة الأخماس، وقد انقرضت هذه الأسرة بتطوان.

م. ابن عزوز حكيم، *كشاف أسماء عائلات تطوان* (من سنة 1483 إلى سنة 1900) تطاون 1999، والمراجع العربية والأجنبية التي ذكرها في الرقم 1615.

محمد ابن عزوز حكيم

الدّرّاق (أسرة سوسية ـ فاسية) ← **أدرّاق**

الدرّيج، أسرة تطوانية تنتمي إلى الأنصار من أصل أندلسي. انتقلت أولا إلى برّ العدوة لتتخذ من سبتة سكناً لها. وتستقر أخيراً في تطوان بعد سقوط سبتة في يد النصارى عام 818.

ومن تطوان انتقل بعض أفرادها إلى فاس، ليصبح لأسرة الدريج حضور بين الأسر الأندلسية بكل من حاضرتي فاس وتطوان.

ويتفق الذين تحدثوا عن هذه الأسرة، بأن سلسلة نسبها يتصل بجدهم الأعلى، الشيخ أبي يعلى طلحة بن عبد الله الدرّيج، السبتي النشأة، دفين تطوان، وصاحب الضريح المشهور بها (كان حيا عام 832).

وقد ثبت هذا النسب حسب سليمان الحوات "في الكثير من صدقائهم، التي هي بخط جملة من أعيان العدول، بالحضرتين الفاسية والتطوانية، أهل الضبط والتحري من العلماء الموثقين بهما". ولذلك أورد الحوات في تقييد سلسلة هذا النسب، بتسمية رجاله إلى حدود الجد الأعلى لأسرة الدرّيج، الشيخ أبي يعلى طلحة الدريج.

غير أن الذين تحدثوا عن هذه الأسرة يذكرون أن الشيخ سيدي طلحة من نسل قاضي سبتة وخطيبها العلامة المحدث ولي الله أبي محمد عبد الله الدراج الأنصاري دون تحديد علاقة هذه القرابة إن كان طلحة ينزل فيها ابناً للمذكور أو حفيداً من أحفاده.

وقد اجتهد الحوات في تفسير التحول الذي حدث في اللقب وانتقاله من صيغة الدراج إلى الدريج.

وفي تقييد بخط المؤرخ عبد السلام بنسودة نقلا عن بعض الطرر الموثقة، يرد لقب هذه الأسرة منذ البداية بصيغة الدرّيج. وهي تقييدة تعرف بهذا القاضي وتذكر أحواله بما نصه : "قاضي مدينة سبتة وديار جبالها السبعة الشيخ الإمام الفقيه المالكي النوازلي الخطيب البالغ الصوت المحدث الولي الصالح والذرية الصالحة أبو محمد عبد الله المعروف بالدريج، من عقب عبادة بن الصامت، أحد النقباء،

-3990

الحزرجي الأنصاري، الغرناطي الأصل، الأندلسي ثم السبتي، المتوفى بها قاضيا في أوائل المائة الثامنة، ودفن بخارجها. وقبره بها مشهور يتبرك به". من خط محمد بن علال القادري.

ومعلوم أن القاضي أبا محمد عبد الله الدريج الذي تعنيه هذه التقييدة هو غير القاضي أبي عبد الله محمد بن عمر ابن الدراج السبتي الأنصاري (ت. 693) الكاتب الأديب المؤلف لكتاب *الكفاية والغناء في أحكام الغناء*، وغيره من المؤلفات الأخرى. فهذا الأخير وإن كان سبتيا وأنصاريا، فأصوله ترجع إلى تلمسان، وليس إلى الأندلس كسابقه، وقد تولى في مرحلة من عمره قضاء سلا، واشتهر بكنية سلفه ابن الدراج، كما اشتهر بهذه الكنية أبناؤه من العلماء بعده. (انظر ابن الدراج).

ويتبين مما سبق أن الولاية والصلاح كانتا الميزة التي عرفت بها أسرة الدريج، وهي ما تزال في سبتة مع قاضي سبتة الشيخ عبد الله الدريج الذي وصف بالولاية والصلاح ؛ أو حين استقرارها بضاحية تطوان، مع الشيخ سيدي طلحة، الذي جمع بين الولاية والصلاح والعلم والجهاد. وقد تسلسل بعض هذه الصفات في عقبه المستقر بكل من حاضرتي تطوان وفاس.

ولفضل هذه الأسرة، وجلالة موقعها العلمي والاجتماعي، ألف الشيخ سليمان الحوات، تقييده الشهير في بني الدريج، اعترافا لما أحرزوا عليه من "جلالة المنصب، علماً وولاية، بكل من عدوتي المغرب [والأندلس، إذ] لهم فيها الزوايا الواسعة الحرمة، والمزارات التي تتكشف عندها عن الزائر الغمّة".

فأصل هذه الأسرة كما ألمعنا قبل، من الأندلس، وبالضبط من حمراء غرناطة. نزحت إلى سبتة من برّ العدوة لتستقر بها إلى حين. وقد ظل انتماؤها الأندلسي ثابتاً يذكر في أنساب المتأخرين من أبنائها، بل إن أسرة الدريج بعد تشييد مدينة تطوان، تصبح ضمن الأسر الأندلسية الشهيرة بها، فتحتل بذلك، وبما ورثته من علم وولاية، مركزا مهما في بيئة تطوان الاجتماعية، وبين أسرها، " فصاروا في عداد البيوتات الأندلسية بتطوان المحروسة، ومن أهل الحرمة التي أبقاها السلف للخلف، مع التخلق بالعلم والعمل، والتعلق بعوامل الحسب والنسب".

ومما يلاحظ أن هذه الأسرة رغم فضلها لم تتسع فتكثر بيوتها، بل ظلت محدودة الأفراد، حتى إن الشيخ أبا الربيع الحوات وهو يجمع تقييده في هذه الأسرة، يعدد حسب علمه الموجودين من أبناء الدرّيج على عهده في تسعة أنفار. اثنان منهم بتطوان، هما : الفقيه أبو حامد العربي بن عبد السلام الدريج، وابن أخيه الطالب محمد ابن الفقيه الأجل أبي الحسن علي بن عبد السلام الدريج. وسبعة منهم بحضرة فاس، وهم من عقب الفقيه الأديب محمد بن محمد الدريج (ت. 1126) الذي انتقل إلى سكنى فاس أواخر

القرن الحادي عشر للهجرة.

ويذكر محمد داود أن أسرة الدريج قد انقرضت من تطوان، وأن الموجود منهم الآن بتطوان، إنما هم ممن ورد عليها من فاس حوالي منتصف القرن الرابع عشر (20 م).

س. الحوات، تقييد في بني الدريج، مخطوط ؛ م. القادري، نشر الثاني، 3 : 217 ؛ م. داود، تاريخ تطوان، 1 : 77 ؛ 3 : 14 ؛ ع. ابن سودة، كناشة عبد السلام بنسودة، مخطوطة ؛ ابن الزيبر، صلة الصلة، 3 : 43 ؛ التجيبي، برنامج التجيبي، 167 ؛ برنامج الوادي آشي، 130 ؛ الوافي بالوفيات، 2 : 141 ؛ أ. ابن القاضي، درة الحجال، 2 : 248 ؛ م. المنوني، ورقات، 345 ؛ ابن الحاج النميري، مذكرات، [نسخة مرقونة] ؛ م. الكتاني، سلوة الأنفاس، 2 : 298 ؛ 3 : 14 ؛ أ. الرهوني، عمدة الراوين، مخطوط، 4 : 53.

الدَّرِّيج، طلحة بن عبد الله السبتي، يكنى أبا يعلى، الأندلسي الأصل، السبتي النشأة، دفين تطوان وصاحب الضريح المشهور بها. أصل سلفه من غرناطة. ثم انتقلوا إلى سبتة حيث نشأ بها الشيخ أبو يعلى طلحة الدريج.

لا يعرف له بالضبط تاريخ ولادة ولا تاريخ وفاة، غير أنه كان حياً في النصف الأول من القرن التاسع (15 م). فيرد ذكره بشكل صريح سنوات 830 و831 و832 وهو يتزعم المجاهدين فيقود الحملات ضد النصارى لمحاصرة بلده سبتة المحتلة، والعمل على تحريرها.

ولاشك أن الشيخ طلحة كان ممن شاهد مأساة سقوط بلده سبتة في يد النصارى عام 818.

وقد تحدث الذين ترجموا له عن نشأته بسبتة واستفادته من شيوخها وعلمائها، حتى إذا ما ظهر فضله، وبان علمه، انتقل إلى بعض البوادي القريبة من سبتة بطلب من أهلها، وباستئذان من أمير سبتة العزفي آنذاك.

وحسب سليمان الحوات في التأليف الذي خصّ به أولاد الدريج، فإن البادية التي انتقل إليها الشيخ طلحة هي نفس المدشر الذي كان به استقراره، ومدفنه، حيث يوجد اليوم ضريحه بتطوان من أعلاها.

وعندي أن انتقال الشيخ طلحة إلى مستقره الجديد يكون في الأغلب غداة سقوط بلده سبتة في يد النصارى. ففي أسلوب الحوات وقد نقل عمن سبقه بالترجمة للشيخ المذكور ما يفيد أن نزول الشيخ بهذا المحل حيث مدفنه الآن ـ كان بهدف تنظيم العملية الجهادية بتعبئة المجاهدين والإغارة على النصارى المحتلين لسبتة. "..ثم لما ظهر أمره... وكانت بادية سبتة القريبة منها خالية من أمثاله، لا جرم طلبوه من بعض أمرائها العزفيين ليهتدوا بأنواره ويستجيروا بجواره، فأجابهم إلى ذلك في الحين رغبة في إصلاح حالهم بالعلم والدين وإعلاء كلمة الله بالاستعداد إلى قوة الرباط في ثغور الجهاد. وأنزله رضي الله عنه في محلتهم بمجشر واسع العمارة يقال له خندق الفرجة، فيه عين من الماء الغزير. وكان قويا، شهما، كميا، قرنا، طويل القامة، أسمر اللون، يلبس جبة خضراء، له فرس يركبه للجهاد ويقتحم به أعداء الله في كل واد. وتخلق أهل المنزل بأخلاقه من النجدة واليأس ورباط الخيل لإرهاب عدو الله وعدوهم. فكانوا يركبون معه في خمسين فارسا، كل منهم في الحرب أسد هصور... إلى أن توفي رحمه الله ودفن بمتعبده من المجشر المذكور حيث روضته الآن".

أما المقصود بالأمير العزفي الوارد في هذا النص فهو القائد صالح بن صالح العزفي، وهو الذي كان يتولى سبتة عند سقوطها في يد النصارى، وقد ظل فيما بعد يتزعم قيادة المجاهدين لأجل تحريرها. وسيصبح فيما بعد أيضا واليا على طنجة من قبل السلطان المريني وسيكون له تأثير في هزيمة البرتغال عند محاصرتهم طنجة عام 841، والتفاوض معهم لأجل التنازل عن سبتة، مقابل السراح للأمير البرتغالي الأسير دون فيرناندو، الذي كان قد نقل رهينة إلى فاس.

يؤكد هذا ما ورد في نقول وتقاييد جمعت في كتيب أسماه صاحبه " *الاستبصار والتفكر والاعتبار، في أهم ما ورد من الاخبار، عن كفاح المجاهدين الأبرار، من أجل مطاردة النصارى الكفار، عن جميع المدن والأمصار*". عند الحديث عن السنوات التي أعقبت سقوط سبتة ومحاولات المجاهدين لاسترجاعها بما نصه : "... ثم قال صاحب *الكناشة* : إنه وجد بتقييد مجهول صاحبه بأنه عند انسحاب جيوش السلطان لم يرتفع الحصار البري على المدينة، بل واصله أهل القرى المجاورة لها طيلة سنة 822 ، وأنه في سنة 823 تزعم هذا الحصار القائد صالح بن صالح العزفي، وهو الذي كان يحكم سبتة عند سقوطها بأيدي النصارى. واستمر الحصار إلى منتصف سنة 829 بدون انقطاع رغم الإمدادات التي كانت تصل إلى النصارى من البرتغال".

وقد ظن محمد داود حين اطلاعه على قول أبي الربيع الحوات السابق الذكر أن المقصود بالأمير العزفي هو أحد العزفيين ممن حكموا سبتة في دولتهم خلال النصف الثاني من القرن السابع (13 م)، وتبعا لذلك رجع كون الشيخ أبي يعلى طلحة الدريج هو من رجال القرن السابع. والواقع أن الرجل من رجال القرن التاسع (15 م).

وينفرد الكتيب المذكور وفي نفس السياق بنقل تقاييد تاريخية على جانب كبير من الأهمية، تلقي مزيدا من الأضواء، على شخصية أبي يعلى طلحة الدريج ونشاطه في الجهاد فيقول : "... ونقلا عن نفس المصادر يقول صاحب *الكناشة* : إنه في سنة 860 تزعم الرباط على سبتة الولي الصالح الشريف البركة سيدي طلحة الدريج صاحب الضريح المشهور بتطاون، ويقول : إن هذا الرباط ابتدأ في شهر ربيع الأول من سنة 830، وكان عدد المرابطين يفوق الأربعمائة رجل. ويقول إن أهم العمليات التي قام بها

سيدي طلحة، كان الهجوم الذي قام به ضد المدينة في شهر ذي القعدة سنة 831، وآخر وقع في شهر شوال سنة 832".

ورغم أن هذه التقاييد استمرت تتحدث عن نشاط المجاهدين بعد هذا التاريخ فإنه غاب عنها ذكر سيدي طلحة مما يترجح معه أن وفاة الرجل حدثت في وقت قريب من ذلك.

والملاحظ أن الذين ترجموا للمجاهد طلحة نوهوا بولايته وصلاحه وبركته. ولا يذكر اليوم إلا بهذه الصفة، فيشار فضله في ذلك وتذكر كراماته، ولا سيما حين يصبح ضريحه مقصد الزيارة والانتفاع، حتى إن الشيخ أحمد الرهوني حين يترجم له بين صلحاء تطوان في كتاب *عمدة الراوين*، يركز على كرامته في مداواة زائري ضريحه من المرض بالحمى.

س. الحوات، *تقييد في أولاد الدريج*، مخطوط ؛ الفقيه الشراط، *الاستبصار*، 30 ؛ أ. الرهوني، *عمدة الراوين*، 4 : 53. مخطوط ؛ محمد داود، *تاريخ تطوان*، 1 : 77 ؛ أ. الناصري، *الاستقصا*، 4 : 95 ؛ م. ابن عزوز حكيم، *لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية*، تطوان، 1979.

عبد الله المرابط الترغي

الدرّيج، محمد بن مَحمد (الحاج -) الأندلسي التطواني ثم الفاسي، الفقيه النزيه النبيه الصالح العابد الناسك المقرئ المجوّد. ينتسب إلى الولي الصالح الشهير طلحة الدريج. من حفدة الفقيه القاضي المحدث أبي عبد الله الدراج الأنصاري السبتي من ذرية الصحابي الجليل عبادة بن الصامت.

ولد بتطوان ونشأ بها وأخذ عن علمائها. وكان من مريدي الشيخ أحمد بن عبد الله مَعن الأندلسي وحج معه، كما صحب أحمد اليمني حتى صار من أهل التثبت والإتقان في طريق العرفان.

توفي عام 1126 / 1714 بفاس، ودفن قرب قبة سيدي مَحمد بن عبد الله معن خارج باب الفتوح.

م. الكتاني، *سلوة الأنفاس*، 2 : 298 ؛ القادري، *نشر المثاني*، 2 : 110 ؛ أ. الرهوني، *عمدة الراوين*، 4 : 53 ؛ م. داود، *تاريخ تطوان*، 3 : 14.

محمد الأمين بوخبزة

درسة (جبل يشرف على تطوان) ← **درقة**

درعة (نهر ومدينة وإقليم)، اكتسبت كلمة درعة من خلال كتابات مؤرخي العصور الوسطى وجغرافيي ورحالاتهم المدلولات الثلاث الآتية :

أ ـ مدلول النهر : كانت كلمة درعة، تطلق في عرف كتاب العصور الوسطى، على النهر الكبير، الذي تنبع روافده الأساسية (نهر دادس، نهر ورزازات) من جبال الأطلس وجبل سيرّوا، وبعد رحلة طويلة عبر سلسلة من الواحات بالأطلس الصغير يصب في المحيط الأطلسي شمال مدينة طان طان الحالية. وأقدم إشارة مكتوبة بهذا المعنى وردت في جغرافية الفزاري، أحد كتاب البلاط العباسي في أواخر القرن الثاني (8 م)، فقد صنف هذا الجغرافي نهر درعة ضمن أنهار "سوس وأعظمها وأكبرها.. يخرج من جبل البقرة ويمر على سجلماسة ثم درعة قبل أن يصب في البحر الأعظم" (*جغرافية الفزاري*، 4) ولاشك أن قول الفزاري إن نهر درعة يمر على سجلماسة خطأ بين، مرجعه اعتماد صاحب الكتاب على السماع من الغرباء ورواد الآفاق في تدوين الأخبار. وفي القرن الخامس (11 م) باتت المعلومات عن نهر درعة أكثر دقة مع أبي عبيد البكري الذي ذكر بأن منبعث نهر درعة من جبل درن وجريته من الشرق إلى الغرب (*المغرب*، 155).

وبالرغم من هذه الدقة في معلومات البكري عن نهر درعة فإن الشريف الإدريسي في القرن السادس (12 م) يقع في نفس خطأ الفزاري حيث ذكر أن نهر درعة يمر على سجلماسة (*وصف إفريقيا الشمالية*، 38). وقد نقل صاحب *الاستبصار* معلوماته عن درعة عن أبي عبيد البكري دون أن يضيف أي جديد (*الاستبصار*، 206).

وأصبحت معلومات ابن خلدون عن نهر درعة أكثر وضوحا ودقة، حيث ذكر بأنه النهر الأعظم المنحدر من جبل درن إلى القبلة (الجنوب) مغربا إلى الصحراء والرمال ويمتد إلى أن يصب في البحر ما بين نون وودان (شمال موريطانيا الحالية) وحفا فيه قصور لا تحصى، شجرتها النخيل (ابن خلدون، 6 : 88). وبنفس المعنى ورد وصف نهر درعة عند الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر (16 م). إذ يؤكد أن هذا النهر يفيض في فصل الشتاء حتى كأنه بحر، ثم يجف طوراً آخر حتى يمكن عبوره على الأقدام (*وصف إفريقيا*،

إفادة

اللقاء الروحي بين سيدي طلحة الدريج وسيدي أحمد بنعجيبة

من المكرمات الكثيرة حول سيدي طلحة ،التي تناقلتها الوثائق التاريخية والتي تثبت منزلته العظيمة بين الناس في عصره وما تلاه من العصور، ما ذكره الاستاذ محمد البشير سرابو في ترجمته الجميلة للشيخ الشريف سيدي احمد بن عجيبة المولود سنة 1160 هجرية ،والمنشورة في منتدى الزاوية الحراقية منذ اكتوبر 2006، عندما قال :

"لكن شيخنا وشريفنا العفيف النقي الطاهر رضي الله عنه كان بعيد عن الرذائل و متحلي بالفضائل ، لم تفارقه تلك الحالة رغم أنه كان يخرج من بيته يوميا و يتجه خافض الرأس، اما نحو ضريح سيدي عبد الله الفخار ،القريب، أو نحو ضريح سيدي طلحة الدريج، هناك يختلي ويشاور نفسه فيجد تلك الأصوات المتصادية في أعماقه تبحث لها عن مستقر ولذلك اقتنع ذات يوم بعد أن زادت عليه الحال بأن يبيع كل ما كان يمتلكه من كتب، وهي الثروة الأقرب إلى نفسه، و يتجه بعدها للتفرغ للعبادة في جبل العلم المبارك قريبا جدا من القطب مربي الأقطاب و منارة التصوف المغربي سيدي وتاج رأسي أبى محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا ببركته – وما أدراك ما ابن مشيش– ...لنا في ذلك المقام نفحات وبركات و كرامات والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات...

عندما اتخذ هذا القرار كان كالمسرنم، شبه راقد في ضريح سيدي طلحة الدريج، وفي خلال العتمة، بدا له أن الشيخ الدريج يقترب منه، ويضع يده على رأسه، وحين يشاوره في الأمر، قال له سيدي الدريج: لا تبع كتبك، وارجع لفاس لقراءة العلم، وبانت الرؤيا بعد أن اختفى الشيخ الدريج....

نفذ أمر الشيخ، فذهب سيدي ابن عجيبة إلى فاس وقضى بها بضعة أشهر ثم عاد إلى تطوان وهو هذه المرة أكثر استغراقا في مشاهداته الأخروية المتماهية مع ذات الله ...ومكث على تلك الحال مدة طويلة وصلت إلى ست عشرة سنة، قضى معظمها في تطوان، موزعا بين التدريس و الانقطاع إلى الله. وذلك إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كان قادما من فاس بعد أن وصل الصلة وزار شيوخه و

أصدقاءه القدامى هناك. و قرر في لحظة عابرة أن يزور الشيخ مولاي العربي الدرقاوي حين مروره على قبيلة بني زروال...
وما سيأتي بعد هذا اللقاء العجيب يستحق أن يفصل و يكتب بالتأني المطلوب، فقد كان لقاء حاسما حول سيدي ابن عجيبة من حال إلى حال ....
نشر كذلك في موقع معجم الاسماء العائلية:http://www.difanames.com/name

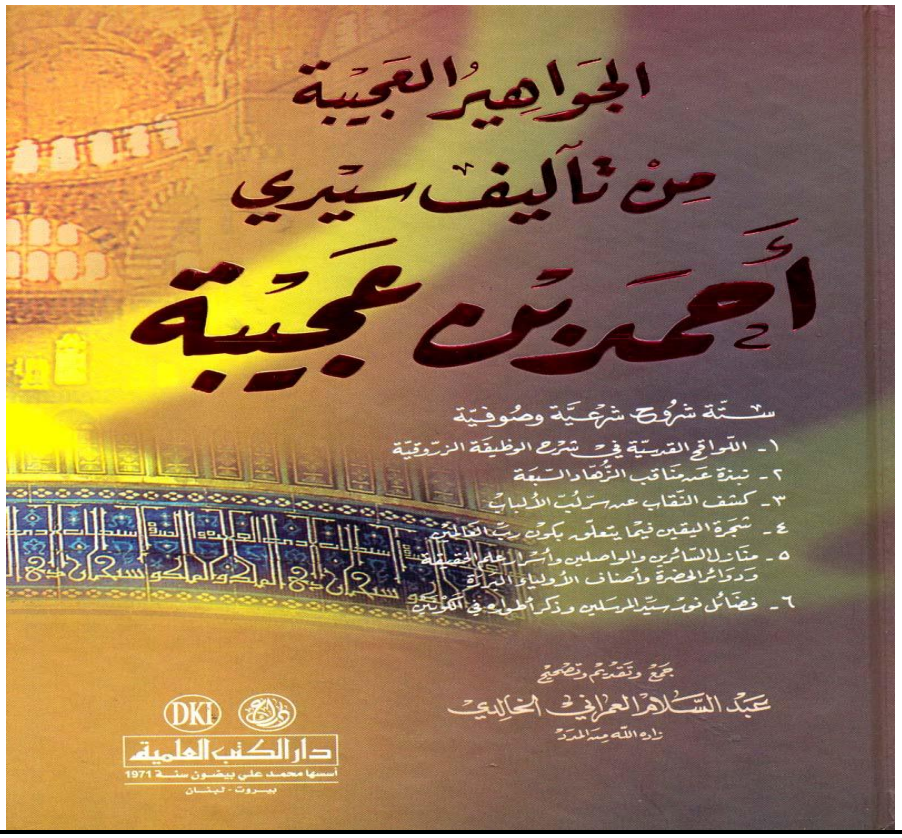

الجواهر العجيبة من تآليف سيدي أبو العباس أحمد بن عجيبة الحسني
جمع وتقديم وتصحيح: عبد السلام العمراني الخالدي ، نشر سنة 2007 عن دار الكتب العلمية – بيروت ،280 صفحة. فيما يلي نبذة عن محتويات الكتاب:
كتاب في التصوف من اهم كتب العلامة ابن عجيبة ويتضمن ستة شروح شرعية وصوفية هي:1- اللواقح القدسية في شرح الوظيفة الزرقوية 2- نبذة عن الزهاد السبعة

-3 كشف النقاب عن سر لب الالباب 4- شجرة اليقين فيما يتعلق بكون رب العالمين 5- منازل السائرين .والواصلين 6- فضائل نور سيد المرسلين

إفادة

التصوف المغربي: علم وجهاد ومجاهدة

حفظ التاريخ أسماء لمشاهير من الصوفية الذين بنوا أمجاد المغرب، ودافعوا بكل استماتة وبسالة عن استقلاله و وحدته الترابية، ، ودفع طمع الطامعين، وضمان الأمن والاستقرار والإشعاع الديني والثقافي في المنطقة برمتها.

فمفهوم الجهاد عند الصوفية مرتبط بمفهوم المجاهدة، يقول الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن: "الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس".

فلا مجاهدة بدون جهاد، ولا جهاد بدون مجاهدة، هذا التلازم الذي يغفل عنه الكثيرون ويتهم الصوفية بالخمول وعدم مقاومة العدو والاستكانة إلى ما يسمى بالتواكل، وهذا من الافتراء على التاريخ الناصع الذي خلَّد لنا أسماء وأعلاما يمثلون رموزا للجهاد والدفاع عن حوزة الوطن، بل صاروا مصدر إلهام وقوة واستمداد لمن أتى بعدهم.

ويقول سامي النشار" :**وضع الصوفية المرابطة في الثغور شرطا من شروط التصوف**".

ومن جليل أعمال الصوفية وآثارهم الحسنة في الأمة الإسلامية أن الملوك والأمراء متى قصدوا الجهاد كان مشايخهم يستجيبون ويحرضون أتباعهم للمشاركة في رد العدوان وكان هؤلاء المريدون يسارعون بذلك لعظيم اعتقادهم وانقيادهم فيكون ذلك سبباً للظفر والنصر.

وسنلقي الآن ، الضوء بإشارات مختصرة ،على الدور الجهادي لبعض الصوفية المغاربة وغيرهم :

- جهاد **سيدي شيكر** الذي كان من رواد التصوف ،و هو أحد أصحاب عقبة بن نافع الفهري واقترن جهاده بالفتح الإسلامي الكبير في منطقة المغرب العربي الذي قاده عقبة. ويقع رباطه وضريحه في قبيلة زكراكة الشهيرة، على بعد ما يقرب من ثمانين كيلومترا جنوب غربي مدينة مراكش. ومنذ سنوات، قام بعض علماء التاريخ المغاربة بتجميع الأخبار المبثوثة في كتب التراجم القديمة المتعلقة باللقاءات التي تواترت بهذا المقام/الضريح على مدى عدة

قرون. وقد كانت هذه اللقاءات محط اهتمام بالغ لدى أتباع العديد من الطرق الصوفية الذين كانوا يقدمون إليها من جميع جهات المغرب، للتعارف وتبادل الآراء بشأن مذاهب أكابر المشايخ وطرقهم في التربية الصوفية والسلوك الأخلاقي. وقد أسهمت هذه اللقاءات التاريخية في ابتكار روابط الوحدة المتينة بين الجهات المغربية المختلفة، حواضرها وبواديها وتعميق ونشر الوعي الوطني في ربوع المغرب.

-جهاد **محي الدين بن عربي** الصوفي المشهور (ت 638هـ) وتحريضه للمسلمين على الجهاد ومقاومة الغزاة الصليبيين.

-جهاد **مولاي عبد السلام بن مشيش** (ت 622هـ) حتى استشهد على يد مدعي النبوة ابن أبي الطواجن الكتامي.

-مشاركة **أبو الحسن الشاذلي** (ت656هـ) في معركة المنصورة (سنة (647هـ) والتفاف أتباعه حوله.

-جهاد **أبي العباس المرسي** (من تلاميذ الإمام أبي الحسن الشاذلي)، وهو من جملة الشهود بالثغر.

-**الإمام العز بن عبد السلام** (ت 660هـ) ودروه في التحضير لمعركة "عين جالوت."

-الشيخ **أبو المحاسن الفاسي** وإسهامه الكبير في معركة وادي المخازن التي انهزم فيها البرتغال شر هزيمة.

-الشيخ **أبو عبد الله محمد العياشي** : أحد الصوفية المجاهدين، الذين قاوموا الاستعمار الغاشم، وحاول تحرير الثغور المغربية، بعد أن وجهه شيخه عبد الله بن حسون إلى دكالة سنة 1604م لمواجهة الاحتلال البرتغالي، وكانت لحملاته الجهادية ضد البرتغاليين والإسبان في المعمورة والعرائش، وعدة مدن، طيلة أربعين سنة، آثارا كبيرة في زرع الرعب والخوف في قلوب الأعداء، حيث قتل المئات منهم، وأسر خلائق، وأصبح خلالها رمزا للجهاد في المغرب وخارجه، رمزا يشخص الوعي الوطني في أبهى تجلياته.

-**صلاح الدين الأيوبي** الصوفي، قاهر الصليبيين ومحرر الأقصى.

-الأمير **عبد القادر الجزائري** الصوفي (1807-1885) قائد الثورة في الجزائر ضد الاحتلال. حيث لاحظ الخبراء الفرنسيون أن زعماء حركة الجهاد التي تألف محاربتهم، تنطلق من الطرق الصوفية وخاصة المرتكزة منها حول الزوايا التي كانت منذ قرون تعتني بالجهاد عند الخطر وتعتني بالعلم والتصوف عند السلم، ومن أبرز تلك الطرق في القرن الماضي القادرية والرحمانية، وقد أنجبت الأولى الأمير عبد القادر الذي يعتبر من شيوخ المجاهدين في العصر الحديث فضلاً عن كونه من كبار صوفية عصره.

-البطل المجاهد **عمر المختار** الصوفي، التابع للطريقة الصوفية السنوسية بليبيا، (1858-1931) والذي جعل من زاويته الكبرى في واحة الجغبوب مقراً ومركزاً للعمليات العسكرية حتى استشهاده.

-الأمير **عبد الكريم الخطابي**: من أبرز شخصيات المغرب البطولية شخصية البطل عبد الكريم الخطابي(1881-1962م) وكان على درجة كبيرة من الشجاعة والزهد معاً وقد اعتكف عدة سنوات أخذ نفسه بالرياضة الروحية الخالصة حتى يصقل نفسه ويصفيها من شوائب الدنيا وأعراضها. وقد كان لهذا الاعتكاف أثره على الأمير ليبدأ بعدها مرحلة طويلة من الكفاح المظفر ضد الاستعمار الإسباني ولم يهزم إلا بعد أن تكاتفت عليه الجيوش الإسبانية والفرنسية وبعد أن خلّف عدداً كبيراً من المريدين حملوا بعده راية الكفاح حتى تم قطف ثمار جهادهم.

-الشيخ **ماء العينين** (ت 1910م)، تزعم حركة المقاومة بالجنوب في وجه الفرنسيين.

وهو رحمه الله في نفس الآن ،معلمة فقهية وصوفية ، أضاء علمه الصحراء الموريتانية والمغربية معا ،والذي لازال حفدته وتلاميذه يحيون بما استطاعوا ذكراه كل سنة في مزاره الموجود بمدينة تيزنيت.(راجع بهذا الخصوص، "الشيخ ماء العينين: علماء و أمراء في مواجهة الإستعمار الاوروبي"، تاليف اخيار بن الشيخ ماميا ال الشيخ ماء العينين." 2005 م).

- وعودة إلى المجاهد **سيدي طلحة الدريج** فقد كان جبلا راسخا في العلوم والمعارف، مقطوعا بولايته، مشهورا بالزهد والورع.... وكان المؤرخ الاسباني المعروف خوصي ماركيس دي برادو يصفه "بالمحارب العالم"guerrero **y** sabio

ويقول عنه المؤرخ حسن الفكيكي :"بطرح رئاسة طلحة بن عبد الله الدريج للجهاد ضد سبتة المحتلة يتحقق ما سبق ان تساءلنا عنه من مشاركة العلماء والمرابطين واهل الصلاح في الحركة الجهادية منذ احتلال المدينة، اذ انه كان اهم شخصية بالمنطقة ، بفضل ما تمتع به من منزلة دينية واضاف اليها تصدره حركة المقاومة."(عن كتابه "سبتة المحتلة "، 2003،ص.93).

-ولنا أمثلة أخرى تتمثل في **إسهام الزوايا المغربية** في إذكاء روح المقاومة والجهاد في الشعب، ومنها الزاوية الوزانية، والكنتية، والريسونية والقادرية والدرقاوية... وانتشار الرباطات والأضرحة على طول السواحل المغربية، والتي كانت معقلا للصوفية، لحماية الشواطئ المغربية من مباغتة العدو.

فما أن هاجم البرتغال والإسبان شواطئ المغرب، واحتلوا بعض مدنه الساحلية، حتى ظهر

فضل التصوف مرة أخرى ممثلا في الزوايا، في بعث حركة الجهاد والمقاومة، وقيادة الأمة لطرد العدو عنها في معارك ظافرة، انتهت بطرد البرتغال عن الشواطئ الجنوبية، وإيقاف زحفه في الجهات الشمالية، وبتنصيبهم الشرفاء السعديين ملوكا على المغرب.

إن الزاوية هي رباط للاعتكاف الروحي وللجهاد، وهي مؤسسة للتوعية الدينية، ونشر الفكر الإسلامي، وقد جعل كبار الصوفية من العمل الموصول ركيزة لا تتنافى مع عبادة سنة يتعلق القلب فيها بالله.

وبهذه الطرق الصوفية الدينية العتيدة، وبواسطة رجال الزوايا انتشر الإسلام في إفريقيا.

وفي **الاصطلاح الصوفي** "فإن الزاوية والرباط هما مركزان خاصان بهؤلاء السادة الصوفية للاستعداد للجهاد ومحاربة الكفار وأعداء الإسلام والمذاكرة في أصول الطريق والسنة النبوية الشريفة ".

من خلال هذا التعريف الاصطلاحي يتضح أن الزاوية عبارة عن مؤسسة علمية تعمل على جلب الناس بالأوراد والذكر، ولم يقتصر عمل الزاوية على التربية الإسلامية الصوفية والحفاظ على المقومات الروحية لأتباعها ،بل سارعت إلى الخروج من نطاق مؤسسة الزاوية المحدود إلى المجال الاجتماعي الواسع ،إذ سنجد للزاوية عدة أدوار ووظائف داخل المجتمع المغربي.

يقول أحمد الناصري:

"إن السعديين، إنما قاموا على يد أصحاب الزوايا، وحين تأسست الدولة السعدية، شاركوا بنصيب وافر فيما قامت به من جهاد ضد العدو، سواء في الشمال أو الجنوب ، ولا سيما في وقعة وادي المخازن، التي شارك فيها كثير من شيوخهم وأتباعهم، مثل : سيدي يوسف الفاسي، وسيدي محمد بن علي بن ريسون، وغيرهما، وأبلوا فيها البلاء الحسن كما هو معروف.

كما أن التصوف له اليد الطولى والفضل الكبير في نشر العلم والمعرفة بهذه الديار، بما كون من علماء وأدباء وفقهاء، تخرجوا من الزوايا على يد رجالات التصوف وأعلامه، وقد كانت هذه الزوايا بمثابة مدارس ومعاهد لها استقلالها الفكري والمعنوي، تسير حسب نظام محكوم معين يتماشى وروح التصوف، ومن أهم هذه المعاهد والمدارس الزاوية الدلائية ، التي تأسست في الثلث الأخير من القرن العاشر بناحية تادلا، وينتسب أهلها إلى قبيلة صنهاجة الكبرى بالصحراء، وقد استوطنوا تادلة في أواخر القرن الثامن الهجري.

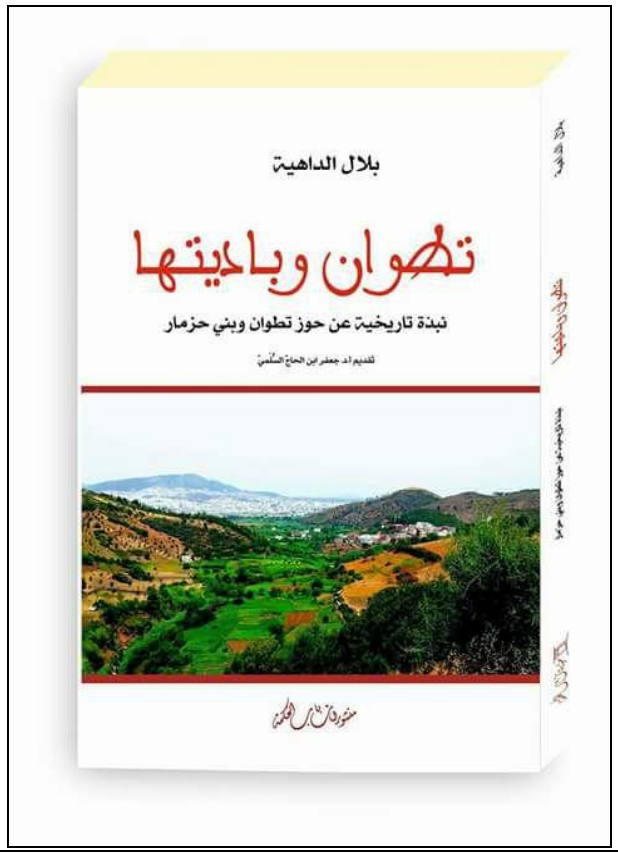

في حلة أنيقة صدر (2017) للباحث بلال الداهية عن منشورات بيت الحكمة وبدعم من وزارة الثقافة ، وتقديم للدكتور جعفر ابن الحاج السلمي ،كتاب "تطوان وباديتها".وهو سفر تاريخي شيق ومفيد و موثق بشكل دقيق ،في القرى المتاخمة لحدود المدينة .و يتحدث فيه المؤلف عن سيدي طلحة قائلا :"أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج السبتي الانصاري الخزرجي، أحد أشهر أولياء تطوان على الإطلاق ، وموضع دفنه كان عبارة عن أغراس وجنات يقصدها الناس من باب النوادر ، ويقع على طريق مدشر سمسة الحوزي ، وتجاور القبر عين ماء عذبة ، كان الاقدمون يتبركون بها ويعتقدون فيها العجائب وأن ماءها شفاء للصرع والأمراض النفسية..." (صفحة 52) ،الكتاب متوفر حاليا بمكتبة بيت الحكمة بتطوان، قراءة ممتعة.

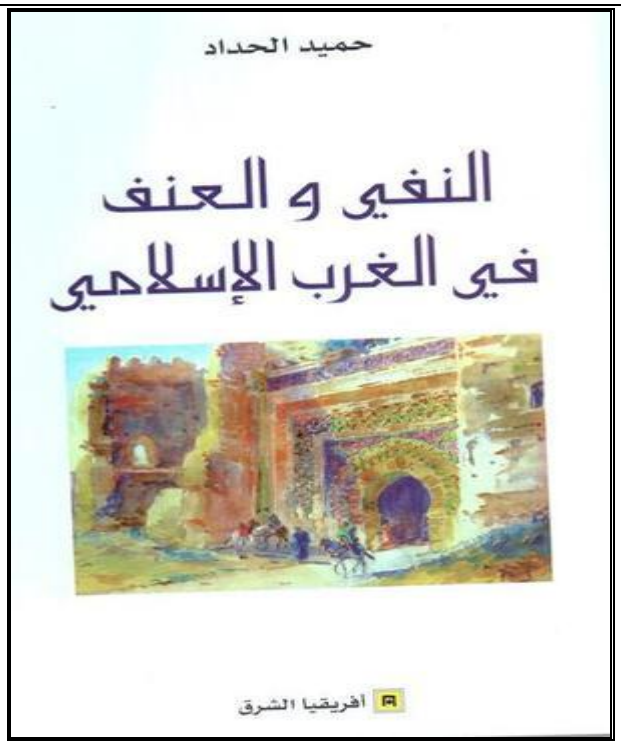

هذا الكتاب يتناول دراستين هما "عقوبة النفي في الغرب الإسلامي"، وهي تشكل الباب الثالث للأطروحة العلمية التي نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان سنة 2004م، وأما الدراسة الثانية فتشمل العنف من خلال دراسة كتاب الصلة لابن بشكوال.

نتج عن الاستبداد الذي ساد خلال فترة العصر الوسيط، اتخاذ الأمراء والخلفاء والملوك النفي عقابًا فرديًا وجماعيًا لقهر المعارضين من مختلف الشرائح الاجتماعية، وإبعاد المخالفين في الرأي، وفك روابطهم عن المجال الذي ترعرعوا فيه أو احتضنهم، وإشعارهم بالمهانة والازدراء، مخالفين في كثير من الأحيان النصوص التشريعية الإسلامية، رغم اعتمادهم أحيانًا على مبررات دينية سياسية.

وتجلت نتائج النفي المختلفة في الفقر والغربة والمكابدة وضياع الممتلكات، وأبرزت لنا غياب العدل والإنصاف.

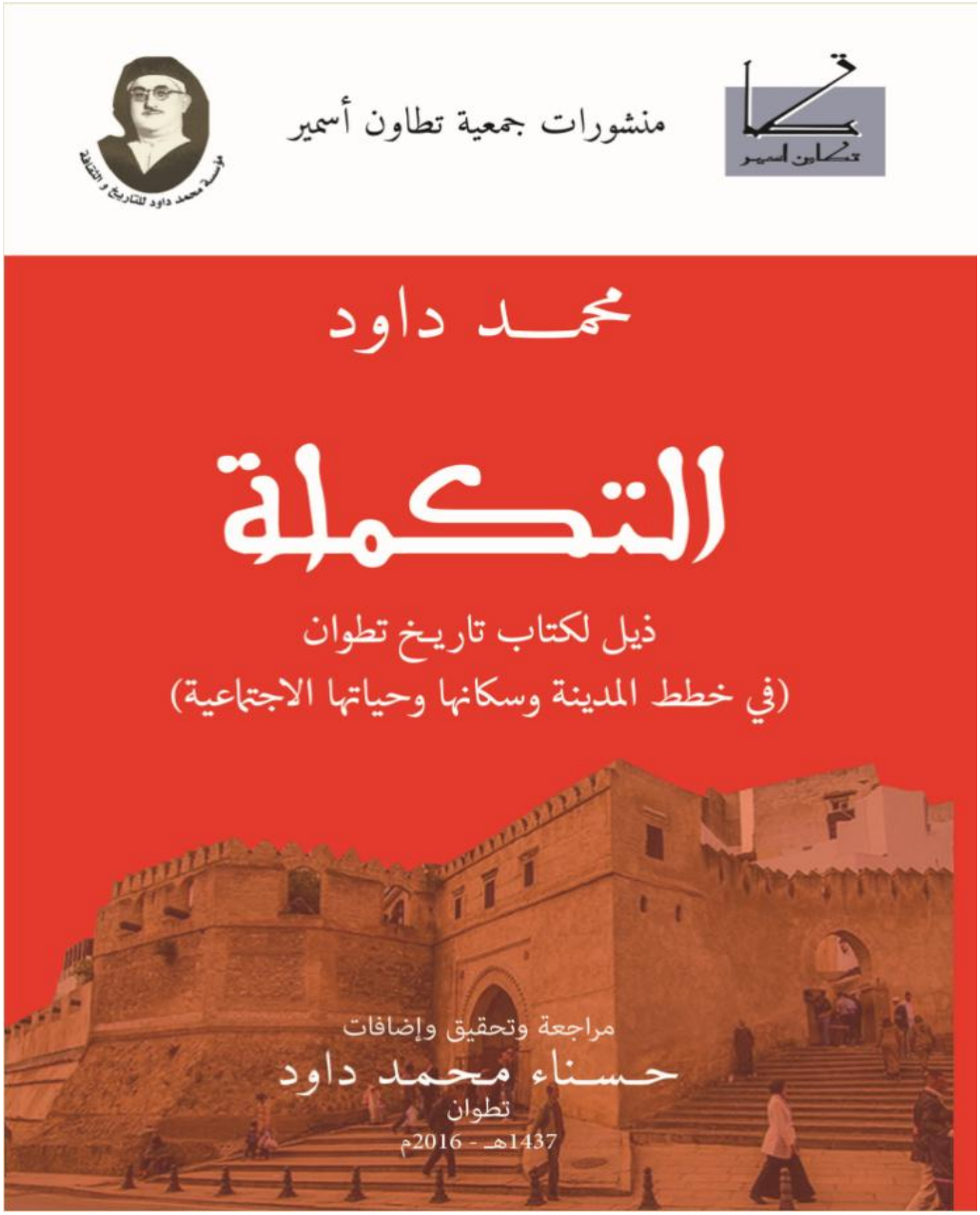
منشورات جمعية تطاون أسمير
مؤسسة محمد داود للتاريخ و الثقافة
محمد داود
التكملة
ذيل لكتاب تاريخ تطوان
(في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية)
مراجعة وتحقيق وإضافات
حسناء محمد داود
تطوان
1437هـ - 2016م

إفادة

نظمت مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة مساء الجمعة 18 نوفمبر 2016 بمناسبة ذكرى عيد الاستقلال بفضاء المؤسسة الجديد بباب العقلة ، حفلا لتقديم وتوقيع كتاب: "التكملة"؛ من منشورات جمعية تطاون أسمير. وهو ذيل لكتاب تاريخ تطوان (في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية) للمؤرخ التطواني محمد داود- رحمه الله- .

وقد شارك في هذا اللقاء- الذي قام بتسييره ذ. إسماعيل شارية- الأساتذة: جعفر بن الحاج السلمي- مصطفى بنسباع- محمد ياسين الهبطي- وبحضور الأستاذة حسناء داود.

وفي كلمة افتتاحية، ذكر إسماعيل شارية نبذة عن كتاب تاريخ تطوان للمؤرخ محمد داود وما قامت به ابنته الأستاذة حسناء داود من عمل جيد وجدي في تحقيقها لهذا المؤلف "التكملة" معتبرة إياه ذيلا لكتاب تاريخ تطوان لوالدها مؤرخ تطوان.

(مختصر لمتابعة منتصر الخطيب – في موقع تطوان نيوز).

وللتذكير ، لمحمد داود مجموعة من الأبحاث و الدراسات و المقالات المختلفة التي ما زال بعضها موزعاً بين الصحف و المجلات أو مخطوطاً في مكتبته العامرة و من أهم مؤلفاته المطبوعة:

- "موسوعة تاريخ تطوان"، في خمسة عشر (15) مجلداً، طبعت منها تسعة (9) مجلدات.
- "مختصر تاريخ تطوان".
- "الأمثال العامية في تطوان و البلاد العربية"، في أربعة مجلدات ، طبع منها الجزء الأول: المقدمات و الأمثال المجردة.
- "على رأس الأربعين"، مذكرات الأستاذ محمد داود . و قد طبع منه الجزء الأول

و من أهم مؤلفاته كذلك :

- "عائلات تطوان"، الجزء الأول، مراجعة وتحقيق وإضافات حسناء محمد داود ، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث 18، تطوان، 2016، 1437هـ
- النقود المغربية في مائة عام

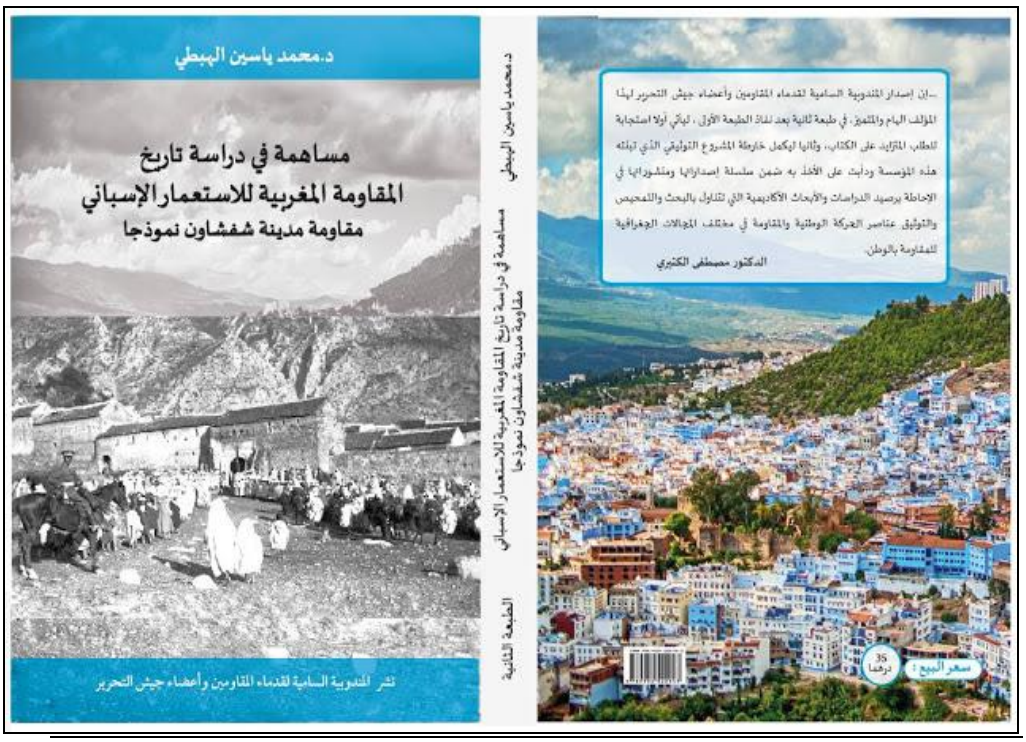

"مساهمة في دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الإسباني – مقاومة مدينة شفشاون نموذجا " لمؤلفه الدكتور محمد ياسين الهبطي. من منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين و أعضاء جيش التحرير(2012).

وأوضحت المندوبية أن هذا الكتاب، وهو في الأصل أطروحة جامعية لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ حضرها محمد ياسين الهبطي، يعد غاية في الأهمية ومصدرا لا مناص من الرجوع إليه والاستئناس به والارتكاز عليه أثناء البحث في تاريخ المقاومة العسكرية والنضال السياسي لمنطقة جبالة عموما ومدينة شفشاون ونواحيها على وجه الخصوص بعد الاحتلال الاسباني لشمال المغرب عقب توقيع عقد الحماية.

وأضافت أن هذا الإصدار (300 صفحة) يميط اللثام عن مجموعة من الحقائق التاريخية التي ظلت غائبة من ساحة البحث وخاصة منها تلك المتعلقة بمقاومة شفشاون والقبائل المحيطة بها للجيوش الاسبانية الغازية ابتداء من 1913 إلى حدود سنة 1924.

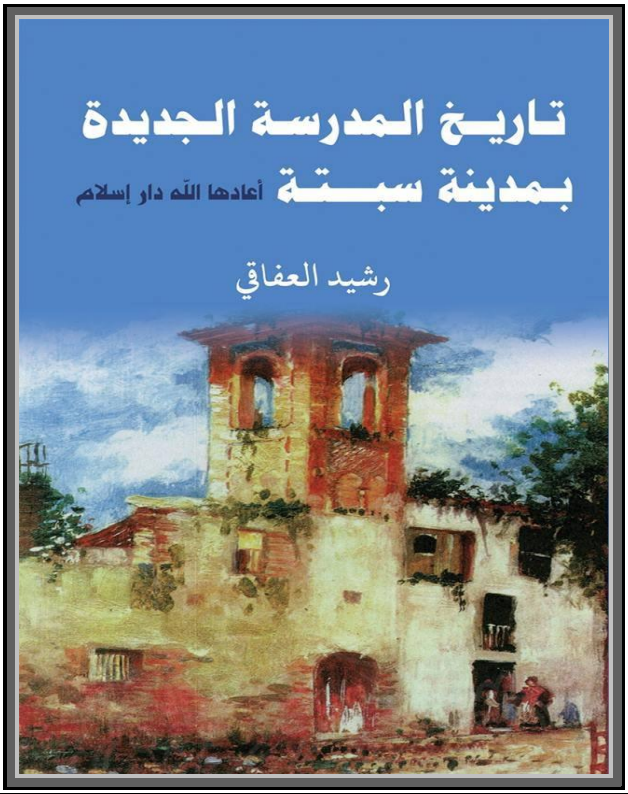

في إطار رصد الحركة العلمية والأدبية بمدينة سبتة والتعريف بمراكز الدرس والتحصيل فيها، صدر عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط كتاب من الحجم المتوسط للمؤرخ الشاب رشيد العفاقي يحمل عنوان "تاريخ المدرسة الجديدة بمدينة سبتة" يروي فيه تاريخ المدرسة الجديدة التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد المريني في أواسط القرن الثامن الهجري، فكانت من المؤسسات الرسمية التي شكلت حصنا للعلم والمعرفة بسبتة الإسلامية لمدة تنيف على سبعين سنة.

كما وصف فيه الباحث النكبة التي لحقت المدرسة بعد الاحتلال البرتغالي لسبتة سنة (1415م)، وبعد استيلاء رجال الكنيسة عليها وتحويلها إلى دير للرهبان الثالوثيين وظلت كذلك إلى أن دمرت أواخر القرن التاسع عشر، وكانت مهمة الرهبان الثالوثيين هي افتكاك الأسرى المسيحيين من بلاد المغرب وخصوصا في مدينة تطوان لأنها هي أقرب مدينة مغربية إلى سبتة والانتقال من سبتة إليها سهل ومتيسر.

قراءة في كتاب

" تواريخ السبتيين"

دراسة وتحقيق الدكتور عبدالسلام الجعماطي

بمناسبة مرور الذكرى الستمائة على احتلال مدينة سبتة السليبة، صدر ضمن منشورات المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق الفنيدق، كتاب "تواريخ السبتيين"، بدراسة وتحقيق الدكتور عبدالسلام الجعماطي، أستاذ التعليم العالي مؤهل بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، لجهة طنجة . تطوان . الحسيمة، والأستاذ المحاضر الزائر في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان .

قدم للكتاب الأستاذ الدكتور توفيق الغلبزوري، رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق الفنيدق، والأستاذ المحاضر، ونائب عميد كلية أصول الدين بتطوان.

يقع الكتاب في 290 صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل على ثلاثة كتب تاريخية دونها أصحابها عن تاريخ سبتة وأعلامها وخططها وآثارها العمرانية. وهي على التوالي: شذرات من كتاب "الكَواكِبُ الوَقّادَة، فِي ذِكْرِ مَنْ دُفِنَ فِي سَبْتَة، مِنَ العُلَماءِ والصُّلَحَاءِ والقَادَة". وكتاب "بُلْغَةُ الأُمْنِيَة، ومَقْصَدُ اللَّبِيب، فِيمَنْ كَانَ بِسَبْتَةَ فِي الدَّوْلَةِ المرِينِيَة، مِنْ مُدَرِّسٍ وَأُسْتاذٍ وَطَبِيب"، وكلاهما لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر الحضرمي السبتي (حياً: 820 ه)، وكتاب "اخْتِصَارُ الأَخْبَارِ، عَمَّا كانَ بِثَغْرِ سَبْتَةَ مِنْ سَنِيِّ الآثَار"، لأبي القاسم محمد بن القاسم الأنصاري السبتي (حيّا: 825 ه)، وجميعها تصانيف حَبّرها علماء سبتيون، غَيْرَة منهم على تُراث مدينتهم السليبة وتاريخها العلمي والحضاري، وحُبّاً في تخليد ذكراها، والتنويه بعلمائها، والتعريف بآثارها وخططها وضواحيها، من سواحل ومقاصر وقرى ورساتيق.

وقد عبّر المحقق عبدالسلام الجعماطي عن أهمية هذه التواريخ من الناحيتين المادية والمعنوية في تقديمه لكتابه هذا، بقوله: "أهدي إلى جمهور الباحثين في التاريخ الوطني وإلى قرّاء اللغة العربية ثلاثة تواريخ سبتية، كُتِبَتْ بُعَيْدَ سُقوط المدينة، ولم تَجِف بَعدُ دِماءُ شُهداءِ الوطن والإسلام، قبل أنْ تَجِف المحابِر التي دُوِّنَت بها هذه التواريخ، شاهِدةً على شُموخ الحاضرة السبتية خلال عهودها الإسلامية الزاهرة، وفي أوج عطائها الحضاري."

واعتمد الباحث في تحقيق الكتب الثلاثة، على سبع نسخ مخطوطة، منها نسخة خطية نقلت عن الأصل المفقود لكتاب "الكواكب الوقادة"؛ ومن المعلوم لدى أهل التحقيق أن النسخة المعتمدة على الأصل المخطوط بقلم المؤلف هي أصل ثان. كما جنّد في دراسته قائمة بيبليوغرافية غنية ومتنوعة تضم 140 مصدرا ومرجعا بأربع لغات هي: العربية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

ويعتبر الكتاب من بين أعمال كثيرة صدرت للباحث المغربي عبدالسلام الجعماطي، كانت من أبرزها: كتاب "المغرب، عن محاسن أهل المغرب"، الرباط : دار الأمان، 2015. وكتاب جماعي باللغة الإنجليزية بعنوان "الحضارة العربية الإسلامية في صقلية"، تحت إشراف دة. سلمى الخضراء الجيوسي، دبي، 2015 .وكتاب "النفقات"، (بالاشتراك مع د. رضوان الحضري)، منشورات المجلس العلمي الأعلى بالرباط، 2012. وكتاب "دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي"، بيروت، 2012. وكتاب "قاموس المفردات البحرية بسبتة الإسلامية"، تطوان، 2011. وكتاب "النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316-422هـ)"، عن دار ابن حزم ببيروت، 2010. وكتاب "أكرية السفن"، تطوان، 2009.

وتتجلى أهمية كتاب "تواريخ السبتيين" في تصديره بدراسة استقصائية دقيقة، وفق المنهج الاستقرائي، عن التدوين التاريخي بسبتة الإسلامية، كشف فيها الباحث عن الجديد المفيد، منذ البواكير الأولى لهذا اللون من التأليف، على عهد القاضي عياض وابن حمادوه البرنسي، وإلى زمن أبي عبدالله الحضرمي وابن القاسم الأنصاري، اللذين عاصرا احتلال المدينة السليبة. وفي اعتماد المحقق على منهج علمي يراعي الفروق بين النسخ الخطية، ويرجح بعضها على بعض، تبعا لقربها

من منطوق باقي المصادر، وموافقته للحقائق التاريخية. وفي كونه إسهاماً أصيلا في تاريخ الكتابة التاريخية المغربية، ممثلة في المدرسة التاريخية السبتية، العريقة بروادها الكبار، الذين أسهموا بتصانيفهم في التأسيس لنشأة التدوين التاريخي بالمغرب الأقصى الوسيط، ككتاب "الفنون الستة، في أخبار سبتة" لعياض، وكتاب "تاريخ أهل سبتة" لأبي عبد الله محمد بن حمادوه، وكتاب "بغية السامع" لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي... وفي كونه تأصيلا للانتماء المغربي والعربي الإسلامي لسبتة السليبة، وفق الحقوق التاريخية والجغرافية والوطنية الثابتة، والتوريث التاريخي والحضاري لمطالب المغرب الترابية المشروعة، في الجيوب المحتلة، ضداً على الشرعية القانونية الدولية، ومبادئ السيادة الترابية لكل دولة على أراضيها المتعارف عليها منذ زمن مديد. وفي إسهامه في تنمية الوعي الوطني والدولي، بمكانة الحضارة المغربية العريقة، في مختلف أوجه العلوم والآداب، والمعارف والصنائع، والأخلاق والعوائد، ممثلة في سيرة علماء سبتة وأدبائها، وقضاتها وفقهائها، وأطبائها وصلحائها، وما خلفوه من كتب جليلة في شتى المعارف النقلية والعقلية، مما يعدّ تراثا حضاريا نفيسا للأمة المغربية والتاريخ الإنساني بأسره؛ جديرا بالبحث والتنقيب .

وفي إغنائه للمكتبة العلمية العربية الإسلامية بمصدر جامع مانع علمي وتاريخي وحضاري، يغني عن الرجوع إلى شتات من المصادر المتفرقة حول تاريخ سبتة وتراجم أهلها، وتطورها العمراني.

وأكد الباحث في تصديره للكتاب على ضرورة توجيه عناية الدارسين المهتمين بتاريخ هذه الحاضرة المغربية السليبة، لبذل غاية وسعهم ومنتهى جهودهم، من أجل التأصيل التاريخي والحضاري لمغربية المدينة، وذلك تعميق البحث عن التراث السبتي المادي والمعنوي، وعن الجذور المغربية والعربية الإسلامية لهذه الحاضرة العريقة.

ومما صرح به المحقق عن دوافع إنجازه لهذا العمل قوله: "وقد رأينا أن نُبَادِر إلى نشر ما تحصّل لدينا من تواريخ السبتيين، التي تخلّفت من تراث المدينة السليبة، إقامة للحجة والبرهان على مغربيتها، ورغبة في تذكير طلاب العلم والمشتغلين بالتوثيق التاريخي، من أبناء الشعب المغربي الطموح، والمتطلع إلى غد مشرق

ومستقبل أفضل، بمطالبنا الترابية الثابتة والمشروعة، ولكي تبقى قضية سبتة ومليلية والجزر الجعفرية، قضية وطنية ذات أولوية، غير قابلة للتقادم أو النسيان، حاضرة في الذاكرة الجماعية لكل المغاربة، من خلال نشر هذه الكتب المدونة بأقلام إخوانهم من أهل سبتة، الذين سُلِبُوا دِيَارَهُم وأُجْبِرُوا على الجلاء عن حاضرتهم، وشُرِّدُوا شَذَرَ مَذَر، في باقي رُبُوع الوطن، فأبى بعضهم إلا أن يَكتبوا عن تاريخ مدينتهم، ومعالمها العمرانية الشامخة، ويدوّنوا تراجم أعلامها، نساء ورجالا، مخلدين عظمة الحاضرة السبتية الأسيرة، وتاركين لمن خلفهم وثائق تاريخية في غاية الأصالة والنَّفاسة، ولسان حالهم ناطقٌ بعدالة قضيتهم، مناشدٌ شبابَ المغرب ذوي الهمم العالية، وأولي العزم الأكيد، لمواصَلة الطريق في سبيل إحقاق حق ثابت، واسترداد جزء سليب من هذه الأمة المجيدة"(**ميدل ايست أونلاين ،2016**).

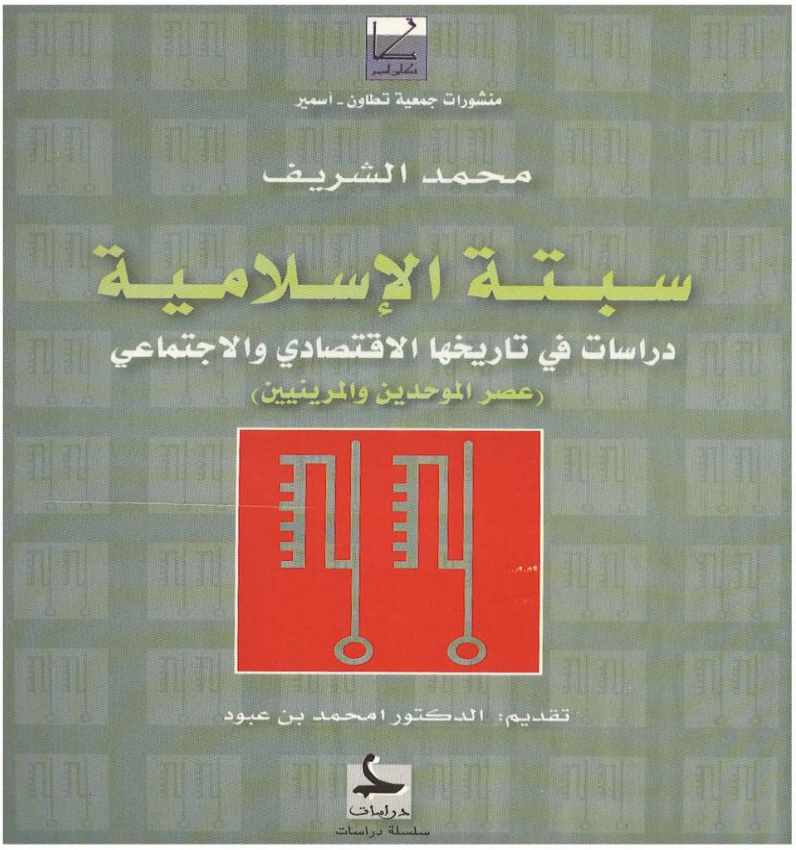

كتاب الدكتور محمد الشريف، سبتة الإسلامية. دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين و المرينيين)، ط.2، تقديم امحمد بن عبود، نشر جمعية تطاون– أسمير، 2006 (ط.1: 1996).

الكتاب في الأصل هو فصل من دراسة شاملة لمدينة سبتة على عهد الموحدين و المرينيين، نال بها صاحبها دكتوراة السلك الثالث سنة 1987، بجامعة تولوز لوميراي الفرنسية ويعد من الكتابات التاريخية المعاصرة التي تراهن على صياغة رؤية جديدة للمواضيع المطروحة من زواياها المختلفة، خاصة منها ما يستند إلى المنهج الاقتصادي أو الاجتماعي، أو الانفتاح على علوم وأساليب وتقنيات بحثية أخرى، مثل عرض الحادثة التاريخية السياسية أو ما يتعلق بأمور الحرب والجيش أو غيرهما...

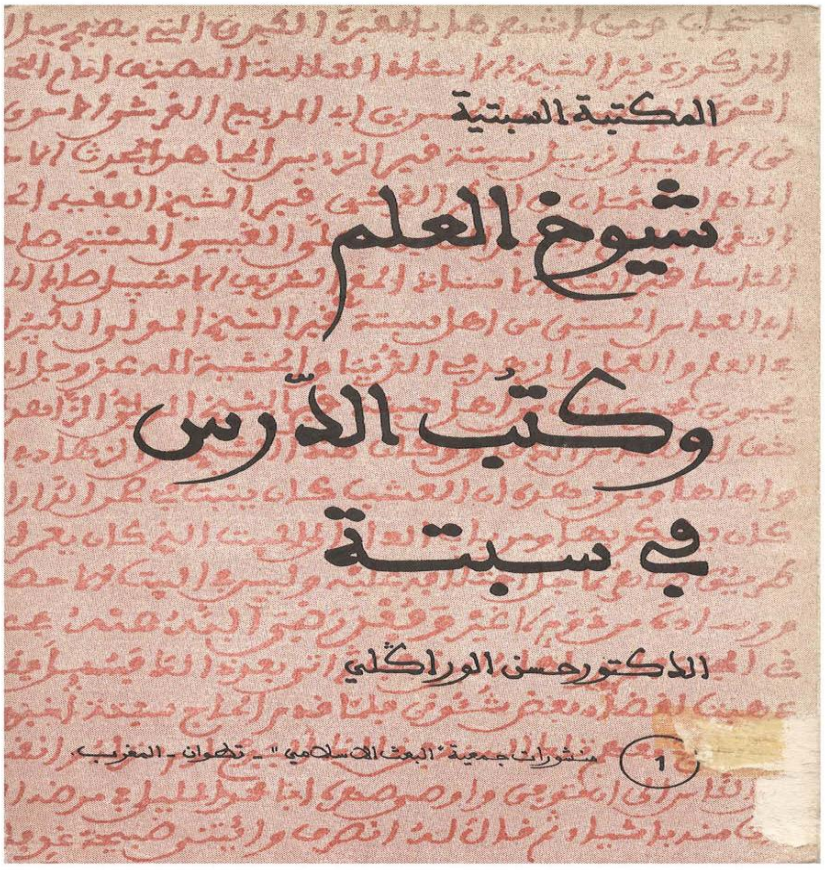

شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة ، كتاب د. حسن الوراكلي
(جمعية البعث الاسلامي – تطوان ، الطبعة : 1 سنة 1404 هـ – 1984 م)
والذي يوثق للمناخ العلمي والثقافي لمدينة سبتة قبل الاحتلال والذي سعى بكل الوسائل إلى محوه ومحو الهوية المغربية لمدينة سبتة.

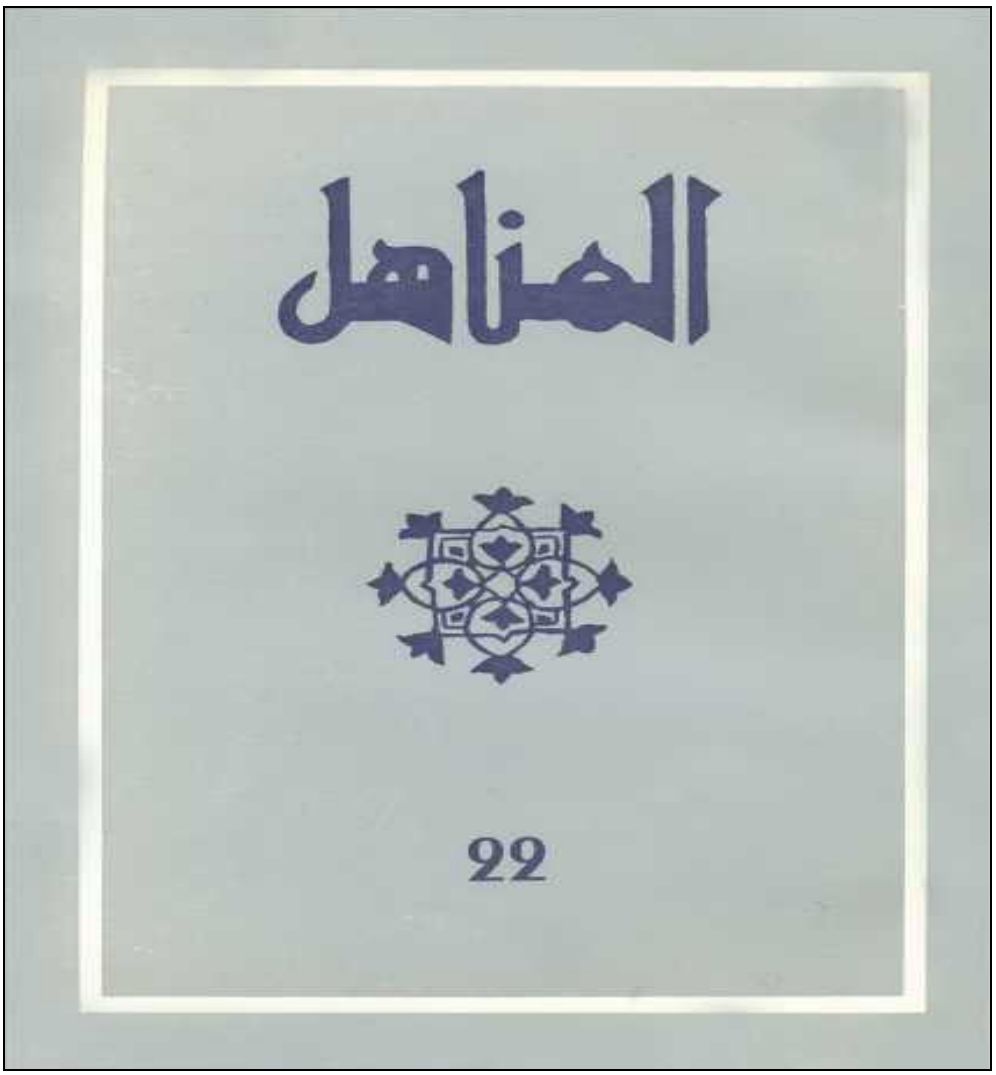

العدد 22 (1982) من مجلة المناهل التي تصدرها وزارة الثقافة المغربية ، وهو خاص عن الحياة العلمية والثقافية والدينية لمدينة سبتة والتي ميزت هذه المدينة المغربية قبل الاحتلال البرتغالي ثم الاسباني والذي اجتهد في محو معالمها الحضارية و تحويلها إلى قلعة عسكرية يسكنها المغامرون والمنفيون من المحكوم عليهم . وتجدون رفقته فهرس بمحتويات العدد:

فهرس

صفحة

1) سبتة رجالها ومكانتها وصلاتها العلمية...
محمد العربي الخطابي 9
2) سبتـــة المسلمـــــة
محمد ابـن تاويـــت 82
3) سبتة مدينة رائدة في تاريخ الثقافة المغربية
د. محمـــــد زنيبـــــر 191
4) من أصداء الحياة اليومية في سبتة المرابطية
د. محمد ابن شريفة 224
5) يا أخت أندلـــــس .....
عبد العلي الوزاني 264
6) كتاب الشفا للقاضي عياض ....
محمـــــد المنونـــي 305
7) أبو الحسن المسفر فيلسوف سبتي من عهد الموحدين
عبد الله گنـــون 424
8) سبتـــــــــــــــة ..! (شعر)
علي الصقلـــي 438
9) أبو العباس السبتي
محمـــد عزيمـــان 441

10) ابن أبي الربيع السبتي إمام أهل النحو في زمانه
د. محمـــد حجـــي 469
11) بين ابن خميس وسبتة
د. عبد الله الطيـــب 493
12) في رحـاب سبتـــة (شعر).
محمـــد الحلـــوي 526
13) ابن بياع لا ابن زنباع
د. محمـد ابـن شريفـة 529
14) الرحالتان السبتيان ابن رشيد والتجيبي
عبـد القـادر زمامـة 544
15) شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة .....
د. حســن الوراكلـي 564
16) أبو القاسم السبتي من خلال شرحه لمقصورة حازم
محمد بن عبد العزيز الدباغ 634
17) سبتة من خلال رجالاتها (بيوغرافية شاملة)
عبد العزيز ابن عبد الله 658
18) إيجاز الخبر عن فتح مدينة سبتة وتلخيص
التعريف بأولية أمرها 720
19) معالم سبتة ومنشآتها العلمية والاقتصادية
قبيل الغزو البرتغالي 729

الجزء الثالث

نماذج من أنشطة
جمعية سيدي طلحة

نماذج من أنشطة جمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث

صور وإفادات من المواسم السنوية للولى المجاهد
سيدي طلحة الدريج
بملوسة وانشطة دينية وثقافية بضريحه بتطوان ، تحت شعار
" جهاد سيدي طلحة الدريج لاسترجاع مدينة سبتة المحتلة "

بلاغ صحفي

نظمت جمعية سيدي طلحة الدريج للمحافظة على البيئة والتراث ، ضمن برنامجها الثقافي السنوي ،موسم الولي الصالح سيدي طلحة الدريج ،تحت شعار " جهاد سيدي طلحة الدريج لاسترجاع مدينة سبتة المحتلة" ، بمدشر البرج جماعة ملوسة ،إقليم الفحص أنجرة بطنجة ، يوم الأحد 11سبتمبر 2011 . وعرف نجاحا كبيرا ، حيث حضرته جموع غفيرة من سكان المنطقة و سكان الجماعات القريبة والبعيدة ، كما حضر بعض أفراد من عائلة الدريج حفدة سيدي طلحة من مدن تطوان و فاس والرباط و طنجة والدار البيضاء... وأحيت الموسم فرقة المعلمين وفرق عيساوة و درقاوة ...، الذين عزفوا وأنشدوا وهللوا في الحضرة (العمارة) في جو جميل ومهيب قرب خلوة سيدي طلحة وبين أشجار الزيتون الباسقة ، جو تطبعه مشاعر التقدير والاعتزاز و المحبة والوفاء لهذا الولي المجاهد الذي ترأس الجهاد لاسترجاع مدينة سبتة من يد الصليبيين سنوات 1426و 1429 ميلادية ، بدعم من قبيلة أنجرة وغيرها من القبائل. مدينة سبتة المغربية والتي ينحدر منها سيدي طلحة ما زالت ، كما هو معلوم، ترزح تحت الاحتلال الاسباني ،أعادها الله لديار الإسلام ولموطنها الأصلي المغرب وما ذلك على الله وعلى إرادة الشعب المغربي الأبي بعزيز .

صور من بعض الأنشطة الدينية والثقافية التي نظمتها الجمعية بضريح سيدي طلحة الدريج بتطوان

جلسة من جلسات قراءة القرآن الكريم والسماع والمديح والذكر الصوفي ، داخل ضريح سيدي طلحة الدريج ، بالحي الذي يحمل اسمه بمدينة تطوان العامرة والتي شكلت على الدوام القاعدة الخلفية للمجاهدين الابرار الذين جاهدوا لاسترجاع مدينة سبتة وغيرها من الثغور والدفاع عن استقلال ووحدة الوطن.

في أول الصورة على اليمين ، المرحوم المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم والذي كان له الفضل في الكشف عن الكثير من الوثائق و الحقائق والأسرار المرتبطة باحتلال سبتة ومليلية والجزر، و بجهاد الولي سيدي طلحة الدريج الانصاري السبتي التطواني وقد استعرض حكيم خلال مداخلته في هذا الموسم الثقافي أزيد من 36 مرجعا مغربيا وأجنبيا تتحدث عن سيدي طلحة وجهاده، وعلى يمينه الدكتور محمد الدريج، ثم الدكتور مصطفى الكثيري المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

قي الصورة الدكتور مصطفى الكثيري المندوب السامي لقدماء المقاومة وأعضاء جيش التحرير بعدما قدم شهادة التكريم للمجاهد وعضو المقاومة الحاج أحمد آيت أحمد و ابنته الدكتورة مريم آيت أحمد وسفير أندنيسيا ، والمرحوم محمد العربي الفتوح الأديب التطواني حفيد سيدي طلحة من جهة الام ، بنظارته وبلحيته البيضاء وببشاشته وطلعته البهية، والذي توفي أيام قليلة قبل انعقاد الندوة وفي نفسه غصة على مدينة سبتة التي ما زالت محتلة، وكان رحمه الله قد خصها بالعديد من الدراسات والمداخلات.

في الصورة الدكتور مصطفى الكثيري المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وهو يقدم شهادة الاعتراف والتكريم للمقاوم المجاهد الهاشمي ناضل من زعماء المقاومة و قادة جيش التحرير في الجنوب وفي الصحراء المغربية، وذلك خلال الموسم الثقافي والديني الذي نظم بضريح سيدي طلحة الدريج بتطوان.

وسط الصورة أيقونة مقاومة نساء تطوان والعرائش والمغرب، المرحومة ربيعة الدريج ، حفيدة سيدي طلحة وهي تتسلم شهادة التكريم والاعتراف من يدي المجاهد الكمندار الهاشمي ناضل قائد المقاومة في الجنوب والصحراء ،بما قدمته من تضحيات لاستقلال المغرب ووحدته ،
و ألقى كلمة رائعة أشاد فيها بخصالها وقدم أمثلة عن بطولاتها رفقة زوجها و رفيق دربها المقاوم الحاج آيت أحمد.

وسط الصورة الفاضلة الأستاذة مارية الدريج ، حفيدة سيدي طلحة وهي تتسلم شهادة التكريم والاعتراف من يد الدكتورة حسناء داود ، بما قدمته من تضحيات وأعمال بطولية لاستقلال المغرب، إلى جانب زوجها قائد المقاومة وجيش التحرير في الجنوب والصحراء ،المجاهد الهاشمي ناضل.

على يمين الصورة المؤرخة الدكتورة حسناء داود قيمة الخزانة الداودية بتطوان وهي تقدم شهادة التقدير تكريما للأستاذة أسيا الدريج حفيدة سيدي طلحة، على ما قدمته في مجال التربية والتعليم من تضحيات جسام .

موسم المجاهد سيدي طلحة الدريج

لقطات من مواسم المجاهد سيدي طلحة الدريج والتي تنظمها الجمعية سنويا قرب خلوته بمدشر البرج بملوسة في منتصف شهر سبتمبر من كل سنة (اقليم الفحص أنجرة – بطنجة)

هذا الضريح (الخلوة) المقصود في الموسم بمدشر البرج بملوسة، يعرفه سكان المنطقة منذ القدم إلى اليوم " بسيدي طلحة " ، وهو خلوة الولي الصالح سيدي طلحة بن عبد الله الدريج وقاعدته العسكرية الجهادية ، ويوجد بموقع جميل و مهيب على هضبة من هضاب مدشر البرج بقيادة ملوسة (عمالة الفحص أنجرة) على بعد حوالي 15 كيلومتر من مدينة طنجة في اتجاه تطوان ، تحيط به أشجار زيتون باسقة وقديمة ،كثيفة وشديدة الاخضرار، تعتبر ثروة حقيقية وهي مثال واحد عن كنوز المغرب الكثيرة والمتنوعة والحقيقية والتي توجد فوق الأرض ، والتي ينبغي الحفاظ عليها من الحرائق ومن النهب ومن الضياع ... أشجار تعود إلى مئات السنين، تزيد المكان مهابة وتضفي عليه قدسية طبيعية والموقع كله يطل علي سفح وادي بوجد به حاليا معمل السيارات رونو على مشارف الطريق السيار وسكة الحديد.

ومنذ احتلال مدينة سبتة واحتلال مدينة مليلية التي تقع في شمال المغرب كذلك ونهب واستغلال كنوزهما لحد الآن، لم يتوقف المغرب عن الجهاد والمطالبة لاسترجاعهما.

ومن أشهر المجاهدين سيدي طلحة الدريج والذي كان يتزعم الجهاد لاسترجاع مدينة سبتة أواخر حكم المرينيين (ما بين سنوات 1426-1430م)، كما تذكره وتوثق له العديد من المراجع البرتغالية و الاسبانية والمغربية ، قديما وحديثا والتي اعتمدها المؤرخ محمد داود في تأريخه المتميز لمدينة تطوان عند حديثه عن سيدي طلحة وكذلك فعل المؤرخ محمد بن عزوز حكيم في دراساته وكتبه القيمة حول المدينتين المغربيتين المحتلتين، وأهمها كتابيه" : لماذا

نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية " (طبع بتطوان سنة 1979) و "سبتة ، متى وكيف اغتصبتها اسبانيا " (طبع بتطوان سنة 1985) وغيرهما كثير.وللتذكير فقد كان المؤرخ حكيم من أوائل من فصل الحديث بشكل علمي دقيق ، عن سيدي طلحة و كان له الفضل الكبير بتعريفنا بجهاده ومعاركه.

ويتحدث المؤرخ الدكتور حسن الفكيكي المختص في حركات الجهاد بشمال المغرب، عن سيدي طلحة في كتابه " سبتة المغربية ،صفحات من الجهاد الوطني"(نشر بالرباط سنة 2000) وعن تنقله ما بين تطوان و قبيلة أنجرة المجاهدة، قائلا في صفحة 147 :" و إذا كان نزول سيدي طلحة الدريج

بتطوان أولا ، فإن ظهوره على رأس المجاهدين سنة 1427م/831 هـ ، لن يحدث لنا أي اضطراب في الفهم ، إذ يكون قد انتقل بعد ذلك من مقامه بتطوان إلى جهة طنجة بأنجرة للقيام بتعبئة رجال أنجرة وغيرهم من اللاجئين السبتيين بعد سقوط سبتة".

ويضيف الفكيكي في صفحة 148 :" ...إذا تأملنا عبارة زورارا ZURARA التي نصت على أن سيدي طلحة كان على جانب من الثراء ، فمسألة تكوين الثروة بالناحية بعد ثلاث عشرة سنة فقط مضت على الخروج القسري من سبتة ، يصعب تصوره ، بل الأرجح أن نرد ذلك إلى خروجه بثروته من سبتة بعد وفاة والده قبل الاحتلال أو في بداية الحصار على أكثر تقدير ، مثلما فعل صالح بن صالح العزفي (وهو آخر حكام سبتة قبل اغتصابها من طرف البرتغال ومن أوائل من قاد الجهاد لاسترجاعها) وغيره ، ضمن الخمسة آلاف الناجية من القتل والأسر."

وأخيرا للحقيقة والتاريخ ، فإن سيدي طلحة وغيره من المجاهدين الأبرار ، لم يجندوا رجال أنجرة والقبائل المجاورة فقط ، بل اعتمدوا في معاركهم لاسترجاع مدينة سبتة وغيرها من المدن السليبة منذ سنة 1415ميلادية، على جميع المغاربة، من كل أقاليم المغرب ، شماله وجنوبه شرقه وغربه واعتمدوا بالأساس على وعيهم الوطني وهو الكنز الحقيقي؛ ذلك الوعي الذي كان قد تشكل في المغرب حتى قبل أن تنهض إسبانيا كدولة مستقلة.

وكما هو معلوم ،كان سكان الجنوب ومنهم السوسيون على وجه الخصوص، على ما يذكره جميع المؤرخين، يهبون لنجدة إخوانهم في الشمال ويشاركونهم بكل غيرة وحماسة وتضحيات جسام، في معاركهم ضد الصليبيين اللذين لم يكتفوا باحتلال سبتة بل انتقلوا الى احتلال طنجة وغيرها من المدن المغربية الساحلية .

ويذكر المؤرخ التطواني العلامة أحمد الرهوني استقرار السوسيين بمدينة تطوان وهم من المتطوعين الذين قدموا إليها من جنوب البلاد للمشاركة في حملات الجهاد ، يقول الرهوني في كتابه "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين" والذي حققه ونشره ضمن منشورات كلية الآداب وجمعية تطاون أسمير ،الأستاذ جعفر بن الحاج

السلمي سنة 1998"ومن مباني السوسيين ، على ما يقال ، قرية قديمة بنواحي سيدي طلحة ، ولا زالت باقية أنقاضها إلى الآن ، أقول : هذه القرية بناها سيدي طلحة الدريج ، لما هاجر من سبتة وعمرها بالعلم والجهاد ".(ص 172).

حفدة سيدي طلحة يتقدمون موكب الموسم وهم من اليمين إلى اليسار : محمد الدريج ، د. محمد الدريج ، علي آيت أحمد ، مناف الدريج ، هشام الدريج ، ونعيمة بوزوبع.

في الصورة عميد أسرة الدريج الاستاذ الفاضل عبد السلام الدريج يتقدم الحضور في موسم سيدي طلحة بملوسة، ببشاشته المعهودة وحسن خلقه وبروحه الوطنية العالية .وإلى جانبه جلوسا الفضليات الكريمات حفدة سيدي طلحة :أسيا الدريج و مارية الدريج وزكية آيت أحمد .

! Erreur

إفادة

حقيقة الحضرة في المواسم الصوفية

الحضرة (العمارة كما في الصور رفقته والملتقطة من مواسم المجاهد سيدي طلحة الدريج) والتي تمثل النشاط المحوري في المواسم التي تنظم بأضرحة المجاهدين لتخليد ذكراهم ، هي عبارة عن اصطفاف عدد من الحاضرين/المريدين شيوخا وشبابا والممثلين لمختلف المناطق والمدن مثل تطوان وطنجة.. والقرى من أنجرة والفحص وبني حزمار وبني عروس وغيرهم ومنهم من يمثل كذلك الاسر المنحدرة قديما من مدينة سبتة، والتي استوطنت المنطقة بعد نجاتهم من المذبحة الرهيبة التي تلت احتلال مدينتهم، ومن المنحدرين من الأندلس وغيرهم، يصطفون وسط ساحة الموسم ويؤدون حركات ورقصات الجذبة، على انغام الجوقة وبالكثير من الخشوع والتهليل وذكر الله، و يستحضرون فيها ما كان يقوم به أسلافهم من المجاهدين الأبرار على عهد سيدي طلحة وغيره وهم يتهيأون جسميا ونفسيا للانطلاق إلى أرض المعركة لتحرير الثغور المحتلة والدفاع عن وحدة الوطن و استقلاله .

هذا هو المغزى الحقيقي للمواسم فضلا عن مغزاها الديني والتعبدي الأساسي والاجتماعي والترفيهي كذلك، ولا علاقة لها ابدا ببعض مظاهر الخرافة وطقوس الشعوذة والتي قد يزاولها بعض الاميين والمتسولين على هامش بعض المواسم وعلى أطرافها... إن المواسم تمثل مثلما تمثل زيارة أضرحة المجاهدين بالأساس، إحياء ذكرى صفوة من المغاربة الذين أعلوا راية المغرب بعلمهم وعملهم ودافعوا عن استقلاله ووحدة ترابه بجهادهم واستشهادهم. إنها إحياء للتاريخ واسترجاع للذاكرة؛ ذاكرتنا كأمة إسلامزيغوعربية، لم ترضخ من سبتة إلى الكويرة ، للصليبية ولن ترضخ أبداً للاحتلال البغيض.

ويرى جل الباحثين في المغزى الاصلي والحقيقي لتنظيم المواسم والملتقيات الصوفية ورعايتها ، أمر يحقق عدة إيجابيات وأدوار هامة على الصعيد الفردي والجماعي والسياسي بالنسبة للمجتمع .

وبحسب هؤلاء، تلبي هذه المواسم والمهرجانات الصوفية أهم الحاجيات الروحية للفرد، من خلال رقيه نحو درجات أعلى من التربية وتزكية النفس ونشر المحبة وقيم التسامح بين الناس، في خضم هيمنة التصوف كشكل راقي من أشكال التدين في المجتمع المغربي.

وفي سياق ذي صلة، يعتبر باحثون مختصون، من قبيل الدكتور عباس بوغالم، المتخصص في الظواهر الإسلامية والباحث في مجالات التصوف، أن الطرق الصوفية التي تنظم مواسمها السنوية للتواصل بين مريديها، تنشط بشكل بارز في خضم "غياب وجود مؤسسات وتنظيمات حاضنة ومستوعبة لتزايد متطلبات التأطير الديني، وعجز أغلب تنظيمات الحركة الإسلامية عن الاستجابة الكاملة لحاجات التأطير الديني."

ويؤكد الدكتور عباس بوغالم ، أن الزوايا الصوفية بالمغرب لم تفقد قوتها وحضورها داخل الوعي الفردي والمجتمعي، بل ظلت دائما حاضرة على المستوى المذهبي و المعتقدي، ولعل ما يفسر هذا الحضور المتجدد هو عمقها وتجذرها الاجتماعي.

وأبرز بوغالم في حوار مع موقع ''الإسلاميون.نت'' أن الممارسة الصوفية هي الشكل السائد للتدين في المجتمع المغربي، مضيفا أن بقاء واستمرارية هذه الزوايا وصمودها كان رهنا بعمقها الاجتماعي.